

99

دار نشر الدراسات والبحوث

وسام الرفيدي

الأفانيم الثلاثة

رواية



الأقنيم الثلاثة

﴿ رواية ﴾

تأليف: وسام الرفيدي

إصدار: مركز الزهراء للدراسات والأبحاث

القدس ١٩٩٨

الطبعة الأولى

تصميم الغلاف (إهداء من): إكرام علام



الإهداء ...

إلى أمي الصديقة الأقرب للقلب ...

في زمن القسوة والتمدي

إلى الرفاق الروافع الحقيقية ...

في زمن القسوة والتمدي

شكرو وتقدير ***

لا بد لي أن أتقدم بشكري إلى الصديق الكاتب "حسن عبد الله"
لاهتمامه الذي فاق مجرد التشجيع، وإلى الرفيق والصديق "أحمد قطامش"
ليس فقط على تشجيعه بل على اهتمامه حتى بتفاصيل مملة لا بد من تحمل
وزرها.

أخيرا وليس آخرا انني مدين بشكري للرفاق الثلاثة الرائعين (عمر تايه،
يوسف العاطي و يوسف عبد العال) في سجن نقحة اللذين تجشموا عناء
المهمة المملة - نسخ الرواية هذه على ٥٤ كبسولة وتنظيم تهريبها عبر ٦ سجون
حتى وصلتني سالمة.

وسام الرفيدي

مقدمة

إن اطلاعي ومطالعتي لمسودة رواية الرفيق وسام رفيدي وصياغتها النهائية لتجربة منعشة حقاً وقّعت تحت تأثير سحرها، فأثارت في نفسي انفعالات وفي عقلي تداعيات أيقظت ما كان هاجعاً في ذاكرتي، بل وفي مواقف معينة تخضبت عيناى بالدمع أيضاً، فهي رواية من طراز خاص، ذلك أنها تضم فيما تضم جوانب عديدة من سنوات الاستخفاء التي عاشها وتلظى في موقدها ورقد في أتونها، تلكم التجربة التي احتوت في جوهرها على معايير عامة للاستخفاء في ظروف بلادنا، فضلاً عن حملها لسمات خاصة حيث يمكن تلمس اتساع رقعة عناصر وبهتان عناصر أخرى كما افتقادها لعناصر ثلاثة تبعاً لمسار التجربة الملحمة ذاتها من جهة وخصال المتخفي ارتباطاً بعمره وخبرته وسجايه ونضجه النفسي. والرفيق في نهاية التحليل تجشأ نبض الخصوصية في إطار احتضانه وحضور القوانين العامة. ولا يجوز بحال من الأحوال ومهما بلغ الجهد الإبداعي أن يخامر أحد الشك أن ما سطره المؤلف هو صورة فوتوغرافية للتجربة. فالرواية هي درجة من درجات التجربة ذات الأبعاد الأغنى والمكابدات الأعظم والتضحيات الجسام بما لا يقاس. ولئن كان فن الرواية هو الأوسع فضاء وتشعبات غير انه يقف ذلولاً كطفل مخطئ أمام مفردات استثنائية كمفردة التخفي أو الحرب أو الحب أو الأمومة... الخ إذ ثمة مقاطع نوعية في الحياة تفوق في دراميتها ومركباتها أية تركيبات وفنون درامية رغم الاعتراف بمزايا الرواية على سواها من الفنون.

ورسالة الرواية واضحة ومحورها نأتى ومبناها جلي ومتسق، وهي في المحصلة تتعدى الألب التسجيلي إلى عمل أدبي ذي نكهة خاصة لم يكن صعباً تحت مضامينها إلا من ناحية الشكل اللغوي والربط الداخلي وانتقاء الألفاظ الجميلة والمحكمة وفي كثير من الأحيان الشعاعية، ذلك أن المضامين أحداثاً توالى على كنعان، التي أملت فرادة مسيرته إبحاراً في خلجان الذات وتقليصات للحوار مع الغير الأمر الذي انعكس في معمار الرواية، بيد أن الفقر في العلاقات الاجتماعية تغلب المؤلف عليه من خلال تدفق شلال مولوجه الداخلي، وان نمو الشخصية الرئيسية وما صاحبها من تشويق في استرجاع مشاهد ومجريات نبذ أية احتمالية لنشوء التناوب والملل في نفس القارئ.

والرواية بتتبعها لمحطات هامة في مسيرة كنعان الملاحق من قبل قوات الاحتلال إنما سلطت كشافاتها على أحد مقوماتها الأساسية، الصراع الذي تمظهر أكثر ما تمظهر في العلاقة التناحرية بين كنعان والمحتل الغاشم، فضلاً عن التناقض الحاد بين الاحتياجات الطبيعية والإنسانية لكنعان وظروف المكان الذي تدثر فيه، كل ذلك في سياق زمني بدأ منذ لحظة مدهامة الاحتلال لبيت عائلته وامتد

للحظة مدهامة بيته السري واعتقاله. واستطراداً لذلك وكجزء بنيوي أيضاً أضيف للرواية أبعاد نفسية غزيرة تخطت أية إشارات سردية وظفت بطريقة خدمت جمالية الرواية ورسالتها وبداهة أن الرواية ليست معادلة فيزيائية ولا وثيقة تاريخية، وإنما يختلط فيها الخيال بالواقع، المعقول باللامعقول، التقدم للأمام والعودة للوراء، الوقوف على السطح وسبر أغوار العمق، وهذا كله طبيعي في الأدب. وإن تكون لحظة المدهامة نقطة مفتاحيه للرواية، هي بلا ريب عامل جذب هائل يشحن القارئ منذ أن يقرأ بصره الفقرة الأولى، ويتجدد هذا الجذب المشحون كلما همد اندفاعه أو حاول التقاط أنفاسه كي يحتسي كوب شاي أو يرتشف فنجال فهوة، وهذا الاختيار الموفق حد الامتياز لم يكن صدفة قياساً بما انطوت عليه تلك اللحظة من غنى واستيلاء لمشاعر متناقضة فائقة السرعة وقطع سياق ولوج سياق جديد. أنها بؤرة مكثفة لأحاسيس وأفكار لا تحصى، مألوفة وغير مألوفة، عادية واستثنائية يحميها إرادة تفولذت في سنوات المجد والفرادة والإنتاج والتحدى، تنحى فيها الجزع والانكسار الروحي والولولة على الخسارة التي حلت، حتى أن السؤال عن السبب، عن الخلل الذي أفضى للاعتقال لم يستغرق سوى برهة قصيرة هيمن عليها وحل محلها موجبات الامتحان الجديد.

الرواية التي ارتبط نسيجها بالمعطيات والوقائع التي عاشها شعبنا في الوطن المحتل وإبرازها لروح المقاومة كنزعة تقدمية تسعى لتغيير وتبديل الواقع القهري باتجاه عتق شعبنا وبلوغه الحرية والاستقلال، إنما تنتمي للمدرسة الواقعية الثورية التي لا تكتفي بالتشخيص وإنما تسعى للتحرير والتغيير أيضاً. والثوريون في بلدان القمع السياسي عمدوا على تكتيك التخفي في المدن سيما تلكم البلدان الصغيرة التي يصعب إطلاق عملية نضالية في ريفها. وحركتي التوباماروس في البراغواي والدررب المضيء في البيرو هما الأكثر شهرة على هذا الصعيد. أما الخبرة الفلسطينية فطابعها فردي وأقل نجاعة في هذا المضمار بالنظر إلى المحدودية الجغرافية والديمغرافية للأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ ناهيك عن غياب الطبوغرافيا الملائمة، كعامل موضوعي مقرر لا يمكن تجاهله مهما برع أداء وذكاء الحالات النخبوية التي تجشمت أو يمكن أن تتجشم هذا الخيار. أما في زمن الجيشان الانتفاضي فقد تصيرت الحالات الفردية لما يشبه ظاهرة جماعية متمردة على الامتثال لقرار الاعتقال وغدت كل مدينة وقرية ومخيم تعج بظاهرة المطاردين الذي هم شكل مبسط وقصير المدى لما مثله وخاض فيه كنعان.

الموقف اليساري عادة لا يحصر نفسه في المنطلق الثوري فقط، بل ويرمي للوقوف على ناصية العلم أيضاً. وعليه، لا يفيد في شيء اختزال شخصية الإنسان، وبالتالي الشخصية الثورية وقولبتها كما لو كانت مجرد كتلة من لحم السياسية والنضال فقط، مثلما لا يفيد في شيء، كتحصيل حاصل، تصويرها على هذا النحو في الرواية أيضاً. فالثوري في الحياة كما هو في الرواية إنسان أولاً وقبل أي شيء

آخر، إنسان مكون من جسم وعقل ونفس، له احتياجات تجمع بين رغبة الخبز والحرية والحب، وبدون الرغبة يموت وبدون الحب تكف البشرية عن التماسل والوجود وتفقد أهم مصدر للذتها، فيما الحرية بقدر ما هي مطلب حضاري غير أن أجنته مزروعة في أطوار الحياة البدائية أيضا.

الغريزتان الأساسيتان في الإنسان هما الدفاع عن النفس وغريزة البقاء بما توجبه من تكاثر، وسوى ذلك هي غرائز فرعية تنبثق عن هذين الجذعين الضخمين، وبالتالي فحاجة المرأة للرجل وحاجة الرجل للمرأة هي حاجة أصيلة دون توافرها يندثر العنصر البشري، بل ووصل الأمر بالبابلين القدامى منذ ما يناهز أربعة آلاف عام في أسطورة (جلجامش) أن جعلوا صديقه (انكيديو) إنساني الشكل حيواني السلوك والمعاشرة، لم يتسق ويغدو إنسانا كاملا إلا بعد أن نال لذة العلاقة بالأنثى، فيما يذهب الفلاسفة المعاصرين إلى حد القول بان الشيء لا يكتشف نفسه إلا بكشف نقيضه الملازم له: الخير والشر، الاشتراكية والرأسمالية، التحرر والاستعمار، العلم والجهل ... وبالتالي يكتشف الرجل مدى إنسانيته والمرأة مدى إنسانيتها من خلال علاقة أحدهما بالآخر. هذا ناهيك عن ما يمكن أن تمثله المرأة للرجل الثوري، والرجل للمرأة الثورية من عون متبادل وأحلام مشتركة وراحة نفسية وتعاضد في أزمان التقهقر والشدائد، فحين ذاك يضفر أحدهما الآخر ويقااتلان بقوة اثنين لا واحد، فالحب قيمة تقدمية سيما إذا كان متبادلا وعميقا، الانفصال فيه يعني بلية كبرى لكليهما، ومنزها عن أية حسابات مالية ووجاهية وباختصار اختيار حر يعتمد في معمعان المعاشرة والعمل المشترك.

والمرأة للرجل الثوري تتعدى كونها مصدرا للجمال والرقّة والطراوة، بل أنها الجمال والرقّة والطراوة أصلا وفرعا وما عداها يرتبط بها ويتفرع عنها، وتتعدى الصدر الدافئ ومفجر مشاعر الحب والاشتياق والافتتان والاشتهاء والشهوة، وتتعدى المونل المرغوب ومطهر الروح من شوائب الزمن وتقال الحياة، أنها كل ذلك وأكثر من ذلك وترتقي إلى مرتبة الشريك الكامل في مسيرته التي يتعذر تصور نجاحه ونجاح أي عمل ثوري بدونها.

ومن الجلي ان الاقنوم الثالث كما سماه كنعان، أي المرأة، قد كان الغائب الحاضر يوما على امتداد سنواته التسع. وطالما تجمر كنعان اشتياقا له فمن الطبيعي أن يحتل حيزا بارزا في اهتماماته وهمومه، ولكن هذا بداهة لا يمت بصلة للتحليل الفرويدي الذي يعتبر (الليبدو)، أي الطاقة الجنسية الكامنة في الإنسان هي محرك سلوكياته. فالإنسان ابن بيئته وعصره أولا. وهذا ما دفع كنعان للثورة على الاحتلال، بل وكنعان ذاته نتاج ظروف محددة ما ترسم طريقه ضمن شكل معين الا تمردا على تلكم الظروف. بيد ان مقولة إذا كانت الظروف هي التي تصنع الإنسان

فعلينا ان نصنع ظروفًا إنسانية، إنما تتطوي فيما تتطوي على اعتراف مبدي بالإنسان كموضوع وذات في آن.

ومثلما تسعى الإنسانية قاطبة لتسخير إمكانات الطبيعة الصماء لتلبية احتياجاتها، فالإنسانية أيضا تسعى لدحر الطغيان والمظالم والقمع وعوامل الاغتراب التي تصادر إنسانية الإنسان وتستهله وتشينه، جنبا إلى جنب مع إزالة العقبات التي تعوق التجاذب الفطري بين الرجل والمرأة.

وكنعان كان يفتش عن اقنومه الثالث محرضا نفسه عليه كحق طبيعي له، كما يتجلى في فصول الرواية وهذا لئن كان باعته أصيلا بل ومتماشيا مع قوله (بدون حب مجنون لا مهرب من قلق دائم) غير انه اجبر اضطراريا لتهدئة هذا الباعث على غرار الأسير الذي يمضي سنوات طويلة في الأسر أو الرهبان أو المرأة العانس في مجتمع محافظ. والنفس يمكن توطئتها على هذا النحو فيخمد المتطلب دون ان يموت شأنه شأن التأقلم مع ظروف مجافية، يساعد في ذلك تطويع العقل لكي يتقبل الاستسلام لحقيقة الحرمان والانشغال ساعات اكثر يوميا، فالعمل مشفاة النفس، بما يمهد للجم احتياجات طبيعية ونشوء استجابات جديدة تلائم وضعية التخفي والسجن و... بما يفضي إلى مصالحة مع الذات وارجاء نوازعها الاصلية.

ولكن هبوا ان شخصية كنعان قد روضت مطلبها لاقنومها الثالث، هذا ان جاز افتراض ذلك، حينذاك يمكن تخيل شخصية أخرى لكنعان تشرح ما كانت عليه وما آلت اليه وما توسلت تشذيبه، وهذا يفضي بها على الأرجح إلى وضعية اقل معاناة وتوتر عصبي واكثر تجذرا بمقاييس الاختفاء، فيخوض تجربة مميزة مع نفسه تنعكس لا محالة في الرواية بما يزيدها، ربما، جمالية ورونقا وتشفيا إنسانيا على غرار الراهب البوذي. وهبوا أيضا إن كنعان عثر على اقنومه الثالث فخرج من وحدته وشحد رهافته واكتملت إنسانيته وعاش تجربة التخفي كاثنين، وقتذاك يختلف السياق ويثرى النص الأدبي، بل ويتجسد نموذج المرأة بإيجابية اكثر في الرواية ويتمحي المرارة التي يمكن تذوق طعمها في عبارات كنعان والمنثورة كنفائف الثلج على شاربين غليظين عن (تأمر الجنس النسوي) وتعدد النماذج السلبية التي ضادفها (منى خطيبته السابقة، ام عيسى، سكينه، هند التي ظهرت وانطفأت كومضة). ويمكن الشعور أن هذه الذاكرة السلبية هي الاستثناء لا القاعدة. أما القاعدة فهي حقائق، الواقع التي تقطع بالقول إن المرأة في الحياة هي الإيجاب الخصب، بل لا خصوبة إيجابية في الحياة اكثر من خصوبة المرأة.

ومن بساطة الظن أن منى مجرد امرأة فسخت خطبتها، فهي تتعدى ذلك إلى حبيبه وذكرياته، بل أنها تذهب ابعد إلى درجة تساوي كل النساء، وبنائها إنما نأت كل النسوة، اتصالا بوضع كنعان الخاص الذي لا يتيح له فرصة الاحتكاك

بسواها. وكيفا نكون منصفين، فعلى الأرجح أنها لم تعرض عن كنعان الإنسان، بل أنها فتننت ومفتونة به، ولكنها أعرضت عن كنعان الخيار الصعب المكثف التي لم ترتق لمستواه وما كان بوسعها ان ترتقي ضمن مواصفاتها العادية. أما هند فهي الأمل الذي تحقق بعد تسعة أعوام من الصبر والاصطبار ولكن ما ان أصابها لهب السعير حتى فرت إلى غير رجعة، فمن يصمد في نار السعير؟

والرواية لئن عرضت كنعان كثوري يمتشق صليب الوطن والشعب على ظهره في جلال النهار ووحشة الليل غير انه يصعب حصر معاني لفظة (جنون) المقترنة بالتخفي والاحتراف. وكنعان زان التخفي والاحتراف الثوري كجنون، فيما يمكن قراءته كأرقى مراتب العمل الثوري الذي لا يضاهيه سعادة على الإطلاق - فالغالي يتطلب الغالي - سعادة منتجة، فعالة، فريضة، ولكنها ممزوجة أيضا بالم المعاناة كما الأم في لحظة ولادتها أو سهرها الليلي الطوال على طفلها السقيم، أو كدها سنوات متصلة تهرق فيها استواء الشباب في سبيل دزينة أو نحو ذلك من أبنائها وبناتها، ولكنها سعيدة وجذلة في كل الأحوال، وعلى الأقل السعادة والجدل هما المظهر الرئيسي في بنيتها الروحية، فيما ينتحى إلى درجة ثانية أو عاشره التعب والمكابدة والعذابات أو تستحيل هذه في صهرج روحها إلى سعادة. أنها الوحدة الجدلية المتناقضة.

ان الخيار الجدي والجدي جدا يعطيك بقدر ما تعطيه، يظهر النفس وينبذ درناتها ويصلب التكوين الداخلي ويصيره صقيلا متقولذا، ويعيد صياغة صاحبه على نحو افضل وارقي ويفتح له البوابات على مصاريعها للاضطلاع بدور بناء مضاعف، بل مضاعف مرات، ويكاد يشطب الفراغات في ذرة الثوري مستقبيا على نويتها الصلبة. وهذا لاحظناه في الرواية حيث تنمو شخصية كنعان الفالقة المترددة والمسحوقه تحت ضغط العاديات من المقتضيات في بدايات التخفي وصولا إلى لحظة الحسم والانحياز حتى نخاع العظم، ولتأتي الهجمة الاعتقالية سنة ٨٥ كمنعطف وصقالة بيني عليها قفرتة وتحولاته الجدية. وما كان ممكنا ان يكون كنعان على نحو آخر وهو المغادر للتو مقعد الدراسة الجامعية بما يرتبط به من حيوية وعلائق وأنشطة وفرح الشباب، وخطيبة بطعم الشهد، إلى مقعد الجندي المجهول الذي يمثل استدارة كاملة وانغماس من الرأس إلى الكعب في دائرة مغايرة لكل ما سبق بل ولقاعدة الإنسان اجتماعي بالطبع. ولا ينبغي زجر كنعان حينما يعرض نفسه عام ٨٦ خلافا لما كان عليه عام ٨٢ إذ انه كان في امس الحاجة لسنوات أربع لمراكمة عوامل الطفرة كنتيجة حتمية في مساره التطوري. فالصفات الثورية كائن حي ينمو، تبدأ متعثرة، متلعثمة، لجوجة، يغلب عليها (الأنثى) والتردد واللجلج والتبرم، غير ان نار الممارسة وخبرة الزمن وفعل الفكر الثوري والأجواء الجماعية بما تكتنفه من قوة مثال متكررة تنهض بها إلى مستويات متقدمة من الوعي والتصميم والثبات على المبدأ والاندماج في (النحن) واكتساب مهارات

العمل والطباع الصلبة وكل ما يلزم مؤونة للمسيرة الثورية، وهذا هو الجوهرى العام الذي يبلغه الخالص كل بطريقته الخاصة. والاحتراف الثوري حينما يكرس المرء نفسه بجماع شخصيته وكامل جوارحه في سبيل قناعاته ومبادئه، إنما يتبوأ درجة سامقة وحينما يكون مشفوعا بمهارات ومواهب حقيقية إنما يرتقي لخانة طليعية وأمامية حقا يتقدم فيها على سواه وبجدارة يجوز لقلب طليعي وحارس أمين عليه.

بيد ان الاحتراف في الساحة الفلسطينية غالبا ما تعرض للمسوخ والتجويف حتى بات كل متفرع وموظف محترفا! بل وعانت الثورة المعاصرة من أورام وصيد جيش المتفرعين بما شكل عبئا ثقيلا على الشعب وأهدافه واستولد طعونات لا تحصى، ناهيك انه من بين أوساطهم انبثقت الشرائح البيروقراطية المكتنية التي نشرت فيما نشرت الفساد والإفساد وأجهضت في التحليل النهائي القرار السياسى والروح الكفاحية للجمهرة المناضلة ويجيء كنعان كطراز بديل، وثاب، متوقد ومتحرر من غبار وعطن الذاتية والشكلانية.

وتجربة كنعان التي صمدت نحو عقد من الزمن، هذه الفترة الطويلة نسبيا، لم تكن شجرة زيتون أثمرت نضالات وإنجازات فقط، وعجن طحينها بخميرة المعاناة المحضة فقط، بل وتميزت بذكاء وفرايسة وتحولات وتفكير استباقي مكنته من تقادي فخاخ المخابرات وافشال سعيها المحموم لاعتقاله مدة تزيد عن تسعة أعوام.

لكن خليق الاعتراف ان المتغيرات السياسية والتسوية ما بعد مدريد قد أشهرت سيفها البتار وذبحت هذا الطراز – النموذج الذي شخب دمه بدون رحمة. فهل ما فتى هذا النموذج مطلوبا؟

ان هذا النموذج قد استدعاه التاريخ في مرحلة سابقة كأعلى شكل من أشكال الاستجابة لاستعصاء التناقضات وتحدي القانون الاستبدادي، أما في ظل التسوية فثمة سلطة تفاوض وحركة سياسية تدعو للديمقراطية والمجتمع المدني، كل الالتزامات تضغط بما يكفل تطور متدرج هادئ للمجتمع في إطار من التبعية والإلحاق، وعليه، لم يعد هذا النموذج باهرا أو مطلب موضوعي، أما في حالة ان تخفق العولمة الاقتصادية – السياسية – الثقافية في تجميد الصراع ولو في المستقبل المتوسط والبعيد، فوقتذاك يمكن التخمين بإمكانية تفاقم التناقض الوطني والتناقض الاجتماعى بما يشترطه ذلك بداهة من تطورات على صعيد اقليمي، وبالتالي يغدو هذا النموذج محطا للدرس والالهام والاقتداء. وعموما لقد ولد هذا النموذج في رحم ظروف موضوعية محددة وكان الأنبل من بين النبلاء.

وكما تشي به سطور وفصول الرواية وما وراء السطور والفصول كان من المتعذر إستيلاء هذا الطراز دون الاستئناس بالعقل الجماعي، المرشد الجماعي، المربي الجماعي، الخط الجماعي، ضمير الشعب، أي الحزب الذي يطل برأسه من مسامات الرواية كيد مساعف، يحضر كلما دعاه كنعان، يضبط انفعالاته، يستأصل تشوشاته ويعضده حينما يقعده المرض ويؤمن له متطلباته الحياتية والفكرية والذوقية، سواء على شكل رسالة أو تعميم أو زيارة أو توجيه أو رققة أو لوازم. ومثل هذا الحزب، بدهاءة، لا يؤدي مثل هذا الدور إلا إذا اتسم بقدرة عالية من الإلهام والإقناع وبعث الآمال.

وكنعان لا يأخذه الاغترار والدلال فيعتقد انه نسيج وحدة، بل يعترف برفقاء المهنة وينفذ تعليمات الحزب ويتسلح بها كراية له (اغسل ذاتك بالماء والصابون وتجد)، (يصعب تبلور حياة سرية دون عناية الحزب). وهذا مبرر تماما، على اعتبار ان الانتماء للجماعة بما تمثله من قيم وأحلام وأهداف ونظم هي الركن الركين في عنفوان المناضل وان اهتز، اهتز كل شئ، وان ارتبك، ارتبك وتبدلت أولوياته ومقاييسه وزاوية النظر للأشياء.

ويمكن تلمس قسوة ولؤم سنوات التخفي بالنسبة لكنعان من خلال تنقلاته الدائمة، فهو لا يستقر في مكان قط، وحينما نستذكر صغر المدينة التي أقام فيها، الأمر الذي اضطره على التيقظ الدائم واستنفار قرون استشعاره الأمنية، كيلا يصادف من يهتك سره. وثمة أمثلة حية أيضا كالبيت الذي أمضى فيه ثلاثة شهور دون إنارة ليلية، والفرشة المحشوة حجارة والجدار الذي اعتاد محادثته على طريقة الشاعر قباني (أهرب من الجدار إلى الجدار) لكن ليس كرمز بل حقيقة دامت سنوات، محادثة بكماء صماء، مجدوعة الأنف، مصلومة الأذن بما يطفح ظما وجوعا للناس، ومثل هذه المحادثة الشوهاء، إنما هي ضرورة وموقف دفاعي للتخفيف من ديناميات الذاكرة الضبابية المائعة التي تنشأ في رحم الوحدة والعزلة. فضلا عن ذلك فكنعان يختتم مسيرته " المجنونة " بابتلاع الأوراق المستنقعة في الكاز واعتداء الجنود عليه كوجبة سبقت الاعتقال والتحقيق.

وحينما التقيت كنعان - وسام في السجن بعد عام ونصف لاحظت هزول جسمه وانخساف وجهه، وجنتاه غائرتان وعيناه ذابلتان، إلا من بريق جري يومض بقوة إرادته وطهرانية ثوريته، وحالما عانقته لمست أصابعه أضلاعه واحدا واحدا، فأصبت بالوجوم للحظة بعد ان تسلل وقع هذا اللقاء بعد عشرين عاما من الانقطاع إلي خلجات فؤادي، ولم يزايلني أثر هذا اللقاء المفرح - المفجع الذي جعلني اعرف فرط ما ناعت به سنوات من أقتال ومكابدات، وما بعث المواساة في نفسي هو اقتناعه بخياره وضحكته المججلة كما لو ان قلبه خال من الهموم وكما لو ان مزاجه لم يعرف الاعتكار.

ولا تقوتني الإشارة إلى أنه من بين طيات مسيرة "الجنون" كان يطلع يوميا
وجه الأم ودعاوى الأم. فروح كنعان تشظت توقا لأمه ولم تكن لتنهأ وتستطيب إلا
حينما يحتضن أحدهما الآخر، وأمه الطيبة المتماسكة الجلود لم تتردد في إضرام
العزيمة والنشاط في ابنها، وقد حملت همه أينما ذهبت وحمل همها أينما ذهب كتوأم
روح، بل وفي مائها الرقراق القراح طهر جروح أيامه واستظل بظلالها من لهيب
أحلامه الثورية التي حرقت جلده واستوقدت نارا في صدره لا تنطفئ .

أحمد قطامش شباط / ١٩٩٥
معتقل أنصار ٣ / النقب

الفصل الأول

الفصل الأول

باب
البيت السري يتلقى الضربات. الطرقات التي يسمعها الآن في ليلة صيفية، جميلة، وادعه، تنبئ بما قد يكون تغييراً جذرياً في حياته. بالقبضات، بالأحذية العسكرية الثقيلة، بأعقاب البنادق قد يحتفل بعيد ميلاده الجديد. أية حياة ستكون عندما تعلن عن نفسها عنوه، بصخب وعنفوان الجزمة العسكرية الثقيلة؟ حياة كهذه أعلنت عن نفسها على هذه الشاكلة قد تكون حياة دامية تبدأ لتتقضي. أيكون ميلاد حياته هو ذاته موتها؟؟

كانوا بطريقة طرفهم على الباب كمن يمارسون طقساً وثنياً، جماعياً، يدانياً. كانوا أشبه بقبيلة من أكلة لحوم البشر يرقص أفرادها رقصة جنونية شهوانية يصاحبها ضياح وزعيق أحمق يهتك سكون الغاية، ممزوجاً بقرع الطبول التي تشي بشهية جائعة متعطشة للنهش والافتراس. كذلك تخيلهم كنعان القابع في وكره السري مع هشام في تلك الليلة من أب، بعد منتصفها بنصف ساعة عندما بدأ الجنود بمحاولة اقتحام بيته.

طرقات سريعة، متلاحقة، عنيفة ووحشية تحطم ليس فقط سكون البيت ذي الغرف الواسعة قليلة الأثاث بل أيضاً سكون الحي الصناعي الهادئ ليلاً إلا من نباح كلاب مطحنة الشعير المجاورة. لقد توقفت الكلاب عن النباح عندما شرعوا بممارسة طقسهم، مذعورة من تلك الأشباح الليلية التي هزمتها بعلو صوتها وضجيجها. لقد هتكت طرقاتهم وداعة الليلة الصيفية الجميلة، انسياب حياته السرية، الرتيبة بساعاتها. كانوا بمحاولاتهم لاقتحام عرينه الذي استعصى على مخبراتهم سنين طويلة كمن يصارع عذراء، ناهد ياتعة ليمزق بكارتها بوحشية، وبيته السري-عرينه، تلك العذراء التي تقاوم دفاعاً عن عذريتها. الطرقات الوحشية تحطم ومنذ اللحظات الأولى نسق حياته التي اعتاد. من أين يتأتى نسق حياة غريبة-استثنائية؟ من تقاليد حياة خاصة به يحياها سنين وسنين، من ساعات يومه يقضيها بطريقة خاصة ليس كغيره من الناس. لهم عاداتهم وله عاداته! لهم دينهم وله دينه! سنين وسنين يحيا خارج قبضاتهم، يقرر تقاضيل يومه، يمتلكها، يخضعها لمتطلبات العمل الثوري الذي احترفه، حتى تحولت حياته السرية لرحم فولدت تجربته ونار القسوة والعمل الثوري اليومي كانت. الحبل السري الذي يغذي تجربته تلك. كان صدى الطرقات عالياً جداً، رددته الجدران، الأبواب، الكراسي والكتب، رددته أوراقه وأقلامه، رغيف خبزه وجرعة مائه، سبخته الحمراء وسجائره!! رددته سنوات حياته التسع التي حملت تجربته وأنجبتها، رددته المدينة التي احتضنته

وضمته لصدرها، شوارعها وأحياءها، في بيوتها وأزقتها، مدينه رام الله التي اختفى فيها عن عيون محتليها ليحتمي بها منهم. كان الصدى كأنياب وحش يستعد ليفترسه، أحسه كمطرقة تهوي على رأسه، تهز كل خلية من خلايا دماغه للاستنفار والعمل، تصيح به أن عليه أن: تصرف بسرعة يا كنعان، قد يكون المحذور وقع. طرقات هذه المرة ليست كالتي كانت قبل سنين عندما تعبوا طرقا ورحلوا. إنها مرحلة جديدة يا كنعان. مواجهة تتطلب تحديا من نمط آخر غير الذي تعيشه منذ سنين، مواجهة معركة يجب أن تنتصر فيها، لا مجال إلا الانتصار، ليس أقل من الانتصار.

مرحلة جديدة ومواجهة جديدة، تنطوي صفحات المرحلة السابقة إلا ذاكرته تحفظ اسطرها سطرًا سطرًا، كشرائط سينمائي، يسجل يوميات ماضية.

لحظات الانعطاف في حياة الإنسان لا تنسى بداياتها مهما مر الزمن عليها. فهي تتحفر عميقا في الذاكرة، ترفض مغادرتها، يستعيدتها العقل متى شاء. الحب الأول لحظة انعطاف، فهل ينسى الحبيب تلك البدايات مع حبيبته، كلماته الأولى المتلعثمة، رعشة يده عندما لمست يدها، حيرته أين يضع أنفه عندما قبلها القبله الأولى؟ الانخراط في حزب سري لحظة انعطاف، فهل ينسى أحد الكلمات الأولى لمن عرفه طريق السرية والنضال؟ أين كانا يتمشيان أو يجلسان عندما تحدثا. أول اجتماع سري عقده، أول بيان سري وزعه، أو أول مهمة كلف القيام بها؟ ولادة الطفل الأول عند الأم لحظة انعطاف، فهل تنسى الأم مخاض وآلام الولادة الأولى؟ وعيني وليدها الباكيين لأول مرة، فمه الكرزي الصغير يمتص حلمة ثديها وقد ألقته إياها عند رضاعته الأولى؟

كان كانون الأول عام ١٩٨٢. لحظة الانعطاف الكبرى في حياة كنعان. في ليلة باردة موحشة بعتمتها، عند الساعة العاشرة مساء جاءه التبليغ:
- رجلك معتقل وقد يعترف، لا تنم في البيت، تدبر أمرك حتى نرى إلى أين ستتجه الأمور.

الحزن يلف البيت بعباءته السوداء، فالموت زار العائلة قبل أسبوع فقط واختطف والده ورحل مخلفا وراءه ليس الحزن فقط بل أعباء عائلية جديدة ألقاها على عاتق كنعان وآمالا لدى والدته بأن يحل محل الراحل!!
- يبدو أن المصائب قررت أن تتكالب سويا، فأني مصادفة تلك؟
علق كنعان على التبليغ، مستشعرا أياما قاسية في الأفق.

أياماً قاسية؟ بل سنين وسنين. بعد تلك الليلة الكانونية الباردة، الموحشة لن يعد بيت عائلتك يفتح لك، سيحرم عليك أن تتجاوز عتبة! تخرج منه ولا تعد إليه. فالأمور ستتجه لکن للأسوأ! اسمك الذي كان مخفياً عليهم، غداً على الطاولة، ليس الاسم فقط بل والموقع الحزبي والمهام والاتصالات، لقد اتجهت الأمور للأسوأ وفي الأفق ما لا يمكنك تصوره مهما تسلحت بالقدرة العلمية على استشفاف ملامح مستقبلك.

حالما تلقى التبليغ خرج من البيت عاقدا العزم على أن لا يتردد عليه نهائياً كي لا يقع بين أيديهم. بيوت الطلبة من معارفه كثيرة سواء حول الجامعة أو في المدينتين. كان يقضي عند هذا ليلة وعند ذلك أخرى متنقلاً يحمل على كتفه حقيبته الجادية وفيها كتبه، منامته وعلب احتياطية من سجاثره، وخشية أن يكون المحظور وقع ولا يدري كان يتجنب حواجز التفتيش العسكرية بأن يلتف حولها، ينحرف عن الطريق، إن واجه دورية لجيش الاحتلال، واستمر يذهب إلى الجامعة رغم ذلك.

في كانون الأول من كل عام كانت الجامعة تعج بالحركة والتوترات والأنشطة، ففيه الانتخابات السنوية لمجلس طلابها وفيه ذكرى تأسيس الجبهة الشعبية والتحرير لذكرى الثورة وانطلاقه فتح. لذلك عادة ما تبدو قاعات المحاضرات في كانون الأول شبه خالية، فالكل منهمك إما كنشيط نقابي-سياسي أو كمشارك في جدالات لا تصل إلى نتيجة، جدالات يزداد ضجيجها يوماً بعد يوم أو كمستمع أو مراقب لما يجري.

لم يكن كنعان ليشارك ظاهرياً في التحضير لأنشطة كانون الأول، فتوجهات الحزب كانت تلزمه بأن يبقى رأسه خفيضاً وانتماءه غير معلن لقطاع واسع. إنما في الواقع فهو ينهمك كل عام مع رفاقه بإقرار ما يجب إقراره ومتابعة ما تقرر إن كان بشأن التحضير للاحتفال بذكرى تأسيس الحزب أو المشاركة بذكرى انطلاقة الثورة وحركة فتح.

لذلك قليلاً ما كان يجالس منى في "كوانين" الجامعة. هي دقائق يقضيها عند تناول الغذاء أو لقاء سريع حول كوب الشاي في مقصف الجامعة الذي كان يعج بأضعاف ما يتسع به من الطلبة وتسمع فيه صخب المتجادلين فيتحول لما يشبه سوق خضار أو خلية نحل. ترى حلقات المتناقشين وقد تحولت لأهرامات: تبدأ الحلقة باثنين لتتسع أكثر فأكثر وعندما يغدو سماع المتجادلين ورويتهم متعذراً يبدأ المتجادلون والمستمعون بالزعيق فيصعب التمييز بينهما. عند تلك المرحلة من النقاش يبدأون بالصعود فوق الطاولات والمقاعد، يطل كل واحد من فوق رأس

الأخر حتى يتشكل هرم المتجادلين. ومنى تتبرم كلما رأته وهموم ومشاعل كانون ظاهرة عليه، هندامه مهلهل وعيناه حمراوتان من السهر، زغب ذقنه غير الحليق ظاهر وسيره يدل على إرهاقه.

- ما هذه الهيئة التي تظهر بها؟ ألم ترَ إلى نفسك في المرأة؟ ملابسك، ذقنك، عيناك كأنك خارج من القبر. رح نم بضع ساعات، غير لباسك واحلق ذقنك.
- أنت تعرفين، انتخابات وانطلاقه وفوق كل ذلك هجمة على المنظمة الحزبية، ورفيق في التحقيق لا ادري هل سيفعلها أم لا !!
- لا اعتقد انه سيفعلها ويعترف عليك. قالت جازمة بدون أساس! نظر إليها برقة وابتسامة ساخرة تعبته ترسم على شفثيه، كانت حبييته تنطق برغبتها وبما تريده وتتمناه.

بعد أسبوع على تركه لبيته دهم المحتلون بيتا ملاصقا لبيت كان يقيم فيه مع بعض الطلبة. حالما سمع صوت جلبتهم عبر الشارع توقع أن يكون مراقبا وكشفوا مكانه ويبحثون في بيوت الحي عنه، لم يتردد، فتح الباب سريعا، وتسلق السور المحيط للبيت، قفز وانطلق يركض بين البيوت المتلاصقة عند أطراف مخيم قدورة باتجاه بيته، كان يريد التأكد إن كانوا دهموا بيت العائلة أم لا. كمن على مبعده من البيت يراقبه وهو يتستر بالأشجار. عند الساعة الثانية عشر ليلا، نقر على زجاج غرفة نوم أمه:

- أنا كنعان، هل حدث شيء؟

نهضت أمه من سريرها مجزوعة ومثلهفة ولم تكن غفت بعد. أنى لها النوم وقد عرفت من كنعان احتمال مدهامة البيت بحثا عنه! منذ عرفت قدمه طريق السياسة كما قالت له مرارا ومنذ بدأت بساطيرهم تطأ ارض البيت، أضحت أذناها تلتقط أصوات الشاحنات العسكرية فتضطرب لسماعها وما أكثر ما تسمع والبيت يقع على طريق الشاحنات ذاتها!!

- لم يأتوا. ادخل ادخل الدنيا برد. سأضع إبريق الشاي على النار. أين تدور في الليل؟ لن يأتوا، ادخل.

كانت هي الأخرى تتحدث برغبتها بما تريد وتتمناه.

- على أية حال لو كانوا سيأتون لعلوها قبل الساعة الثانية عشره. لأدخل. قرر بيته وبين نفسه ودلف باب المطبخ. كان حنينه للنوم وكأس الشاي يقودانه. الذات دائما تستمرئ السكنية والثوري الذي يتركها تقوده وفق رغباتها تقوده أحيانا لحتفه.

نصف ساعة بعد منتصف الليل وبينما يجلس مع أمه وشقيقه يشربون الشاي وعيناه تلتفتان جهة الشارع مضطربة ومتوجسة، وإذ بالجنود يظهرون

نازلين الشارع تجاه البيت. ميز سريعاً ضابطاً في المخابرات يسير أمام الجنود. قفز كالمطوغ تجاه باب المطبخ وهو يقول لأمه بلهجة سريعة أمره لكن خافته:
- لا تتركي الكأس الثالثة على حافة النافذة.

حالما دلف من الباب وركض تجاه السور المحيط بالبيت تسلقه والتفت فإذا بالجنود يطوقون البيت قبل اقتحامه، قفز واخذ يركض في حاكورة الجيران سعدا باتجاه التلة المشجرة والمطللة على بيته. صعد فوق شجرة وكمن يرقب البيت. بعد ساعتين من جلسته القردية فوق الشجرة، تأكد من تركهم البيت فترجل ونزل عناندا. نقر زجاج النافذة من جديد:
- افتحي افتحي.

لم يكن يبغي من عودته إلى البيت سوى توديع أمه ومعرفة كيفية تصرفهم. هل أساعوا لأمه، لشقيقه ولعائلته؟ هل فتشوا البيت، ماذا قالوا؟ أي كافة التفاصيل التي يمكن أن يصوغ منها استنتاجات تنفعه. كانت أمه مضطربة. سينتزعون قطعة من جسدها. ولم ينطل عليها حديثهم المخادع "نريده لخمس دقائق لا أكثر. بضعة أسئلة ويعود إلى البيت". يادرها بالسؤال حالما دخل البيت المعتم عمدا:
- ها ماذا قالوا وكيف تصرفوا؟

- لم يمشوا طويلا ولم يفتشوا. سألوا عنك وقالوا نريده خمس دقائق نسأله بضعة أسئلة ويعود.

ابتسم كنعان ابتسامه من يقول "إنني أفهم" وهزت أمه رأسها دلالة بأنها هي الأخرى تفهم وتابعت تسأل حول الأهم:

- والان ماذا ستفعل؟ طالما قلت لك طريق السياسة وعري يا كنعان ولم تسمع، تفضل الآن ماذا ستفعل؟

- أنا لن اسلم نفسي حالياً، وينبغي أن اخرج حالا. رمى جملته الصاعقة كقنبلة في وجه أمه ودون مقدمات أو شروح لا يتسع لها الوقت الحرج.

- بلا هيل أنا قلت لهم انه يدرس ليلا في مكتبة الجامعة فيتأخر وينام هناك. صباحا سلم نفسك والله يسترها. قالت كأنها لم تسمع بجملته القنبلة أو لا تريد أن تسمع!

- لا وقت لدي لشروح كثيرة. سأشرح لاحقاً، وعندما تهدأ الأحوال سأبعث لك. إنما الآن لن اسلم نفسي.

عبثاً ستقتنع، حاجت بلهجة متوترة وأحيانا زاجرة وأخرى مستعطفة وهو يتألم لحالها وحاله في أن! لحظات متوترة وجمل يتقاذفانها سريعاً لا تقنع أحدا بشيء. كلمات تتساقط ولا يعيرها الآخر أهمية، كأنها غير موجهة له!

- دعيني اخرج من هنا وأبأ مرتاح. لا تغضبني إذ سيتعني أن ارحل وأنت غاضبة، يجب أن اخرج.

وحسم الأمر بأن سارع يعانقها ويقبلها. كان بصعوبة يغالب دمعة مترغرة في عينيه، قلبته مرتعشة، حنانا وخوفا عليه. ألحت عليه بأن يأخذ نقودا، رفض حسمت هي الأمر على طريقته بأن دست المال في جيب معطفه الشتوي. أدار ظهره وسار نحو الباب الخلفي. فتح الباب فجاءه صوتها من الخلف:

- رح يا بني. الله يرضى عليك!

خرج يحمل دعاءها الأمومي ليستقبل به حياته الجديدة.

بعد أسبوع تسلم رسالة من الحزب وقرأها بعناية فائقة سطرا سطرا. وكلمه كلمه، فهي لم تكن عادية بكل المقاييس. منظمة الحزب في المنطقة في وسط الاشتباك مع المحتلين وهذا ما غير مجرى حياته. الرسالة تفوح برائحة الاشتباك والمواجهة وتضمنت تقييما لمجريات الهجمة المخابراتية على المنظمة فيما أتبع التقييم بإشارات مسهبة وطويلة حول "أهمية بقاء الرفيق أي رفيق" كما قالت على رأس مهامه وعدم سماحه للاحتلال بأن يحجز طاقاته وصولا إلى تأكيد الحاجة الماسة إلى محترفين يهبون الحزب حياتهم لا سويغات يومهم فقط. في نهايتها جاءت الرسالة على التبليغ الرسمي التالي: تقرر أن لا تسلم نفسك وان تنتقل للتخفي، للحياة السرية بما تتطلبه تلك الحياة من إجراءات، تحوطات، متطلبات وقواعد ينبغي مراعاتها حرفيا وأولها أن لا تستقبل أحدا وان لا تزر أحدا.

"أهمية بقاء الرفيق أي رفيق على رأس مهامه" كنعان يدرك أهمية هذا الاستنتاج الحزبي-الأمني المستقى من تجربة الحزب العملية في الوطن، فهجمات المحتلين على منظمات الحزب كانت تعيده للوراء نتيجة انقطاع التجربة وتركيم الخبرات بفعل حشر قادتها داخل السجون والزنازين "إن الحفاظ على تراكم التجربة والخبرة، بالحفاظ على كوادر ومفاصل أساسية، يغدو المدخل لضمان بناء بنية حزبية متنامية الفعالية وراسخة أكثر". قالت الرسالة. مستوى التراكم كان يتطلب بالحاح أن يبقى الرفيق على رأس مهامه. ففي عام ٨٠-٨١ جرى صياغة وتبرير شعار "حل المسألة التنظيمية" كان قرارا عمليا موجه لأعضاء الحزب بضرورة التركيز أساسا على بناء منظمات حزبية لتغدو بعد بضع سنوات بعد ترسخها، قاعدة ينهض فوقها العمل الحزبي بكافة تفرعاته وأهمها الجماهيري والسياسي والإعلامي والنضالي. وما تحقق في بداية الثمانينات كان ضئيلا إلا أنه واعد، فتلك الأنوية الحزبية الحلقية المتفرقة هنا وهناك والمكونة أساسا من طلبة جامعيين ومتقنين وبعض العمال بدأ ينظم عملها قرارا موحدا إلى هذا الحد أو ذاك وان لم تنتظم بعد في شبكه تنظيميه حزبية موحدة. كان الحزب في الوطن يحبو

على أربع كالوليد، ولكنه شرع يتعلم كيف ينتصب. جريدة الحزب تصدر بين فترة وأخرى وإن بصورة غير منتظمة، توجه وتحث وتناقش السياسة التنظيمية بالأساس. تشكلت أنوية لمنظمات نقابية للطلبة والنساء في الجامعات والمعاهد والمدن، فيما عمل الحزب بين عمال الأرياف- ذلك القطاع الواسع- لم يتمللم بعد. كانت أنوية المنظمات النقابية قد بدأت تحل محل لجان العمل التطوعي- الأداة الوحيدة تقريباً لتعبئة النشاط وتوجيههم وتسييس وعيهم في عمل الحزب منذ أواسط السبعينيات، وقد جرى التعامل مع المنظمة النقابية كأداة للتوسع بين الجماهير دون تركيز جدي على برنامجها ومهامها النقابية.

إن متابعة كل ذلك بأفق بناء منظمة حزبية موحدة في الوطن ذات انزع جماهيرية وسياسية وإعلامية وأنشطة كفاحية بات يتطلب ليس فقط عدم انقطاع التجربة والتراكم بفعل الاعتقال، بل وتربية فريق من القادة والكادرات المحترفة التي تأخذ على عاتقها هموم الحزب والنضال فقط دون شيء آخر، إذ لا حزب ثوري دون فريق المحترفين. فالقناعة كانت راسخة بأن الحزب لا يئنيه الهواة بل المحترفين، وهؤلاء يحملون هموم الثورة منذ البداية إلى النهاية بجموع شخوصهم، فالثورة والحال هذه كالزوجة ترفض الضرة.

وتطورات الصراع مع الاحتلال سنة ٨٢ كانت تدفع بذات الاتجاه، فالثورة وبعد صمود أسطوري بكل المقاييس ونزعة إستشهادية وقاتلية بارزة، وجه لها المحتلون ضربة عسكرية قوية أجبرتها لا على ترحيل الآلاف من مقاتليها من لبنان، قاعدة الثورة الأهم إلى أصقاع المنطقة العربية، بل وأيضاً الانكفاء في فعلها العسكري من لبنان، كل ذلك دفع للصدارة موضوعة "تقل الأرض المحتلة" والتي غدت "موضة" بفعل السياسة الخاطئة لفصائل الثورة بإهمال الوطن وبناء ركائز النضال فيه. كانت الثورة في سياستها مستسلمة لحقيقة نشأتها الموضوعية خارج الوطن الأمر الذي قادها لمعاملة الأرض المحتلة لا كساحة النضال الرئيسية بل كموقع هام لا أكثر من الناحية الفعلية. كل التركيز كان على بناء مجموعات صغيرة من الفدائيين التي سرعان ما يتم تصفيتهم سواء قبل أن تنشط أو بعد أن تنشط بفترة وجيزة. لم تكن تلك السياسية تستهدف بناء بنية تنظيمية-جماهيرية وسياسية للنضال الوطني وكسياج للعمل العسكري، وهذا ناتج أصلاً من كون الثورة اندلعت في الخارج وأجبرت على خوض معارك متواصلة لحماية وجودها الذي أفضى إلى تقصيرها حيال الداخل علاوة على مستوى تطور الفكر السياسي الفلسطيني ومدى نضج تعامله مع التنظيم وأشكال النضال. لذلك توجب أن يدخل النضال مطلع الثمانينيات حتى تبدأ التنظيمات السياسية سباقها وتنافسها لبناء تلك البنية. كان يجب أن تكون الهزيمة العسكرية سنة ٨٢ كجرس يقرع طارحاً موضوعة "تقل الأرض

المحتلة" كموضوع لبناء بنية النضال باعتبار الوطن ليس موقعا هاما بل ساحة النضال الأساسية.

وحزب كنعان الذي كان شرع في هذا البناء سنة ٧٥ سرعان ما محقت المخابرات تجربته الغضة سنة ٧٦ في هجمة شاملة على بنية تشكلت بطريقة إدارية مفتقدة لمنهجية حزبية-علمية في بنائها. اعتقل العشرات وتفككت المنظمات الغضة الضعيفة التي لم تقدر أن تدافع عن نفسها. واستشهد محمد يوسف الخواجا وهو يحمي بدمه منظمته في ٧٦/٦/١ في زنازين التحقيق في سجن رام الله على أيدي رجال المخابرات الإسرائيلية.

شرع بالمحاولة من جديد نهاية السبعينيات ومطلع الثمانينيات ولكن هذه المرة بمنهجية جديدة تعتبر بناء حزب مسألة سياسية تنظيمية لا موضوعة إدارية. وضمن تلك المنهجية طرحت ضرورة بناء فريق المحترفين من جهة وضرورة الحفاظ على الذات والمفاصل الأساسية خارج قيد الاعتقال وتكريس التقاليد الحزبية كمناخ تربوي للشخصية الحزبية المتسقة.

تسلم كنعان رسالة الحزب وقراره وهو في بيت قريب من الجامعة ينتظر منى لنتهي محاضرتها. سيندس بين الجدران مخلصا وراء ظهره كل تلك النقاشات الصاخبة في الساحة الطلابية داخل الجامعة منذ الاجتياح الإسرائيلي للبنان حتى مناسبات وأنشطة كانون الأول.

منذ الرابع من حزيران ما عادت الجامعة كما كانت. جدرانها تمتلئ بمختلف أنواع الملصقات ابتداء من ملصق الشعار التحريضي مرورا بالبلاغات جول نتائج المعارك وصولا لإعلانات مكتوبة حول الأنشطة التضامنية مع المقاتلين. ما وجدت تلك الجملة الإسرائيلية "أيها المخرب قف وفكر" أثر لها على مزاج الطلبة السياسي-المعنوي شأنها شأن التصريحات العنترية الفارغة لبيغن وشارون والقادة العسكريين حول تصفية المخربين في ٤٨ ساعة!!

بدأ كل تنظيم في الجامعة يعلق ويعمل كيفما يرى مناسبا، ولكن سرعان ما اصبح النشاط الدعوي-التضامني موحدا بإشراف مجلس الطلبة. أما الطلبة تلك الكتلة البشرية التي تدوخ رأسها النقاشات التي لا تنتهي ولا تدوخ هي، فقد تحولوا في عشية وضحاها إلى خبراء في الشؤون العسكرية! هذا يفتي في القدرة العسكرية الإسرائيلية وتشكيلاتها القتالية، وذاك يشرح حرب العصابات التي تستخدمها المقاومة، وثالث يملك الجرأة لكي يدلني بدلوه في توزيع وحدات المقاتلين على

المحاور لكونه.لما بجغرافية بيروت وضواحيها!! ففي الحرب يتحول كل المتفرجين لمحليلين عسكريين، مثلما كل نزلاء المستشفى أطباء، وكل مساعدي المحامين رجال قانون وكل المعتقلين ضالعين بشؤون المحاكم وسياسات أجهزة التحقيق والقضاء!!.

وما بين الدعاية العسكرية الإسرائيلية الهادفة للتأثير المعنوي السلبي، والدعاية الفلسطينية الفصائلية المتفائلة أكثر من اللازم، كانت جموع الطلبة تسبح، تلتحم بالثانية وتضيف لتفاولها تفاولا جديدا فتغدو المقاومة الفلسطينية قوة لا تقهر والآلة العسكرية الإسرائيلية نمر من ورق!. ولكن بعد ٣ شهور كان المقاتلون البواسل الذين دافعوا عن شرف الأمة العربية مجبرين على الخروج من بيروت يحملون أسلحتهم الخفيفة فيما ياسر عرفات والقيادة الفلسطينية وثقة من ضمانات المبعوث الأمريكي والذي رتب الانسحاب!! النتيجة مزدوجة، إنقاذا لمادة الثورة الأساسية ومقاتليها من جهة ومجزرة إسرائيلية-كتائبية بشعة ضد اللاجئين في صبرا وشاتيلا حين قطعت أطراف وزؤوس النساء والشيوخ والأطفال وألقيت في وحل أزقة المخيمين من جهة ثانية!!.

ما اهتز الطلبة ولا الشعب من رؤية الانسحاب-الهزيمة العسكرية. كان لسان حال الجميع طلبية وشعب يقول أينما سألته رأيه:
- الله يعطيهم العافية. عملوا ما عليهم وأكثر. ٨٤ يوم محاصرين يقاتلون سادس قوة عسكرية في العالم والعرب يتفرجون. من قاتل مثلهم؟
- أنظمة تزعم الوطنية وتكسد أسلحتها لتقول ساعة المعركة: نحن الذين نختار زمان ومكان المعركة ولا نسمح للإسرائيليين بفرضها علينا. يتناسون أن الجندي لا يختار دائما زمان ومكان معركته وإلا لما حدثت حروب أصلا.
- الإسرائيليون كذابون. وبالتأكيد خسروا الآف الجنود.
- أن ينسحب ١١ الف مقاتل لا يعني الشيء الكثير، في لبنان الطفل يحمل الآر-بي-جي، الثورة لا زالت هناك.
- الآن ستبدأ المقاومة السرية المسلحة. الجبهتان الشعبية والديموقراطية والحزب الشيوعي اللبناني ومنظمة العمل الشيوعي أعلنوا تشكيل "جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية" وبدأوا القتال سيحولون لبنان لفيتنام جديدة.

ما كان الشعب والطلبة منه يدرك النتائج السياسية الخطيرة التي ستترتب على ضرب البنية التحتية العسكرية لم.ب.ف، نتائج سرعان ما عبرت عن نفسها:

ريغن أعلن مشروعه غداة الانسحاب الفلسطيني مباشرة. أدار الشعب وقواه ظهره للمشروع إذ رأى فيه محققا خضادا سياسيا للنتائج العسكرية مع أن القيادة الرسمية في م.ت.ف حددت موقفها منه وفق منطق "العم" الوسطي المغازل.

الحزب أصدر بعد حوالي ٥ شهور على الانسحاب تعميما صادرا عن اجتماع اللجنة المركزية تناول من جملة ما تناوله الأرض المحتلة في إشارات سريعة لدورها المستقبلي المناطق بها بعد تدمير البنية التحتية لم.ت.ف بما يتوافق مع التوجهات في الوطن لبناء بنية تنظيمية موحدة وراسخة.

كان ينتظر ظهور منى على أحر من الجمر. أحس أن المحاضرة استغرقت دهرًا بأكمله. كيف ستتصرف؟ منذ أن جاءه التبليغ الحزبي بالتحوط على نفسه والسؤال يلح عليه: كيف ستتصرف؟ يفكر فيها فيبتدئ سنيهم الثلاثة معا. ففي عام ٧٩ التقاها.

١

في ذلك العام وقعت عيناه عليها وهو يحاضر حول زيارة كارتر للمنطقة. ما تمكن أن يشيخ ببصره عنها فأخذت كلماته تتدلق من فمه بتلعثم أربكه فوق ارتباكها! كانت تنظر إليه وهي مندسة بين صفوف المستمعين. نظراتها تنغرس فيه وعقلها لا يتابع ما يقول.

- ما اسمها؟
- منى. أجاب صديقه.
- هل لديها رقم تلفون في البيت؟
- لا أدري سأفحص سجلات عضوية النادي.
- في نفس اليوم اتصل بها ودعاها للقاءه.
- كيف يخطر ببالك أن تتصل وتخترع ما اخترعت من الأعيب لتحدثني؟ ألم تتوقع أن أقول لا.

سألته والخجل والارتباك يلفها من رأسها حتى أخمص قدميها! حاله ليس أفضل من حالها، إنما هو منطلق الطبيعة وندائها يزيح من أمامه كل ما يعيق جانبا. كانا يجلسان على حافة حوض نافورة الماء في حديقة النادي. بنطال الجينز وقميصها الأبيض أظهرها قوامها الممشوق بكامل هيئته.

- أردت أن أراك وأحادثك. منذ رأيتك أفكر فيك. أنت أيضا عيناك قالت لي الكثير، أليس كذلك؟

لفها الخجل وما ردت. انتقلا لحديث لا معنى له، من هنا قضية ومن هناك إشارة، كل يحاول أن يتكلم كيفما اتفق ليقتل صمت الخجل الذي ران على أجوائهما. كان

الاثنان يحبوان كل باتجاه الآخر. ما تعلمنا بعد أن يتقدمان بل يحبوان فحسب. وفي نهاية اللقاء اتفقا على لقاء آخر.

٢

ينهي الحصة الأخيرة يوم الثلاثاء في المدرسة الثانوية ويسرع للبيت. يستحم ويستعد سريعا، يطلق ذقنه وينطلق للجامعة للقائها عند الثانية. يوم الثلاثاء من كل أسبوع كان يومها لسنة كاملة. عادة ما يجدها تجلس عند باب المقصف مع الطلبة، تكون في انتظاره ولا تظهر ذلك!! تشارك في الحديث مع المحيطين لماما فيما نظراتها تجاه الممر المؤدي للمقصف. يصل ويقعد فتستمر بالتظاهر بان لا أحدا قدم لتوه. خجلها من عاطفتها، خوفها من الجديد الآتي، رهبتها من أنوثتها المتململة داخلها، كل ذلك استوطن فيها.

- منذ شهر ونحن نلتقي، الثلاثاء يومي المقدس، وأنت؟ أين أنت؟
- أنت تأتي وأنا هنا. قالت مرتبكة.
- هذا هو؟

٣

كلما التقاها تعلق بها أكثر. خجلها رآه رقة تأسره. خوفها نتاج عزلتها وتجربة الحياة ودوره يتكفلان به. رغبتها ستكسر عنق الزجاجة فالأنوثة لا تحتبس للأبد.

- جابت لك كتبا لتقرئين. سأشرح لك ما تجددين صعوبة في فهمه.
- الشباب هنا يشرحون لي كثيرا ومن أجلك أقرأ وأهتم بما يجري.

كانت الجامعة حينها تتشكل كبؤرة للعمل الوطني في الأرض المحتلة. كل شيء فيها يتم تسييسه، العمل النقابي، العلاقات الاجتماعية وحتى تجمع بضعة طلبة للدراسة معا!!! الطلبة يتكثرون حول التنظيمات التي بدأت منافسة شديدة على عقول وميول الطلبة في أجواء من الصراع الفكري الديمقراطي بين الجرامج والأراء. وما ساعد على تسريع ذلك التشكل أن سياسة الدعم الواسعة للطلبة غيرت من الخلفيات الاجتماعية للطلبة فتحوّلت من جامعة لأبناء الفئات البرجوازية إلى جامعة يتدفق عليها المئات سنويا من أبناء المخيمات والأرياف، أبناء الفئات الشعبية والاجتماعية الفقيرة. استثمرت التنظيمات السياسية لحركة المقاومة ذلك المتغير سريعا فأوفدت العشرات من المحررين من السجون لتبدأ الخلايا التنظيمية السرية بالانتشار وسط الطلبة كانتشار النار في الهشيم، فبدأت بالظهور الكتل النقابية كواجهات للتنظيمات لتتحول لاحقا إلى منظمات ديموقراطية للطلبة. لم تكن جامعة بير زيت بؤرة للنضال والتنظيم السياسي فحسب، بل نموذج لمجتمع منفتح، عصري، لا يعرف الانغلاق بل يفتح على الجديد ويتقبل الرأي فيه الرأي الآخر،

مجتمع ينشط فيه الصراع بين كافة التلاوين-القومية-البرجوازية واليسارية والدينية والشيوعية حتى التروتسكية كان هناك من يرفع رايتها وان لم يتطرق حولها أحد، والعينيون المأخوذون بالحياة على الطريقة الأوروبية الفوضوية التقوا حول بعضهم كحلاقة لا تثير سوى التكدر.

في موسم الانتخابات السنوية في أجواء التطورات السياسية العاصفة، عند توزيع كتاب ممنوع، قراءة تصريح لفائد، سرعان ما يبدأ الصراع والجدل. إن الجامعة وان كان يظهر في ممارسات حركتها الطلابية الكثير من النزق إلا أن هذه السمة الملازمة للطلبة ما هتكت الطابع العام للمؤسسة كمعقل للنضال الوطني وكساحة للصراع والجدال الفكري-الديموقراطي. كل ذلك شكل التربة لبداية تشكل شريحة من الطلبة السياسيين والمناضلين يعول عليهم أن يلعبوا دورا على مستوى وطني عام في قادم السنين في مجمل التركيبة الحزبية والسياسية لشعب الوطن.

من عاش أجواء الجامعة في بداية الثمانينات ووهبها نفسه فقد كان محظوظا، إذ كان عاش المتمردون بين جدرانها، تمرد على الاحتلال، على العرف السائد فيخلط في حياته الانتماء التنظيمي السري مع الحب مع أغاني الشيخ إمام ومارسيل خليفة مع كتب لينين ونوال السعداوي وهشام شرابي وجيفارا، مع كل السلوك الطلابي المتناقض مع ما هو تقليدي ولو لمجرد أن يناقض فحسب.

كان يسعى رويدا رويدا لجدب منى لتلك الأجواء بديلا لمدرستها وتربية راهباتها اللواتي نذرن أنفسهن لكسب الآخرة لا الدنيا، وبديلا لعائلتها التي كأغلب عائلات فلسطين لا توفر سوى ظروف سحق الشخصية وتهميشها! وهي كانت تنترحزح ببطء شديد وبخوف يكبلها.

٤

جلسا على أحد المقاعد الحجرية تحت شجرة سرو في ساحة عمارة التدريس. كأنها قد خصصت للمحيين، هكذا تم الاتفاق عليها إذ نادرا ما تجد من يتناول على هذا التصنيف فيتعدى على حقوق الملكية على المقاعد! كان يسمى المقاعد تلك "مقاعد التمرد على العرف".

- أنت غير كل مرة. قال وهو يتأمل عينيها الناعستين.
- كيف يعني؟ ابتمت مندهشة.
- متألقة وكل ما فيك يضحك.
- سعيدة. اشتقت لك. كنت انتظر يوم الثلاثاء.

- لو تمكنت لجئت كل يوم. أنت تعلمين المدرسة حتى الظهر، وبعدها لي مشاغلي.
- أنت حزبي أليس كذلك؟
- قالتها بسرعة دون أية مقدمات وكأنها تتحدث فيما هو بديهي وعادي لا بما هو سري، انكشافه يقود إلى سنوات سجن!
- ما أدراك؟ لم أعلن أمامك عن انتماء. أنت تعرفين قناعات فحسب.
- أبا افهم ما يجري حولي. لست بحاجة لأن تكشف لي!.
- حدثها عن الحزب كثيرا دون أن يصرح انه عضو فيه. كانت تؤيد الحزب وتدعمه في أنشطته ومواقفه. عضوات الحزب يهتمن بها، يجالسنها ويناقشنها كما طلب كنعان منهن.
- عندما أفكر فيك أخاف من المستقبل. أهلي لن يوافقوا على ارتباطي بواحد مثلك. أنت معروف لهم. منذ زرت أخي مرة تغير حاله، أخذ يسمع الشيخ إمام ويشترى الكتب وأبي يقول "كنعان مثل الجرثومة، دخل لينين لبيتي".
- أخذت تضحك وهي تقلد صوت أبيها ثم أردفت:
- منذ متى وأنت تسمع الشيخ إمام.
- منذ أن أصبحت من جماعة "يا عمال العالم اتحدوا" سنة ٧٥. على أية حال من المبكر أن تفكري بالأهل. أمامنا سنين دراسة وبعدها نرى. لا تقدرى البلاء قبل حدوثه، أنا معك فلا تخافي شيئا.
- تطلعت إليه بلهفة وقالت مغيرة مجرى الحديث:
- كثيرون من الطلبة الجدد يؤيدونكم. أحاول أن استميل بعضهم.
- يؤيدونكم؟ حسبك واحدة منا؟ لماذا تستميلينهم إن لم تكوني منا؟
- رد باستهجان وأسف وسكنت وهي خجلة.

٥

- تعرفين إنني احبك وقلتها أكثر من مرة. سنه ونحن نلتقي ونتجالس وما بيننا أراه كثيرا ولكنك ما صرحت مرة بمشاعرك.
- أخاف، لا تتضايق مني. لا تتوتر. أرجوك ها نحن معا في الجامعة، دائما مع بعضنا فماذا بعد؟
- ماذا بعد؟ لم يضبط انفعاله كليا. وتابع: من حقي أن اعرف مشاعرك، موقفك هل نحن مرتبطان بما هو خاص بيننا أم ماذا؟
- مرتبطان. نطقت بها أخيرا.
- على أي أساس؟ كان كأنه يستجديها، ينتزع اعترافا بحبها له.
- على الأساس الذي تريد.

قالت بصوت خفيض متلعثم، اعترفت فعلا وما فعلت لفظا. ابتسم وتحركت يده لتلتقط يدها من تحت الطاولة في المطعم. سرت في أوصالهما قشعريرة الرغبة الدفينه.

٦

- هاك الجريمة السرية، حالما تنهى منها ألتفيتها بالحرق. لا تدعي أحدا يراها. دستها في حقيبة كتبها وسارا ناحية مقعدهما تحت شجرة السرو.
- ما رأيك هل تتجحون في الحوارات لتشكل كتلة وطنية موحدة؟ تطلع إليها بغضب لم تفهم سببه.
- سأتجاوز لفظة "تجحون" بدلا من "ننجح" وكأنك من عالم آخر غير عالمنا. سننجح بالنهاية. لا مجال إلا أن ننجح إذ من العار أن لا تسيطر م.ت.ف على المجلس الطلابي. فوز الكتلة الإسلامية يعني شل المجلس ومنعه من مصادمة الاحتلال حيث الاتجاه السياسي الإسلامي لم يخرط في النضال بعد. المناطق كالعادة بيننا وبين فتح. الشيوعيون نفوذهم تراجع فيما الديموقراطية قليلة العدد. حتى لو أحيل الموضوع إلى جورج حبش وياسر عرفات، فلا يمكن أن نسمح لغير م.ت.ف بأن تصل إلى المجلس.
- من أين "نبزت" لنا الكتلة الإسلامية؟ سألت باستنكار
- لهم وجود شعبي كثير من بين التيارات الموجودة ولكنه يدعم كثيرا من أموال السعودية ورابطة العالم الإسلامي. الأموال تأتيهم عبر الأردن وبمعرفة الحكومة الأردنية، وتسير حتى تصل للمجمع الإسلامي في غزة وبمعرفة الإسرائيليين. هذا ثمن وقوفهم ضد المقاومة و م.ت.ف واليسار. هل قرأت كتابهم الذي وزعه أخيرا "الوطنية ومفهومها"؟
- لا. لقد حرق الشباب النسخ في الساحة ولم يعودوا لتوزيعه.
- من الطبيعي أن لا يعودوا لتوزيعه فهو يشكل فضيحة لهم وكان من الغباء أن يوزعه. يعتبرون الوطنية "غريزة حيوانية" جلبناها من الغرب الصليبي، أما فلسطين فهي كما يقول الكتاب نقطة لا ترى على الخريطة، يهبها الله لمن يشاء! طبعاً هناك اثر ثورة إيران وقصورتنا نحن وسياسات أبو عمار، كل ذلك شكل تربة خصبة لوجودهم، طالما لا يناضلون ضد الاحتلال فسيظلون معزولين وموضع اتهام. ويصبحون خطرا إن تفتتت الوحدة وهذا نأخذه بعين الاعتبار فالجامعة صرح تعليمي وديمقراطي وعصري لا يحتمل أن يتسلم مجلسها من يتبنى أطروحات من نمط "الإدارة الصليبية، فصل الطلاب عن الطالبات في المقصف وقاعات محاضرات والمختبرات، إلغاء برامج الدراسات الثقافية..." إلى باقي المعزوفة التي لا تنتمي للعصر.

٧

- سنجد طريقة. سندقق في قانون الجامعة ونراجع التسجيل ونجد طريقة قال يهدى من روعها إذ تسلمت إشعارا ينذرنا بالفصل من الجامعة. بكت وهي تلقي برأسها على صدره وهما جالسان في بيته. كانت اهتماماتها السياسية ونشاطها النقابي المحدودين على أية حال قد الحقا الضرر بدراستها شأن العديدين الذين لا ينجحون بحمل أكثر من بطيخة في يد. من تخصص دراسي تدرجت إلى آخر وهما هي الآن مهددة بالفصل وقد تدرج إلى تخصص ثالث. لم تتحمل ذلك وهي الحاصلة على ٨٦% في امتحان شهادة الدراسة الثانوية.
- نشاطي في الجامعة أضر بدراستي.
- كثيرون غيرك ينشطون أكثر منك ويتحملون مسؤوليات عديدة ويحصلون على معدلات امتياز أيضا.
- أنا انقلبت أموري رأسا على عقب. قالت تندب حظها.
- سنجد حلا. إهداي. غدا اطلبي قانون الجامعة وابحثي فيه جيدا، المهم رتبي أمورك كي نذهب لاحتفالنا بعيد العمال في المدرسة العمرية في القدس.
- أخشى أن نتأخر.
- لاقى طريقة لإقناع اهلك. قولي لهم سندرسين في المكتبة.
- ذهبت للاحتفال وتأخرت. وبعد أسبوع تدرجت لتخصص ثالث وأنقذت دراستها.

٨

ما وجدت السياسة طريقها لتمتلك عليها تفكيرها أما النضال فبقي قشرة خارجية لإضفاء جمالية ما، أشبه بأحمر الشفاه! بقيت ترتبط بالسياسة والنضال لارتباطها بكنعان وبحكم الموضة الدارجة آنذاك. إذ يجب أن تصنف تصنيفا ما، إما هؤلاء وإما أولئك، لا منطقة وسطى عائمة. هي صديقة كنعان وهو معروف لها ولمعارفها مع من، إذن هي من جماعته. كانت ملتزمة من الناحية الموضوعية بالتبعية النسائية للرجال كنهج اجتماعي سائد، فالنساء على دين رجالهن بغض النظر عن دين الأخيرين! أما المرأة التي تحرق هذه القاعدة فهي حالة استثنائية لا أكثر. لم تكن منى لتستطيع أن تكون الاستثناء بما يتطلبه من تحدٍ وقوة واستقلالية شخصية متميزة عصرية. ثلاثة أنواع من الانتماءات طبعت سلوك الطلبة، أولهما انتماء نشط وفاعل صادر عن فئاعة عقائدية راسخة، وهذا انتماء يستمر مع صاحبه نشاطا ما بعد الحياة الجامعية، في الحياة الاجتماعية الأوسع. ثانيهما انتماء على سبيل الموضة الدارجة، تشكل الحياة الجامعية الصاخبة والتي تعج بالجديد التربة الخصبة لهذا الانتماء الذي جرى تسميته من قبل طلبة الانتماء الأول بانتماء "الثورة حتى التخرج". ثالثهما كان الانتماء بالتبعية لحبيب، صديق، قريب إما أن يستمر

بعد انتهاء الحياة الجامعية إن استمرت علاقة التبعية أو يتجذر فيتحول لانتماء عقائدي مع التجزية أو يؤول مآله إلى رفع شعار "الثورة حتى التخرج".

٩

- كيف أصبت بالجنون وأحببتك؟ ماذا دهاني لأذهب لمحاضرتك مثل هذا اليوم قبل ثلاثة سنين؟

قالت تسأل نفسها بصوت مسموع ورأسها ينام مستلما على كتفه. يد تطوق رقبتها والأخرى تمرر أصابعها بانسياب لذيذ فوق وجهها كأنها تكتشفه للمرة الأولى. كان يسترخي كعازف بيانو يعزف لحنا رقيقا، هادئا ويرى نفسه محلقا في الفضاء اللانهائي. كانا في ذلك اليوم كان لا أحد غيرهما في العالم، يجمعهما حب وضحك وقبلات ونبیذ وونام طفولي بعد مشاحنات. يهرب إليها من السياسة والحزب والبيوت السرية وقصاصات الأوراق والجدالات، من الدراسة والكتب والامتحانات التي لا تنتهي، وتهرب إليه من رقابة متسلطة تسحقها ومن كلمات مدرساتها المترهبات المحفورة في رأسها، كلمات تفرع جرس الخطيئة الصديء كلما رنت لأنوثتها تطلبها، فيجدان الملاذ في دفء عناق محموم ولذة سرية يختطفانها لساعات كل اسبوع. يدبر هو ظهره لعالمه المليء بالتفاصيل اليومية المرهقة، وتحطم هي جرس الخطيئة، ساعات من كل أسبوع يعيشانها كان لا أحد غيرهما على الأرض، ينتزع الواحد الطفل في الآخر فلا يظل سوى الطبيعة، منها كان البدء والنها تكون العودة ولو لساعات بانسات.

- الحب في حياتنا جنون. كلانا أصيب به. في حياتنا النضال جنون وأن نحيا كبشر يعني أن نجن ولا الأذ من التمرد المجنون!. وقبلها بحرارة.

ينتظرها عند نافذة بيته لنتهي محاضراتها وتأتيه. لم يكن زأها منذ أسبوع، منذ دهموا بيته. أسبوع كان خلاله يتقافز من مكان لآخر تملصا من عيونهم ومداهماتهم حتى يدبر الحزب ترتيباته لإيوائه. كان الاشتياق لها يلح عليه كل ثانية في الأسبوع ذاك. كان يطلبها، يشتهيها، بعقله، بوجدانه بكل أحاسيسه يوميا. يسأل عنها ليطمئن، فهي مرتبطة به رسميا منذ شهور وهذا تعرفه المدينة والطلبة من معارفهما. جاءته لاهثة مسرعة كان وجهها ينضح باشتياقها ورغبتها. كانت مسرعة كأنها تخشى أن تفقده وتخسر لقائها معه للابد. تعانقا طويلا عناقا حارا. عصر خصرها الخميص بقوة بين يديه، قبلها بلهفة ومثله كانت ملهوفة. بادرت به بعتاب رقيق:

- اشتقت لك كثيرا يا لنيم. لماذا تفعل ذلك بي؟ كعادتك لا تهتم بحبيبتك. داعب شعرها، أجلسها بقربه وحضنها. ألقت برأسها على كتفه مطمئنة.

- لم أستطع أن أراك لمصلحتك ومصالحتي، لا تنسى أنني مطلوب وكل خطوة محسوبة.
- كيف عشت الأسبوع الماضي؟
- قالت برقة مظهرة تعاطفها ويدها تضغط على صدره.
- منتقلا هنا وهناك، من بيت لآخر. أتملص من الرقابة والمداهمات.
- إلى متى سيستمر هذا؟ سألت بجدية.
- حتى أن تتم ترتيبات معينه.
- ماذا تعني بترتيبات معينه؟ متى سأراك ثانية؟ انطلقت أسئلتها والحيرة تلفها.
- ترتيبات معينة اعني بها بيت سري ثابت وأمين، لا يعرفه أحد إلا القلائل ويصعب عليهم أن يصلوه. أما لقائنا ثانية فمرهون بموقفك من وضعي الجديد؟
- أزاحت رأسها عن كتفه واعتدلت في جلستها:
- لا أفهم شيئا، بيت سري ثابت حتى لا يصلوه، موقفي، وضعك الجديد، ما كل هذه الألغاز؟

كان يدرك أن ليس من السهولة أن يشرح لها. فهي لن تستوعب ما سيقال لها على أية حال. يخمن خاتمة الحوار، يتوقع خاتمة حبه، علاقتهما. حاول أن يفهمها بهدوء لكن دون أن يصدماها. حاول أن يفهمها أن عليها أن تتقبل تغيير مجرى حياته، علاقتها به مائة وثمانون درجة، لأن حياته دارت أيضا مئة وثمانون درجة! لكن أنى له ذلك؟ حاول أن يقول ما يجب أن يقال. مال إليها، قبل جبينها برقة:

- منى إفهميني جيدا. تغيير جذري سيطل حياتي وبالتالي حياتنا معا، علاقتنا. أنا لن أسلم نفسي، سأعيش حياة سرية لا يعرف عنها أحد. لا أريد أن يحجزوا طاقتي، لا فائدة من ذهابي للمعتقل، دوري تحدد وفق هذه الترتيبية. أراك في حياتي الجديدة أكثر من صديقه وأكثر من حبيبه. كل شيء أراك. سند لي مثلما أنا سند لك.

كانت وهي تسمع كلماته مشدوهة تغر فاهها، مصعوقة لا تصدق ما تسمع، كما ظهر من ملامح وجهها. ألمه أن يرى وجهها الجميل هكذا. كان يتمزق، ولكنه كان يدرك أن ما يفعله صحيح. كانت صيحة العقل حاضرة "لا يصح إلا الصحيح"، رغم كارثية نتائجها.

- لا أفهم. لماذا أنت بالذات؟ الكل يسلم نفسه. هل الاعتراف عليك كبير لهذا الحد؟ لا أفهم. أين أنا من ترتيباتك؟ لماذا تهملني؟

لست وحدك التي لن تفهم ما يجري. كل من عرفني لن يفهم. كل رفاقي لن يفهموا
أنا أعذرك يا حبيبتي فما سأخوض جديد، أنا نفسي لا أفهم كيف سيكون في
تفاصيله، أعذرك فما أخوضه غير مفهوم بل ومجنون.

- المسألة لا شأن لها بحجم الاعتراف علي كبير أم صغير. إنها مسألة اختيار حياة
التفرغ للنضال بعيدا عن عيونهم وسجونهم. نهج جديد وتجربة جديدة. أما لماذا
أنا بالذات فتلك كانت تطورات الهجمة، وصلنتي من حيث لم أتوقع. أنا لم احدد
خط سير الإعتقالات والاعترافات ودائما هناك للمرة الأولى. احسبيني أنا المرة
الأولى.

- وأنا؟ صرخت بحرقه فيما بدأت دموعها تنسكب من عينيها:
- ومشاريعنا؟ تكلمة تحصيلنا العلمي، الزواج، الأطفال الذي تريد أن تلاعبهم
عراة. نسيت كل هذا؟ نسيت أننا مخطوبين، هل سأرتبط بمجهول؟ مسح
دموعها بإبهامه. أخذ رأسها بين راحتي يديه وقرب وجهها منه:
- أنت في القلب والعقل. منى التي تلعثت عندما رأيتها للمرة الأولى. أتذكرين؟
تعلقت بك منذ وقعت عيناك عليك. سنبقى معا. أنت لي وأنا لك. بالنسبة لك أنا
موجود مجهول للاحتلال وللناس لكن لك موجود. نلتقي ونحب ونحيا. مشاريعنا
سنتأجل ولسنا أول اثنين تعاندهما الحياة. حينما سيغدو فريدا في نوعه، ليس
تقليديا بل متميزا، ألا تتطلعين إلى حب فريد وعلاقة مميزة في تجربة فريدة
وجديدة من نوعها؟

- أنا لا أستطيع، أهلي والناس. تابعت وهي باكية.
- لا تبكين رجاء. وقال مازحا: كالعادة تسعين للتأثير على موقفي بدموعك
تعرفين أنني لا أتحمّل أن أراك تبكين. حاول بمزاحه أن يخفف من احتقانها
ومن الأجواء التي خلفها الحديث.
- لا أستطيع. ماذا سأقول لأهلي. من غير ذلك هم يكرهونك. سياسي وركعوا
أخيرا أما أن لا تظهر فماذا سأقول لهم؟ سيأكلون لحمي بضغوطهم؟
- دعك من الأهل ولو لمرة واحدة، قرري مرة واحدة دون أن تضعي سيف الأهل
على رقبتك. أنا موجود وكذلك الحزب والرفاق، نسندك أمام ضغط الأهل. فماذا
تريدين أكثر، اهلك قولي لهم كلمة واحدة: خطيبي وأحبيه عندما يظهر
سنترج.

- أنت تبسط الأمور أكثر من اللازم. تعودت ذلك معي. تبهت المشاكل. تبسط ما
هو معقد فتلك عادتك.
- وكعادتي أقول: الأمور بسيطة ولكنها تحتاج إلى إرادتك لقرارك. تسليحي
بالإرادة فهي تبسط كثيرا ما يبدو معقدا، تجعل ما يبدو مستحيلا ممكنا.
- لا أستطيع، لا أستطيع.
- بل تستطيعين. قالها بلهجة محمومة وقبل جبينها ومسح دموعها.

- إلى متى سيتظل تعيش هكذا بسرية، مفقود؟ حتى تحرير فلسطين؟
- سألت بسخرية ظاهرة ولم يعر ذلك اهتماما، كان يتفهم صعوبة موقفها.
- لا اعرف. وعلى العموم هذا سؤال مبكر جدا.
- قل سنة، سنتين، مائة ولكن لا تقل لا اعرف هل سأعيش هكذا لا اعرف شيئا عن مستقبلي معك، خفف عني بعض الشيء، على الأقل تحدث عن مدة.
- أنا لا املك تحديد مدة، صدقيني لو تمكنت لفعلت ولكني لا أستطيع، لن اضحك عليك إذ أقول سنة أو سنتين ثم أدير ظهري للرقم، احتياجات الحزب، قدراتي، إمكانات الحزب، وضعنا عموما هو الذي سيحدد. لا املك المتغيرات والمجاهيل بين يدي.
- وأنا، مستقبلي؟
- مستقبلك معي. نحن مرتبطان وهذا هو مستقبلنا. أما أن يتحول لزواج بعد سنة، سنتين، عشرة فذاك ثانوي. المهم إننا مرتبطان. أليس هذا مستقبلنا؟
- ليس هذا ما اتفقنا عليه، كنا سنزوج بعد سنتين. لقد تخليت عني.
- دعينا من هذا الحديث لأنه سيطول. يتخلى عن الآخر من يتركه لحظة احتياجه له. ليس من معنى للحب أن لا يسند الواحد الآخر في صعوباته. أنت تحبين في زمن السلم وتهربين في زمن الاشتباك. دعك من الحديث عن التخلي. فاقدت عرفتتي جيدا وعرفت ما هو النضال بالنسبة لي. أنا لست بهاو.
- لم اعرف أن الأمور ستصل لهذا الحد. أنت مجنون، مصيبتني أنني أحببتك.
- وهل ذنبي أنك حددت سقفا لنضالي؟ أنا شخصا إن شعرت أن سقفا سينبني فوق رأسي سأهدمه حالا. إنني أسعى لان لا يكون مديات لانحيازتي. أن لا يكون سقف لنضالي.
- لا أستطيع... لا أستطيع. احبك لكنني لا أستطيع. يجب أن تقرر إما أنا وأما الحزب.
- ضبط انفعاله كي لا يصبح بوجهها وقال بهدوء وجد صعوبة في تمثله:
- تواضعي قليلا ولا تتحامي. من أنت بالنهاية حتى تضعي نفسك في كفه والحزب في كفه. الحزب الاف المناضلين، الاف المعتقلين، الاف الشهداء. الحزب رسالة تاريخية ودماء تسيل، فهل تضعين نفسك مقابل كل ذلك؟ إن كان لا بد من انتهاء علاقتنا فلنتتهي بهدوء دون أن نسيء لبعضنا. لك خيارك أفهم أسبابه ولا أتفهمها. لي خيارتي أرجو أن نتفهميه لا أن نقهه فحسب.
- أنا لا اصلح لك. ليزوجك الحزب من فدائية تستطيع تحمل حياتك واختيارك.
- قالت جملتها الأخيرة ساخرة تخفي خلفها نقمتها على خياره. عانقها عند الباب مودعا وقبلها بسرعة:

- لا أقول وداعا بل لنقل إلى اللقاء. هزت رأسها موافقة، احتفظي بخاتم الخطوبة للذكرى (نزعه من أصبعه وأعطها إياه)، دققي في قرارك في الحياة. أخشى أن تدفعي غالبا لخيارات غير محسوبة جيدا.

قال لها كلماته الأخيرة مستشعرا أنها ستدخل نفسها في شرنقة من الحياة التقليدية التي لا تليق بها كمتعلمة، مشفقا عليها من خيارها البائس، خيار الاستقرار الزوجي الحياتي الشرعي ولو على حساب حبها ومن أحبها. دمعت عيناها من جديد عندما أوصلها للباب، كادت دمعة تسيل من عينيه، لم يحتمل ذلك، سارع لفتح الباب، خرجت منه ومن حياته.

جلس على الأريكة ولا يدري ماذا يفعل. الليلة سيرحل لبيت سري. عاد وفتح رسالة الحزب: "إجراءات، تحوطات، متطلبات وقواعد" سمع بها وعنها، تحدث الحزب معه مرارا عنها. كانت في الرسالة كلمات مكثفة، مجردة، صماء، تقريرية وجافة. لم يدرك كنعان حينها معناها الحقيقي، تجسيدها اليومي كما سيظهر في حياته وعلى جلده. عليه أن ينتظر شهورا طويلة. سيعاني شهورا حتى تكشف تلك الكلمات عن نفسها تماما، حتى تكتسي لحما فتصبح واقعية وملموسة، واقعية وملموسة أيامه وساعاته، حينها وحينها فقط سيعلق "الحكي مش مثل الشوف".

عندما قرأ في الرسالة ذلك الأمر الصريح بخشونته "لا تستقبل أحدا ولا تزر أحدا" أخذته حلاوة المغامرة، فرادتها، وتميزها، رأى نفسه يتحدى جهازا بأكمله، قوي ومحرك وقادر. سيبحثون ويبحثون ولن يجدوه، فإجراءاتاته السرية محكمة لن يعرف أحد عنه شيئا سوى أحاد موثوقين وهذا سيدوخهم. وبالنهاية سيكفون، يستسلمون، فأبي متعة أكثر من هزيمة الجهاز الذي طالما تبجح بنجاحه بتفكيك الخلايا السرية في الوطن! كان كنعان مأخوذا بحلاوة المغامرة، فرادتها، تميزها!!

تسلم مفتاح بيته السري وبدأ رحلته مساء في أحد الشوارع المنزوية بعيدا عن الضوضاء جرى لقاءه السري مع رفيق له بعد أن تعارفا بكلمة متفق عليها حسب الترتيب الذي أوردته الرسالة الأخيرة. لم يستمر اللقاء طويلا، كالعادة في هكذا لقاءات الإيجاز والتكثيف هما لغة الحديث. كلمة والرد غطاءها.

- هاك العنوان، كل شيء مجهز في البيت، ملابس وغذاء وراديو صغير. صاحبة البيت أم عيسى تدس انفها بكل شيء، هي نموذج العجوز الشمطاء. يجب أن لا تراك، لا تصدر صوتا يكشف وجودك في البيت، لا تفتح لها إن طرقت الباب. أهملها. نحن نتكفل بأمرها إن أثارت أسئلة. سنحضر لك تلفاز صغير بعد أيام.

سيفيدك، اقرأ واكتب، لا تفعل شيئا غير أن تقرأ وتكتب. اعتن بصحتك وتغذى جيدا. مهامك وعملك ننظر بهما لاحقا، المهم الآن أن ينسى اسمك.

لن ينسى الاسم بسهولة، فمنذ أسبوع يبحثون عنه. دهموا بيت عائلته يوميا، هددوا وتوعدوا: (إن لم يسلم لنا نفسه غدا، سنجدنه نحن ونقتله. إن حاول أن يعبر الحدود سنعتقله أو نقتله ونريحك منه. صورته معنا وحدودنا لا ينجح أحد بالتسلل عبرها. أفنعيه أن يسلم نفسه كي لا تفديه) كانوا يضيفون بمداهماتهم توترا جديدا لأمه فوق توترها. كانت لا ترد سوى بجمل تتكرر عند كل مداهمة (لا اعرف مكانه حتى أفنعه بشيء. هو اعلم بما يفعل عندما تجدونه اخبروني). كانت كعادتها معهم متماسكة ورابطة الجأش. وضعوا حواجز التفتيش على مداخل الجامعة ودققوا ببطاقات الهويات الشخصية للطلبة مؤملين أن يلتقطوه، دهموا بيوتا للطلبة فكان أذكى منهم، عرف أين سيبحثون فلم يتردد على الأماكن التي توقع مداهمتها أو قد تكون عرضة لرقابة عيونهم. استخدموا الخديعة لمعرفة مكانه واعتقاله. بعد أيام على مداهمة بيته وبينما كانت أمه التكلى بابيه والمنكوبه به جالسة عند العصر، إذ بالباب تدق. فتحت واذ بامرأة تبدو وقد جاوزت الخمسين، ترتدي ثوبا شعبيا اسودا، محنية الظهر. قالت وهي تخفض رأسها دون أن تنظر لها:

- هل هذا بيت أم كنعان؟
- هو. من أنت وماذا تريدن؟ سألت أمه بارتياب.
- الحقي ابنك يا أختي، معه نزييف في معدته، الله يعلم هل تلحقي أن تريه أم سيموت قبل أن تصليه، الحقيه الحقيه.

رمت كلماتها طلقات سريعة في وجه أمه، وبتوتير مقصود وبتكلف وأدارت ظهرها سريعا هابطة درج البيت، أخذت أطراف أمي المسكينة ترتجف من هول ما سمعت وقد نزل على رأسها كالصاعقة وهي لا تدري ماذا تفعل. خرجت من البيت سريعا دون جهة محددة. كانت عيونهم وسياراتهم تلاحقها: دورية عسكرية وسيارة لضابط في المخابرات، مفترضين أنها ستذهب لتطمئن عليه على أساس افتراض آخر أنها تعرف وكره. كانت أمه تسير على غير هدى من أمرها وهم يلاحقونها. قر قرارها أن تذهب لعائلة صديقه لعائلتهم تبث عندهم همها. بادرها أحد أفراد العائلة بعدما سمع ما روت متعاطفا ومقررا:

- لا اعرف كيف يتصرف جماعته في عملهم، لكنني اعرف شيئا واحدا انهم لن يترددوا أن يخبروك إن جرى له شيئا لا قدر الله. اغلب الظن أن قصه المرأة مرتبة من المخابرات للضغط على أعصابكم كعائله، اطمئني. أنا لا تدخل قصة كهذه في رأسي.

كان أمه كانت بحاجة لبعض الكلمات الهادئة غير المتوترة والمشجعة لتعش ذاكرتها وتضبط تفكيرها. بدأت تتسرب من ثنايا ذاكرتها صورة ضابط المخابرات الذي جاء ليقتل كنعان منذ أيام.

- انه نفسه. نفسه. صاحبت مكتشفة شيئا ما وتابعت: انه هو المرأة التي جاءت اليوم هي نفسها ضابط المخابرات الذي جاء أول مرة. إنه هو. كان يحني رأسه كي لا أراه ولكنني رأيت عينيه للحظة. هي عيناه، هيئته، انه هو، الله يجازيهم، كدت أسقط من الخوف عليه. كان روني قد تنكر بزي امرأة.

بعد اللقاء السريع مع رفيقه، سار مهرولا يتجلبب الليل في شارع طويل تصطف الأشجار على جانبيه، قاصدا بيته السري. كان يدقق النظر بالمارة القلائل، يتصورهم كلهم مكلفين بملاحقته وتتبع خطواته. كان أولئك المارة يتلفعون بملابسهم الشتوية الثقيلة اتقاء لبرد كانون وأمطاره. بعضهم غطت رأسه وبعضا من وجهه فازدادت هواجسه وشكوكه من انهم يتبعوه. لم يقصد البيت مباشرة، بل تعمد الإكثار من السير في طرق فرعية خالية ليتأكد إن كان ملاحقا أم لا. كان يدخل شارع فرعي ليخرج منه لآخر، يدقق بالمارة ويسير مغطيا رأسه بكوفية حمراء رقطاء تعود ارتداها شتاء اتقاء للبرد وأيضا للعيون. السجارة المشتعلة تبعث الدفء في أصابع يده اليمنى وفي حلقه.

كان وهو يقصد بيته السري الأول لا يزال مأخوذا بحلاوة المغامرة، فرادتها وتميزها. كان الزمن زمن الذين يعتبرون تسليم الذات للمحتل أمرا مفروغا منه، عاديا جدا. لم يكن أحدا لينتقد هذا السلوك أو يعيبه على صاحبه، أما من لم يسلم نفسه فالحدود مقصده أما هربا من المواجهة أو تغييرا لساحة نضال، قلائل قلائل أولئك الذين اختاروا البقاء بين الشعب دون أن يعرف الشعب عنهم شيئا. جنودا مجهولين كانوا في مواقع متقدمة دون أن يعرف الاحتلال عنهم شيئا. كان مأخوذا بالخيار الثالث: أن يزرع هنا.

عندما وافق على دعوة الحزب له للحياة السرية لم تكن فقط حلاوة المغامرة، فرادتها وتميزها هي ما حفزت موافقته، لقد حفزتها أيضا قناعة راسخة بأنه في النهاية لا يصح إلا الصحيح. الحزب بحاجة لمناضلين فالصحيح عدم تسليم الذات. لذلك لم يحسبها كثيرا، لم يقلبها كثيرا في عقله. فكثرة الحسابات تجعل العزائم تخور وتتكلل المبادرة. الحياة الإنسانية حقا، حافظها، بديل للإستكانة، البلادة والتطبع. الثوري لا يتطبع أو يخضع بل يتمرد. أي ثوري هذا الذي يخشى المغامرة؟ بل متى كان العمل الثوري ثوريا حقا دون مغامرة ودون جنون. "لا يصح إلا الصحيح" كانت صيحة عقل في لحظة تتوجب الحسم. صيحة تلغي كل الحسابات.

عبثاً كان يمكنه أن يتصور وهو يهرول نحو بيته السري حياته الجديدة، نمط الحياة التي سينتقل إليها. الجسر بالنهاية نعرفه جيداً عندما نعبره لا قبل ذلك. التجربة نمتلكها عندما نعيشها كما المرأة تماماً نحياها عندما ننتشي بها ومعها. لم تتطرح تفاصيل حياته في فكره، جهلاً أو نقص تجربة فسيان ذلك، فالجهل بالنهاية نقصان تجربة.

(اعرف لقدمك قبل الخطو موضعها) كان قد اعجب كثيراً بنصيحة شيخ الروائيين العرب نجيب محفوظ، ولكنه الآن يدرك أن معرفة القدم لموضعها تكون حينما تحلّل القدم موضعها لا قبلها، بعد أن تخطو لا قبل ذلك.

وصل البيت حسب العنوان الذي أعطي له. طبقة أرضية في بيت قديم مكون من طبقتين، في الطبقة العليا تسكن صاحبة أم عيسى، تحيط بالبيت أشجار الفاكهة التي تكثر زراعتها حول البيوت البعيدة عن مركز المدينة. نأي البيت وموقعه وسط الأشجار أضفى عليه تلك المسحة التي تليق ببيت سري، بوكر حقيقي. أما المطر الكانوني الذي كان ما يزال منهمراً لحظة وصوله في ليلة افتقدت قمرها، فقد أضفى على البيت رهبة ما، وحشة ما. ليل دامس، مطر غزير، بيت تحيط به الأشجار في مكان بعيد عن الضوضاء والأنوار، كل ذلك جعل كنعان يشعر كأنه سيدلف بيتاً في أسطورة خرافية تمتلئ بالجن والأشباح والسحرة! هكذا تصور بيته وهو يخطو على الممر المبلط والمؤدي لبابه وشعور بالوحدة بدأ يلفه. أدار المفتاح في القفل ودخل ثم أقفل الباب خلفه.

أتدري ما ستواجهه خلف هذا الباب الذي أقفلته للتو؟ أرخ يا كنعان لهذه الليلة الكانونية الماطرة، فمنها يبدأ تاريخك. في الحادي والعشرين من كانون الأول سنة ١٩٨٢ فتح باب واغلق ثم أقفل. عندما يفتح ثانية يكون تطوراً في غاية الخطورة قد جرى في حياتك. بين فتح وإقفال حياة ليست كالحياة، عالم ليس كالعالم. منذ الآن أرخ: قبل الحادي والعشرين من كانون الأول جرى كذا، وبعد الحادي والعشرين من كانون الأول جرى كيت. تاريخك سيغدو مثل ميلاد المسيح لدى البشرية تؤرخ به. للبشرية تاريخها ولك تاريخك.

أضاء النور ليتعرف على بيته. غرفتان صغيرتان للنوم ومطبخ وحمام. إحدى الغرفتين فيها طاولة للطعام وأرائك قديمة عفا عليها الزمن فبيعت على ما يبدو بثمن بخس بعدما عافها بانعها. الغرفة الثانية فيها سريران قديمان خشبيان واسعان الواحد منهما يتسع لزوجين دون أن يتدمر الواحد من الآخر!! خزانة قديمة بالكاد تتمكن من الانتصاب على قوائمها الأربعة قرر إنها خزانة الملابس!! عدد من الكراسي والطاولات الصغيرة. مطبخ صغير جداً بالكاد يتسع لاثنتين

يتحركان فيه للطهي ولغسل الأواني وفي المطبخ براد صغير الحجم يكفيه على أية حال. طباخ واوان وأطباق من النحاس والتوتياء ولوازم أخرى. فوق البراد زجاجتا نبيذ من الصنف الشعبي الذي ينتجه رهبان دير اللطرون. ابتسم كنعان:
- لم ينس الرفاق أن رأس السنة الميلادية يقترب، طقوس فيها معروفة وبدون نبيذ لا معنى لرأس السنة.

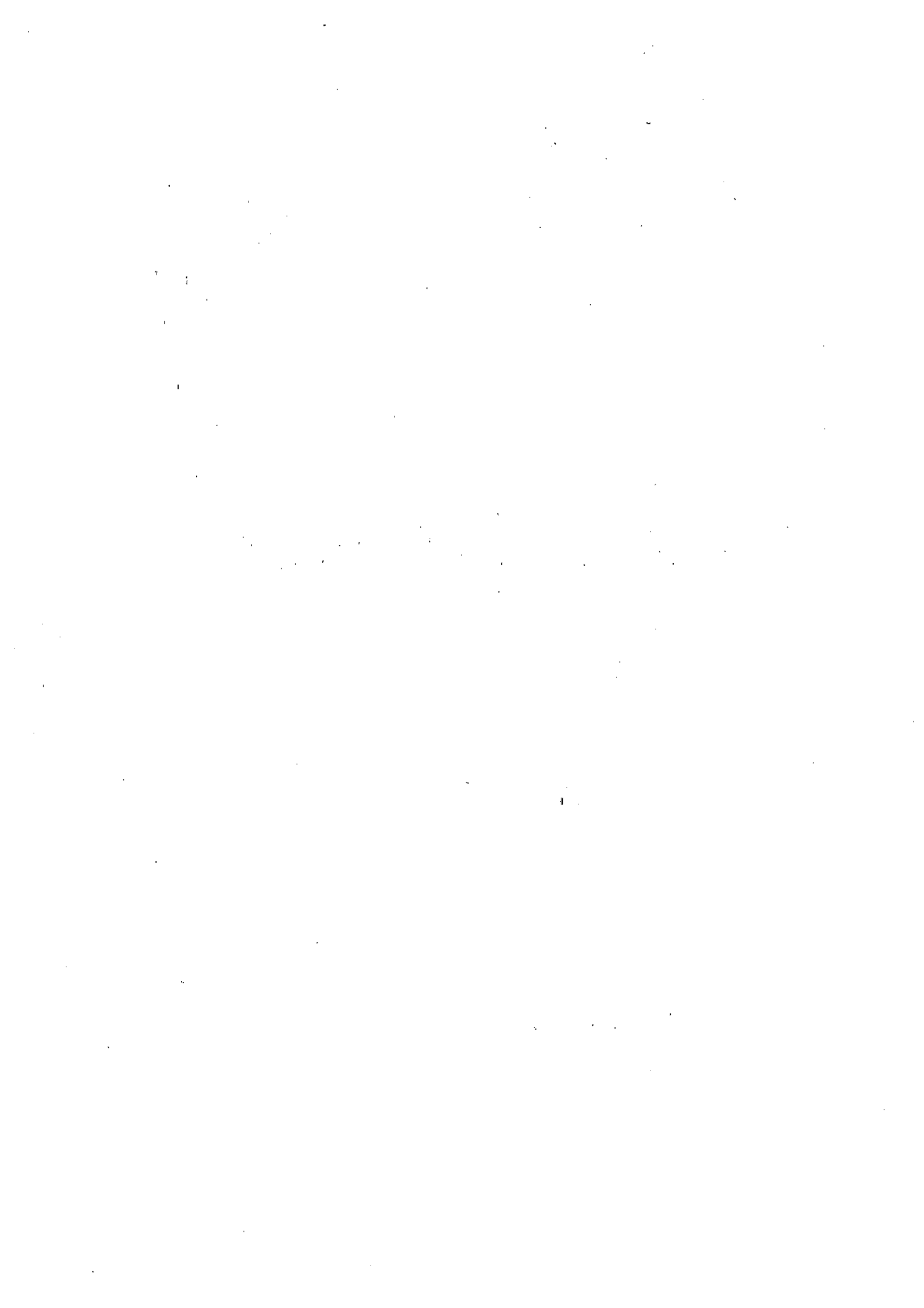
فتح واحدة وكرع كأسا دفعة واحدة فأحس الدفع في جوفه. لم ينس زاده أيضا: حفنة من الروايات والكتب النظرية، جرائد ومجلات، دفاتر وأقلام. ابرز زاده كان رواية "كيف سقينا الفولاذ" لنقولاي استروفسكي، طبعها الحزب ووزعها في الوطن. ابتسم ثانية عندما رآها وتذكر بماذا أسماها عندما قرأها لأول مرة تديلا وإعجابا بها: كيف سقينا الفولات؟

نوافذ البيت تطل من جهتين على بستان للفواكه وأكثر ما فيه شجر التين والتوت الأبيض ومن الجهة الثالثة تطل على تعريشة من الياسمين تغطي الممر المؤدي لباب البيت. كثافة الأشجار وانخفاض البيت أصلا، يجعل من الصعوبة على ضوء الشمس أن يتسلل من نوافذ البيت. انتهى كنعان من التعرف الأولي على بيته السري وتمدد على السرير بعدما خلع ثيابه وحذاه المبلل.

هل تعرفت جيدا يا كنعان على محتويات بيتك، معالمه ومواصفاته، انك ستحيا معها سنين وسنين، ستحفظها عن ظهر قلب سيغدون رفاق حياتك ونضالك. تعرف جيدا يا كنعان، فالآن بدأت رحلتك التي ما حسبتها يوما ستطول لهذا القدر، حتى تعشقها كما الأنثى لهذا القدر، تعيشها بجوارحك وتنتشي بامتلاكها. للتو أقلت باب بيتك الذي لا تدري متى سينفتح من جديد، أقلت وأدرت ظهرك للحياة التي عشتها منذ أن سحبتك القابلة الفرنسية العجوز من رحم أمك. أقلت لتفتح أمامك حياة جديدة، القابلة فيها حزيك ورفاقتك، حياة تفتح بإقفال باب، وإرادتك ستبنيها طوية طوية. تعرف جيدا يا كنعان، تعرف. ليست حياتك المقبلة محض مغامرة، فرادة، تميز! هل تعلم أن أم عيسى سترصد بأذنيها صوت بولك المنساب من مثانتك على أرضية المراض، لتسارع فتدق بابك، لتخضعك للاستجواب؟ تعرف حتى تغدو معولا يحفر درب تجربة ثورية جديدة مع رفاقك وحزبك لا معولا يهدم الجدران مخزون قوتك فتتحول لعبء على الحزب فوق أعباء المتجددة أبدا.

لكنه ما فتى مأخوذا بحلاوة المغامرة، فرادتها، وتميزها ولا يدري ماذا يخبئ الباب خلفه، ما المعنى الذي سيتخذ في حياته، متى سينفتح ثانية؟ ■

الفصل الثاني



الفصل الثاني

أعاد النظر خلسة من نافذة غرفة نومه، رأى أشباح جنود كثر عند الباب تتراجع خلفا لتدفع من جديد، تضرب الباب بأرجلها المبسطة تحاول خلعه. كان الطقس الوثني في بدايته. سيارات عسكرية اتخذت مواقع لها عند المداخل الثلاثة المؤدية للوكر، كانت المداخل تلك ترى بوضوح من نافذته كثافة الجنود وتوزع الحافلات تنبئ بجديّة الموقف) حدث كنعان نفسه بصوت مسموع وتطلع لهشام الواقف بجانبه، ينظر هو الآخر من النافذة:

- يبدو أننا وقعنا يا رفيق، كمية الجنود والشاحنات لا توحي أن المسألة مسألة بحث عن ملقي حجارة لإعتقالهم. هكذا يبدو لي. لن نفتح الباب فليفتحوه بأنفسهم أن شاعوا الدخول. سأسارع للمخبا ومعي أوراقتي ومنتصرف كما اتفقنا سابقا. لنرجو أن لا يكونوا قد لمحوا اثنتين عندما خرجنا للشرطة لنستطلع.

كانت كلماته سريعة، لاهثة ومنفعلة، لكنها غير مرتبكة أو مترددة بل واثقة وصارمة. نطق بها كمن تدرب على نطقها طويلا، كمن حفظها عن ظهر قلب. لم يشعر بذلك الارتباك اللحظي الطبيعي تماما والإنساني تماما الناتج عن الضعف الإنساني والذي ينتاب من يتحسس الخطر يدهمه، ذلك الارتباك الذي يفقد الإنسان قدرة التفكير المنسّق والهادئ للحظات. كان يشعر بالمرارة والانسحاق وهو يخاطب هشام ويرى لطقسهم يمارسونه عند الباب، يتألم إذ تمكنوا منه أخيرا، انتصروا عليه بعد تسع سنوات. نظر لهشام إذ حدثه، فلم يلحظ علائم الارتباك بل لاحظ ملامح وجهه تشي بالتحفز والترقب والانتظار. كان الاثنان لحظتهما يتميزان برباطة جأش وتماسك من عراك تجارب عديدة، خبير نفسه، قوته وخبر غيره، إمكاناته وحدودها.

رباطة جأش الحزب، رباطة جأش منظماته ورفاقه هي ما يجب أن نتحلى به الآن لصد الهجمة على الحزب. فقدان رباطة الجأش يعني فقدان التوازن والسقوط، يعني الارتباك والتخبط. ما يهدم الآن بنيته لاحقا أقوى. لا داع للفرع. لندافع الآن عن الحزب، عن أنفسنا ولاحقا نبني أضعاف ما يهدم. الارتباك يعادل الاتهيار في أقبية التحقيق، مهمتك الآن أن تحمي نفسك ومرة أخرى أن تحمي نفسك. هكذا كتبوا له عام ١٩٨٥، السنة التي نهشت فيها أجهزة المخابرات منظمات الحزب من رفح حتى قلبيّة. كثيرا ما كرر الحزب تلك الكلمات، حتى حفظها في تلافيف دماغه، عززتها التجارب المتكررة في مواجهة الهجمات.

بسرعة تناول من على المنضدة الصغيرة بقرب سريره رزمة أوراقه السرية ومعها علبة سجائره. قصد مكانا معروفا: تلك الخزانة الكبيرة الملاصقة للحائط، مقابل الحمام وبحركات آلية منتظمة ومنتشابة تعكس دربه سابقه شرع بالعمل: فتح باب الخزانة، انتزع أحد الرفوف من مكانه بما عليه من مناقش حمام وأدوات تنظيف وغيرها ووضعها على أرضية الخزانة الخشبية، تناول مسمارا صغيرا معدا لتلك اللحظة وأدخله في ثقب صغير لا يكاد يرى في اللوح الخشبي المتحرك والذي يشكل خلفية الخزانة. دفع باللوح لأعلى فانزاح عن فتحة صغيرة في الحائط بالكاد تنتسج لمروره، تسلل من الفتحة لوكر معتم وصغير وأعاد سريعا وضع الرف مكانه، مد يده فسحب باب الخزانة وأغلقها، انزل اللوح الخشبي مكانه فساد الوكر ظلام دامس لا يمكن من خلاله رؤية حتى إصبع اليد.

في وكره قبع كنعان جالسا على حافة المدخل منتظرا. ينتظر عسى أن يتوقف طقسهم البدائي الوثني فيكفون عن محاولة فتح الباب. كان يأمل ذلك، يصغي للسمع لما يجري خارجا ويفكر. الأشباح لا زالت تحاول فتح الباب، تحاول تمزيق حياته السرية، رغم أمله بأن يفلت من قبضتهم هذه المرة أيضا. كما جرى قبل سنوات. كل شيء يهون الآن إلا أن تقع ورقة سرية بين أيديهم، ليأخذوا حياتي لكن أوراقي لا! حدث نفسه ضاغطا على أوراقه السرية، كأنه يقبض على حياته بين يديه ليمنع عدوه من انتزاعها، كالأم تحتضن وليدها المريض خشية أن يخطفه الموت. تأكد في عتمه وكر حجرى وبمساعدة أصابع يديه، تحسسا، من وجود الولاة والعلبة المليئة بالكاز. أعد كل شيء التزاما بقواعد السرية التي اعتادها، قواعد الاحتياط للطوارئ. دائما كان يضع للقادمين إلى بيته ترتيبات ما للطرق على باب البيت الذي يسكنه، إشارات متفق عليها بينه وبين زائريه، تشكل إحدى بدهيات العمل السري وأمن الاتصالات. كانت تلك الطرقات تعلن أن الحياة ستدخل البيت مع دخول رفاقه. كل قادم من الخارج كان يحمل معه نبض الحياة: أخبار الرفاق، الأصدقاء، الأهل والناس وحياتهم، التطورات المحلية والأحداث... حتى النكات وما يجري على السنة الناس من أحاديث وشائعات وما يشغل مزاجهم وتفكيرهم أيضا.

كان يصر على "حقه" هذا عندما يواجه بأحدهم يقتصد بالحديث كأنه إذ يعطي ما يختزنه في رأسه يقطع من لحم جسده. الفضول كان حافزه لمعرفة ما يجري، الرغبة بان لا ينقطع عن تطورات الحياة وهمومها طالما اضطر لينقطع عنها بجسده، الرغبة بإرضاء الذات بأنها تحيا مع الناس وبينهم، كانت أيضا تحفزه! سحق كثيرا من مطالب ذاته لكن مطلبها ذلك كان حريصا على تلبية لها! أما ما يسمعه الآن فليس طرقات رفاقه المحببة الرتيبة المتفق عليها. الطرقات الآن من نوع آخر، عدوانية قد تحمل معها الموت، وحشية قد تنهش جسده تعذيبا. طرقاتهم

الآن حاسمة ومقررة، تنبىء بما هو خطير وسيقلب حياته رأسا على عقب. إنها تشبه القرار الجريء والحاسم الذي حملته رسالة كانون قبل تسع سنين، قرار انزعه من حياة وأدخله في أخرى. قرر الحزب ووافق هو متحمسا. هذه المرة هم الذين يقررون مجرى حياته اللاحق لا هو. أن يقرروا هم لا هو ذلك يشعره بالغصة في حلقه والعلّة في قلبه. إن من يمتلك قرار حياته لسنين وسنين لا يتقبل أن يمتلك غيره ذلك القرار دون أن يدفع الثمن، والثمن هو هزيمتهم، أن لا يستفيدوا من اعتقاله.

الطرق يتصاعد في عنفه وقوته مؤكدا إصرارهم، يؤكد انهم مستقزون، وأن الباب لا يطاوعهم ويقاوم طقسهم البدائي لفتحه-لاقتلاعه. يسمع الآن أيضا تلك الأصوات المألوفة بقبحها ودلالاتها: أصوات أجهزة الاتصال اللاسلكية.
- ماذا يفعل هشام الآن؟ (تساعل بلهفة وإحساس متضامن مع رفيقه وصديقه)، لا شك يرقب حركتهم من النوافذ بعد أن تأكد أن لا أوراقا لم تجمع.

لم يخطر في باله يوما من الأيام أن طرقات الباب سيكون لها المعنى الذي تحمله الآن. فكر بالاعتقال سابقا واتخذ بناء على توجيهات الحزب جملة إجراءات احتياطية. الاعتقال يكاد يكون احتمالا محتوما للمناضل. سنين حياته الطويلة، تشدده إزاء قواعد السرية، ثقته بترتيبات الحزب، صلابة من يعملون معه ويعلمون بسرهم، تعلقه بالمحتوى الثوري الكامن في حياته.. كل ذلك جعله يتطامن بان ليس هنالك شيئا يقادر على وضع حد لها!! مهامه، نضاله، تجربته وإنتاجيته جعلته لا يمتلك أن يتخيل نفسه خارج صفوف الحزب والنضال. لقد عاش تلك الحالة الشعورية التي تجعل حياة ما تمتلك على الإنسان وكيانه وأعصابه وحواسه وساعات يومه، عاشها فجيلته بجيلتها الخاصة، عجنته من جديد، شكلته، عاشها للدرجة التي بات معها لا يتخيل أن تلك الحياة ممكن أن تنتهي. كان يتحسس بمليء كيانه بتميز وفرادة حياته، ذلك التميز وتلك الفرادة التي حولت تجربته لتجربة ثورية خاصة. لا شك أن الاعتقال دهمه في أحلام يقظته. ما أخصب أحلام اليقظة لدى من يعيش بين الجدران، خلفها، إنها تغدو الشريان الذي يغذي روحه التي تقاوم تحجرها، وضيقها نتيجة تطويق الجدران. إنها الحبل السري الذي يربطه بالعالم-خارج بيته. كل من يحيا الحياة السرية يبحث عن يخرجه خارجها في الوقت الذي يتمسك بها!!

لقد "عاش" انتصار كادحي العالم ضد طواغيت رأس المال! "فرح" عندنا تحرر وطنه "وشرع" بيني الاشتراكية بقيادة حزبه! "سعد" بصحبه امرأة أحلامه، يسيران معا، يداعبها، يخطف قبلة منها بين لحظة وأخرى! بين كل هذه وغيرها كانت أحلامه تسبح، كانت متفائلة، فرحة تبعث على التمسك بالمستقبل المشرق.

كان الاعتقال في أحلام يقظته يعني التحدي والصمود، "رأى" نفسه شهيدا بين أيدي المحققين. "شهد" جنازته التي تحولت لتظاهرة، والحزب يشيد صموده ويؤبنه. كان ذلك جزءا من تعبئة داخلية ذاتية مارسها كثيرا وهو يتمشى بين جدار وجدار أو يجلس على الشرفة ليلا في أيام الصيف أو يضع رأسه على وساده ويفكر "ويحلم" قبل أن ينام. صورت له أحلام يقظته، اعتقاله في شارع وهو يسير متكررا يقصد بيتا سريرا لعقد لقاء. صورت اعتقاله أثناء التقاطه "إرسالية ما" من مكان سري متفق عليه. نقطة ميته، رغم خصوبة أحلامه الشبيهة بخصوبة التربة الحمراء لمرج بن عامر إلا أنها لم تأت به بتلك الفكرة التي تحملها معها الطرقات الآن، المتواصلة منذ نحو نصف ساعة. نهاية حياة عاشها وبداية حياة يتحسسها تقترب منه، تأخذ عنوة لتفاصيلها المجهولة مثلما أخذته في حينها حياته السرية في بدايتها، لعالم لم يكن يعرف كنهه.

منذ أسابيع وهو يخوض غمار حياته السرية، حياة لا يراها سوى باب مقفل وجدران صماء. يدرك قيمة حياته الأساسية: تحدي قرار الاعتقال والتمرد عليه ومواصلة النضال وعدم السماح بحجز طاقته بين جدران السجن. يدرك ذلك لكن عينيه لم تكن ترى سوى الباب والجدران. أينما اتجه أبواب وأينما أشاح بوجهه جدران. كان العالم بأكمله اختصر نفسه لأبواب جدران لا غير. يتكرر هذا العالم في نفس الزمان، البارحة مثل اليوم ومثل غدا، انه عامل آخر ذلك الذي وضع نفسه فيه!

أي عالم هذا الذي ينهض فيه الإنسان صباحا لا ليخرج بل ليجلس على طاولة أو يتمشى بين جدار وجدار ولا يجرؤ على فتح باب بيته حرصا على أمنه وسلامته؟ الناس تصحو صباحا، وتفتح الأبواب: هذا لمدرسته وذاك لمكان عمله هذه للتسوق وأخرى للثرثرة مع جاراتها. حتى إلقاء تحية الصباح على جار له محظور عليه ولا يستطيعه!؟؟ أي عالم هذا الذي يعيشه الإنسان دون صداقات، دون أن يلاعب طفلا أو يجالس امرأة يجالس امرأة فقط!! أن يرى أهلا أو أقارب، أن يحدث إنسانا أي إنسان، حتى السجن يستطيع كل ذلك، في حياة السجن ومن خلف الأسلاك في موعد زيارته الدورية لأقاربه ومعارفه. من يملك الإمكانية لتقدير الأهمية القصوى جدا لما هو اعتيادي جدا في حياته؟ السير في شارع، رؤية صديق، فتح باب المنزل والخروج منه، ملاعبة طفل، رؤية أم. . . فقط من يحرم من كل هذا وغيره دفعة واحدة وفجأة. من يحرم من كل ما يرتبط بالحياة الاجتماعية الاعتيادية بيومياتها لا يستطيع فقط تقدير تلك الأهمية بل يحس حاجته لها تصرع كيانه يوميا، ساعة بساعة، دقيقة بدقيقة. ولأنها كذلك فقد بدأ الآن، الآن فقط يتحسس على جلده، على أعصابه معنى الجملة الأمرة إياها الخشنة خشونة الإسمنت والصريحة لدرجة الفظاظ "لا تستقبل أحدا ولا تزر أحدا".

يتمشى في بيته بين جدار وباب أو يستلقي على السرير أو يفتح كتابا أو يرقب الشارع والجيران من نافذته، أو يطبخ طعامه أو يستمع للراديو أو المسجلة أو يمضغ رغيف خبز أو يتفاز من غرفة إلى أخرى يتوارى خلف الجدران هربا من عيون الشمطاء أم عيسى أو وحياته الجديدة تستفز كل خلية في جسده، توتر أعصابه، تشدها كالوتر لأقصى درجة ممكنة. أية جملة تلك؟ كيف يملك من كتبها أن يكتبها؟ هل يعرف ماذا تعنى في الحياة اليومية عندما تتحول حروفها وكلماتها ليوم يعاش، لساعة ودقيقة تعاش؟ إنها ليست جملة، إنها قرار بالإعدام البطيء، فالإنسان كأنن اجتماعي فكيف يحافظ على كونه إنسانا إن عزل نفسه عن المجتمع والحياة الاجتماعية؟ أي مجنون كنت إذ تحمست لذلك القرار اللعين، عدم تسليم النفس للمحتلين؟ أي جزب. هذا يفعل بأعضائه ما يفعلون به.

يمشى ويتساعل فيقعد ويدخن، ليطمشى من جديد ويستلقي على السرير وأسئلة تصرع خلايا دماغه وتندلق على لسانه متوترة، منفعة، فتتحول لشئام يرشقها لكل ما يخطر على ذهنه، لكل ما تقع عليه عيناه. يستمر هكذا مثل حبة قمح على سطح محمي طوال النهار، أعصاب متعبة تتحدث وجسم ينهد من الإرهاق. كان ضعفه يندلق على لسانه، كلمات متوترة، سريعة وشائمه فيقول ويقول حتى ينام، مرهقا أرقا فينقلب على هذا الجانب أو ذلك فيغفو تعباً، فما يلبث أن يصحو بعد سويعات قليلة لتعيد أعصابه عرض فلمها الناطق، تذر أثارها، سلاطة لسانها، شئامها ... أعصابه المتعبة كانت تتحدث، ذاته كانت تتمترس خلف متطلباتها، تطلق نار بندقيتها عليه:

بين عشيه وضحاها أصبح كل شيء خلف ظهري. خمس كلمات قررت حياتي بل قضت عليها! "تقرر أن لا تسلم نفسك" كلمات مكثفة، مجردة، صماء، تقريرية، جافة، وجملة أمر، خشنة ضيقت عمرا بأكمله. كل شيء أضحي خلف ظهري. كل ما حولي لا انتمي له ولا ينتمي لي. فهل ناضلت لأنتمي لأبواب وجدران وأوان وأطباق؟ هل ناضلت لأحسب حسابا لصوت بولي كي لا يقبض علي متلبسا من أم عيسى. تقتلني الوحدة، لا أم لا أخوة ولا أخوات ولا حبيبة، لا أصدقاء ومعارف، كيف تركت كل هؤلاء، أي مجنون كنت؟ لا شيء سوى هذه الجدران وحفنة الأبواب اللعينة. إحداها أقفل ولا يفتح إلا ليأتيني بخبزي ليقفل من جديد. السجن أهون ألف مرة. أقضي سنة، سنتين وأخرج لأناضل من جديد. الجميع يفعل هذا فماذا دهاني هذه المرة؟ احتياجاتي تستطيل وتستطيل فتصطدم بالجدران لترتد لنحرها. رغباتي تكبر وتكبر فتتحول لأنياب حادة تنهش لحمي، دماغي، دمي، تصبح "دراكولا" متوحش. إن حاولت رغباتي التسلسل، وجدت بابا موصدا وجملة أمر خشنة وكلمات جافة، مكثفة، صماء، تقريرية ومجردة تركل رغباتي من عجيزتها. هي الحياة السرية تحول احتياجاتي ورغباتي لمستحيلات فيما هي في الحياة الاعتيادية ممكنات بل كانت واقعا محققا.

وبين نوبة من التوتر، وبين جولات زعيق الذات في جوفه، كان العقل يتدخل فيدلي برأي عاقل، مترن ولو للحظات:

تحمل يا كنعان تحمل، ألم يكن عليك أن تتعرف على بيتك وحياتك، تعرف إذن وتحمل، حزبك وتجربتك يصنعان منك ثوريا فهل يتسنى ذلك دون توضيحات؟ إذن تحمل. للثورية متطلباتها فقم بها. تحمل إذن. ألم تقراً عن حيوات ثوريين كبار؟ ماذا قدمت حتى اللحظة قياساً بهم؟ ماذا قدمت قياساً بمقاتلي الثورة في لبنان ومنهم مقاتلي حزبك؟ ألم تقتنع أن الثوري المحترف يمنح الثورة حياته لا سويغات ثرثراته؟ إذن تحمل ودع التجربة تصنع منك ثوريا محترفاً. أنت مقتنع بالثورة فكن رجلاً وادفع فاتورتها دونما نزاقة. الثورة تغيرك فساعدتها بالتطبع مع منطقتها ولا تمكن أعصابك من أن تكون ثورة مضادة، خنجرًا يفرس في ظهرك.

العقل من جهة وأعصابه المتوترة من جهة أخرى، كل يقف على متراسه ويصوب بندقيته للأخر، يقاتل باستماته ولكن لا أحد يتمكن من قتل الآخر. حتى هذه المرحلة من العراك كانت أعصابه غالبية وذاته متفوقة لكن دون أن يسقط العقل صريحا للعقل لحظات فيما للذات المتعبة، والمتقلبة ساعات وأيام وأسابيع، فهي تستند لاحتياجاتها الطبيعية الإنسانية الملباه لكل من سار على قائميه وتعلم النطق والتجريد، فيما العقل يستند للقناعة التي تنزعزع أحيانا كثيرة نتيجة ضالة التجربة وحدائتها وقسوة المتغيرات. يسمع ذاته-أعصابه تصيح به، فيتمشى تعباً كالمترنح سكرًا بين جدار وآخر والسيجارة لا تتطفئ بين شفثيه. ثلاث علب كان يدخل يوميا حتى أضحي كمدخنة القطار لا يتوقف عن إطلاق الدخان إلا عندما تسكن عجلاته فينام.

بين "الأنا" التي تتطلب احتياجاتها ورغباتها وبين الـ "نحن" التي تطلب فاتورتها، تطلباتها كان الصراع. الأولى، تلك اللعينة لا تستطيع شيئا! فالحياة السرية تفزح احتياجاتها لأدنى حد ممكن: للأكل والشرب! فيما الثانية فاتورتها كبيرة وتطلباتها أكبر وعديدة ولا تكف عن الطلب وعليه أن لا يكف عن العطاء. الأسابيع تمضي وتمضي فتغدو شهورا، والمحتلون لا يكفون عن الملاحقة. في الشهر الخامس لحياته السرية زار ضباط في المخابرات بيتهم، زيارتهم الأخيرة: كانت أمه قد خارت قواها ولم تعد تقوى على النزول من على السرير ورفاقه يطمئنونه ويقولون له كلما سأل عنها: هي بخير اطمئن لا جديد معها! أما عندما طلب أن يبعث برسالة فردهم كان جاهزا: تريت قليلا لتهدأ الأمور أكثر، لم يحن الوقت الملائم!

قبل منتصف الليل بقليل قرعوا باب بيتهم:
- مساء الخير، هل ممكن أن ندخل قليلا؟

دخل اثنان من الضباط دون انتظار جواب لسؤالهم، متظاهرين مع ذلك بالأدب، وتلك طريقة فريدة في الوقاحة لا يتقنها إلا ضباط مخابرات.
- آسفين لإزعاجكم. أين أم كنعان؟ هل يمكن أن نراها؟
- هي مريضة لا تستطيع القيام من الفراش.
أجاب شقيقه الذي لم يعتد يوما على رؤيتهم ولا على التحدث معهم.
- سلامتها. هل يمكن أن نراها؟

ودون أن ينتظر الإذن تحرك تجاه غرفة نومها وبرقة مصطنعة ومموجة أخذًا يطمئنان على صحتها ويسألًا عن مرضها ويتمنيان لها الشفاء ومن ثم انتقلا بعد هذا التمهيد لما جاءوا من أجله.
- ما أخبار كنعان؟

- وما أدرانا؟ منذ أن خرج قبل خمسة شهور لم يعد. ألا تعرف أنت عنه شيئا؟ أحلفك بالله ما اعتقلتموه؟

ردت أمه وسألت بأعصاب هادئة نجحت باصطناعها لإخفاء توتر حتمي لوجودهم كخرباء في بيتها وبالقرب من سريرها.
- هل تضحكين علينا؟ هل يكون لدينا ونجيء لنسال عنه؟
رد أحدهم بعصبيّة عكست عدم تمرسه. استدرك الثاني عصبيّة الأول سريعا:

- هل من المعقول أن تكوني مريضة لا تقوين على النهوض ولا يأتي لزيارتك؟
- معقول. هذا إن عرف أبي مريضة، الله يسهل عليه أينما كان. لا أريد منه شيئا. عندي من يساعدي فأخوته كثيرون.
- لا لا ليس معقولا ذلك! أنت أمه ألا يأتي لدقائق ليطمئن عليك؟ أي ابن هذا؟ ألا يأتي ليقول لك كل عام وأنت بخير ولو لخمس دقائق؟ ألم يكن لديكم عيد الفصح قبل أيام؟ أي ابن هذا، ألا يزور أمه في العيد وهي مريضة؟
- قلت لك لا اعرف عنه شيئا ولم يأت. لماذا تكثر من الكلام بلا فائدة؟
حاول الاثنان عبثا ضبط انفعالاتهما كي لا يتقادا للاستفزاز ولكنهما لم يتمكنا إذ ما لبث ان كشف أحدهما حقيقته فجأر مكشرا عن أنياب المحتل فيه.
- صوره معنا والجبهة الشعبية لن تنفعه، سنحضره لك على نقالة، وعشر رصاصات في رأسه!! أفرغ ما في جعبته في وجه الأم المريضة ورحل..

بعد أسبوع بعث له الحزب ما شرح له صدره وأشاع بعضا من الاستقرار لديه: "اكتب لامك ولترد عليك ونحن سنرتب طريقة لتبادل الرسائل معها دون مخاطرة". أخذ يتمشى ويحدث نفسه:

ماذا ستكتب يا كنعان لمن تركتها بعد أسبوع على وفاة والدك، ورحلت ولم تعد تظهر؟ كيف ستقول لها إن جملة لن اسلم نفسي حالياً سيشطب منها "حاليا"، هل تفترض فيها أن تتفهم إحتياجات حزبك للثوريين المحترفين، حاجة الثورة لنية تنظيمية ثورية في الوطن، شغفك بالمغامرة، بالفرادة، بالتميز؟ ماذا ستقول لها عن منى التي أحببتها كابنتها ورأت تعلقك بها، خطبتها لتندس بين الجدران لا لتحملها بين يديك عروس لك؟ هل ستصف لها حالتك منذ شهرين بين الجدران، صراع الأنا والنحن في تئايا دماغك؟ ماذا ستكتب يا كنعان؟

كان يتمشى والقلم في يده يطقطق بالوسطى عليه والورقة البيضاء على الطاولة، تنتظر عصابة تفكيره وتوتره، كلمات وجمل وحروف يخطها للتكلى بابيه والمنكوبة به، والمبتلاة بمرضها العضال، أي موقف يجد نفسه فيه؟ منذ شهرين ولم يفرح كما فرح عندما دعي ليكتب لها، ولكنه الآن يرى ممارسة فرحه عبثاً عليه. من السجن كتب لها عن اشتياقه وعن حياه الأسر وكان يقول لها عادة "لا بأس تحملي يا ست الحبايب، ما بقي إلا القليل وسأكون بينكم" وان لم يكن قلمه يسعفه حينها فاللسان يقوم بدوره في اللقاء الحي عبر الزيارة الشهرية. إنما الآن فأمامه بقي الكثير الكثير الذي لا يعرف مداه، كمن يسبح في بحر بلا شيطان أو يسافر في الفضاء الكوني اللانهائي ولا يعرف متى يصل! وان لم يسعفه القلم فمتى اللقاء الحي والعيون بالتأكيد لا زالت ترصد البيت وترقب حركة أمه؟ قد من جديد وما لبث أن نهض. تطلع عبر النافذة على أشجار الحقل مطقطقا على قلمه. أخيراً قعد إلى طاولته وكتب: الأم الحبيبة، ست الحبايب. قبلات كثيرة وكثيرة جداً لك. قبل أن أتحدث تذكري جيداً إتلاف هذه الرسالة بالنار بعد الانتهاء منها ولن لا تحدثني أحد عنها لا من قريب ولا من بعيد. الأمر يتعلق بحياتي السرية وأي خلل قد يسبب لي الخطر.

وضع القلم ونهض عن الطاولة يتمشى ولسانه يلهج بتوتره وحنقه على ظرفه: "حتى ابسط مظاهر العلاقة مع أمي تكتسب طابع حزبي، أن اكتب رسالة تحتاج لقرار وموافقة حزبية. أولى جملي لها أوامرية توجيهية كما لو كنت أخطب خليه أو رفيق، تصلها رسالتي بترتيب أمني وبأتيني ردها بذات الترتيب. ماذا تبقى؟ هل كان يجب أن افتتح رسالتي بالترويسة التالية: الرفيقة أمي العزيزة، تحيه رفاقية حارة وبعد واختمها بـ "إلى الأمام، الرفيق ابنك. ك!!". ابئسم بمرارة من سخريته.

كان على مدى شهره منذ انتقل إلى حياته السرية بدأ يدرك أن كل العلاقات في محيطه السري سيكون الحزب ظلها، فحياته السرية ستعيد صياغتها. لكن إدراكه شيء ومعايشته شيء آخر. يدرك أهمية مقدمته الأوامرية فمنذ السطر الأول ينبغي لها أن تدرك خطورة وضعه لتتعلم ومنذ البداية أصول اللعبة! كلمة واحدة تغلت هنا وهناك وسرعان ما يبدأ التسلسل المنطقي: الكلمة ستتحول لثرثرة

عجائز وفضوليين، تلتقط أذن المخابرات في الشارع ما يقال فتشرع عيونهم بالرقابة. الرقابة مقتل العمل السري، تفنك به، باتصالاته، بأنشطته، بمخابئه، تتسلل عيونهم عبرها لداخل القلعة. الحزب، فيغدو الأخير على طاولتهم وبصحبة عالمه الداخلي. فأي عمل سري سيكون ذلك؟ خشونة المقدمة، أوامريتها، الترتيب، كل ذلك ضمانه استراتيجية فالتجربة بالنهاية إن لم تغدو تاريخا لا تسوى شروى نقيير. عاد ليكتب بعدما تسرب احتفانه وحنقه:

"اهتمي بصحتك، ولا تقلقي فالحزب والرفاق يضعونني في عيونهم، أكل جيدا، وتعلمت أن أطبخ حتى الملوخية والكوسا المحشي. تخيلي هذا الإيداع من ابنك؟ أنام جيدا ووقتي مليء ولا أشعر بالملل". كذب وكذب ليريحها قليلا. لا طعام يعرف طهوه حتى ذلك الحين من حياته السرية، فيما النوم يتدل كأنثى تتمنع، والملل يقتله وأصابه تصرعه!!.. "أرجو أن تتفهمي موقفي وأن كان فيه صعوبة لك، لقد اخترت طريق حياتي، طريق النضال من أجل شعبنا وحرية وطننا. ابنك الصغير كبير ومن حقه أن يحدد طريق حياته، يحق لك أن تفخري بطريقي. أنت قد صنعت مني رجلا، فأي رجل ساكون إذ أكون منرجا على وطننا محتلا وشعبنا مستعبدا ولا أفعل شيئا...، كل ما أريده منك هو الاهتمام بصحتك، إسنادك لي هو تكرار تلك العبارة العزيزة على قلبي والتي أحملها معي منذ تركت البيت قبل خمسة شهور: رح يا بني، الله يرضى عليك!! كرريها دائما بينك وبين نفسك وتقي تماما إنني اسمعها".

كتب وكتب، حاول أن يقنعها بخياره وهو يدرك أن كل حجج فلاسفة العالم ما كان لها لتقنع أم بابتعاد رأس ولدها عن صدرها، طفلا يحبو كان أم كهلا وخط الشيب رأسه!!.

ختم رسالته بإعادة تأكيد جملة المقدمة الأمرة واتبعتها "أرجو الالتزام بترتيبات الرفاق حرفيا لاستلام رسالتك لمصحتك ومصحتي. قبلا تي الحارة لك. ابنك المخلص ك!!".

بعد أسبوع من استلامها لرسالته بعثت ردها وقد قتله الانتظار. انتظر ليرى ما تقول، اشتاق لخط قلمها ينحرف عن السطر صعودا وهبوطا، لكلماتها العامية تختلط بالفصحى:

"ولدي الحبيب. رضى قلبي وربى عليك. كيف حالك وكيف عايش. الله يلعن هالدنيا اللي فرقتنا. لا تهمل همي المهم أنت، أطبخ وغذي حالك وخلي الرفاق يشتروا لك كل شيء. اطلب منهم. دفي حالك، في الليل بتصير برد. الله يرضى عليك وين ما كنت. إنت زلمه ويتعرف صالحك...".

دمعت عيناه وهو يقرأ كلماتها، دقات أمومتها وحنانها. سرح بخياله إليها، في المطبخ تزجره إذ يعيث بما تطهو تذوقاً، باغفاناتها وهي جالسة أمام التلفاز، بجلوسه معها على الشرفة تقشر البرتقال وتتذوقه، فتعطيها حلو المذاق وتأكل هي حامضه، بجهودها عند الفجر لإنهاضه من نومه ليدرس بعدما تكون الساعة المنبهة قد أيقظتها، بلباقتها حين تحترم وحدته مع منى وتتركهما معا.

- ستسافر وهذا جيد، لترتاح وتعالج مرضها. سألت عن إمكانية المراسلة. أبلغ رفاقه بطلبها الذي يئته رسالتها.

- أنت تعرف أن المراسلة معها بعد السفر صعبه، فالرسالة إن لم تسلم باليد يصعب ضيبتها أنت سيد العارفين.

- اعرف اعرف، قال منكسرا وتابع: لا أستطيع أن اكتب لها ذلك. ابلغوها انتم شفاهة.

- حسنا.

الأضداد لا زالت تصرعه. علمه الحزب قانون وحدة وصراع الأضداد في الفلسفة المادية الديالكتيكية، منذ كان شابا يافعا يتحلق مع غيره من الشبان حول سجين قديم في السجن هو يشرح وهم يسألون ويكتبون ويدخنون سجائر "عمر" من دون أعقاب قلترية. لكنه لم يفهم الآن: الأضداد في تلافيف الدماغ. عقل وأعصاب متوترة، أنا ونحن، احتياجات إنسانية ومتطلبات عمل. صراعها كان يختصر فيه حياته طوال الشهور الأولى. الحزب كان طرفا في الصراع، فهو تجسيد نحن، العقل والمتطلبات. بين فترة وأخرى يصبوب هو الآخر بندقيته ويطلق نحو الأعصاب كلمة، رسالة للتهذية، للمصالحة، للإسكات. يسمى هذه الرسائل حقن "مورفين" مخدرة: يتقبل كلمة الحزب بشغف ندر أن يفارقه، لكن عندما تكون الأعصاب المتوترة قد تمنتست جيدا، واحتياجاته ورغباته تنهشه كان يكتفي بهزة كتف ولا مبالاة لما يقوله الحزب. كان النهش موجعا للدرجة التي هز كتفه عندها الحزب:

- اقرأ وكتب فالمجلة بحاجة لأقلام. اكتب رسائل للقاعدة، اكتب دراسات.

- لا أستطيع، أعصابي متعبة ومرهقة، أحمل القلم فاعجز.

- اقرأ عليك بالروايات.

- لم يبق واحدة إلا قرأتها.

- مارس الرياضة فهي تنشط الذهن والجسد. ألم تكن رياضيا يوما؟

- أصبح في حوض الحمام أم العب كرة القدم في المطبخ.

- تمارين اللياقة البدنية لا تحتاج لملاعب. الرياضة تنعش النفس والجسد أيضا.

- المسألة أكبر من ذلك. الجلوس هكذا يصرعني.

- ستعتاد.

- كيف!؟ انتم لا تعرفون عما تتحدثون، كيف اعتاد على اللاحياة. ألسنت انسانا؟

- بل نعرف أكثر من ذلك فتجربة الجماعة أكبر من تجربة الفرد، ستعتاد.

- أنا من يحشر هنا لا انتم. أنا من سيجن من روية الأبواب الموصدة لا انتم.
- تفهم ذلك ونقدره. نتضامن معك لكن عليك أن تهذا، أن تفكر بهدوء. ستعتاد.
- أنا هادئ ولكنني أريد مهاماً.
- المهام تأتي لاحقاً. يجب أن تستقر الآن بعد الهجمة، يجب أن تستقر تجربتك بحيث ينسى اسمك.
- لم ادخل البيت لأجلس، أريد أن اعمل.
- أمامك سنوات من العمل فلا تتعجل. فكر لمدى بعيد لا للحظة.
- لكن الوضع على هذا الشاكلة قاتل لا يحتمل. هل تمردت لأعمل ست بيت أكنس واطبخ واغسل.
- سيمضى ذلك. ستتذكر ما تقوله الآن وتضحك. كن رجلاً وتحمل.
- احتياجاتي ورغباتي تطحنني، هي ذناب تنهش لحمي.
- ذلك مفهوم وطبيعي ولكن عليك أن تصرعها، لا تدعها تتمكن منك وإلا صرعتك هي. فقط الحرمان يكبرها داخلك، هي ليست كبيرة.
- هذا كلام من لا يعاني! أنا إنسان ولست حجر.
- لذلك تصلح أن تكون ثورياً لأنك إنسان تستطيع تجميد احتياجاتك ورغباتك من أجل قضية أكبر.
- هل تتجمد الغرائز والمطالب الإنسانية؟
- نعم تتجمد. هكذا تقول التجربة. بالتجدد وغسل الذات. تجلد واغسل ذاتك جيداً.
- الثورية تتطلب غسل الذات، تحمسك للحياة السرية، موافقتك على قرار كانون الأول بمثابة حمل للفرشاة والصابون، والآن ادعك. ادعك جيداً واغسل ذات، نظفها من وسخ الأنا.

كان يدرك أن الحزب ينطق بالحق. لكن أنى للأعصاب المتعبه، للذات المهتاجة أن تتقبل ذلك؟ التجربة لم تقل كلمتها بعد، لم تجبله بجبلتها الخاصة، لم تعجنه بخميرتها بعد حتى يتمثل ما يقول الحزب سلوكاً فيهدأ ويحيا بوداعه ويناضل بأعصاب ساكنة، بذات ثورية لا عدائية مهتاجة، كان الحزب يفكر لمدى بعيد، لا للحظة. يسعى ليخلق منه ثورياً على نار هادئة، مثل قطعة الحديد تحمى بنار طويلاً حتى يمكن تشكيلها. كنعان يفكر للحظته، أعصابه المتوترة، ذاته المهتاجة هي التي تنطق. لسانه ارتبط بها موجهها منها لا من دماغه. للتجربة أصولها، قوانينها، متطلباتها، قواعدها ومداياتها. ينبغي استيفاء ذلك كله. التجربة تعاش من أولها إلى آخرها كما الرواية عند من يقرأها بمتعة. التجربة لا تقبل أن تختزل سنيها، أن تحرق مراحلها. وهل يطلب من الطفل أن يطلق شاربيه؟

"تحدث الآن يا كنعان؟ كيف وجدت حلاوة المغامرة، فرادتها وتميزها؟ واجه ذاتك ولا ترحمها. واجه احتياجاتك ورغباتك ولا تساومها. كن مع العقل، الحزب، نحن، متطلبات العمل. تعود على أن تصحو من النوم لا لتفتح الباب

وتخرج بل لتغتسل، تتناول إفطارك وتجلس أو تتمشى أو ترقب المارة في الشارع!! لن يعد منذ أن طلبت للاعتقال فتاه جميلة بقوام مثير، حبيبة تنتظرك عند محطة الحافلة لتذهبيا معا إلى الجامعة. كان لقاء الصباح معها حافزك للنهوض سعيدا ونشيطا لتسارع للوصول إليها، فهل ستنهض هكذا اليوم سعيدا ونشيطا؟"

كان يتمتع برؤية العينين الناعستين كل صباح. شعرها مزيج في لونه من الخمري والبنّي الفاتح. يصعدا للحافلة فيتعمد أن يحشرها جهة النافذة ليبدأ حملة المداعبة الصباحية التي أدمنها: يقترب منها، يحشرها أكثر، كوع يده يداعب خلسة خصرها البض الطري غير المكتنز، قدمه تلمس قدمها برقة واستنثاره. يستنثار ويثيرها كل صباح. كانا يفطران إثارة، وهي كالعادة خجولة تتسبرم وتظهر الامتعاض وكالعادة تريده أن يفعل ويفعل، فهي قبله تنتظر صباحا وجبه الإفطار- المداعبة الممتعة. تقول:
- استح مما تفعل. لقد فضحتنا.

وعيونها تضحك فتفضح لا جدية تحذيرها. يرد مناكفا:
- أمارس حقي الطبيعي والمشروع. للحب حقوق أقاتل العالم لإستحصلها.
ترد بنظرة تثيره أكثر مما تروعه- فعيونها في كل أحوالها كانت تثيره.

كل ذلك يا كنعان أضحي ذكرى الآن. منذ شهور مضى كل شيء. لا إفطار إثارة، لا كوعا وخصرا بضا طريا، لا فخذين متلاصقين، لا عيون مثيره. غدا ذلك ذكرى. هي جميلة ولكنها ذكرى ولن تعود لتصبح حقيقة. أفهم ذلك ولا تشتهي ألما كل صباح. أفهم ذلك ولا تعذب نفسك. لا تستحضر صور ذاكرك فتستنثار غرائزك فتتعذب تؤلم نفسك وأعصابك وجسدك. تحدث كنعان كيف وجدت حلاوة المغامرة، فرادتها وتميزها؟ مغامرتك الآن لا مكان فيها للأهل، للأصدقاء، للناس، لحافلة الجامعة مع إفطارك الصباحي. تعود أن تدفع فاتورة مغامرتك، فرادتها وتميزها طالما ملكت عليك عقلك. أكنت اعتقدتها دون ثمن؟ فانظر ثمنها الآن وادفعه، ألا تلمسه على جلدك، في أيامك في ساعاتك؟ ادفعه دون تردد وسر إلى الأمام. ألم تدفع حبك ثمنا لخيارك؟ ادفع أيضا فكل شيء يهون الآن بعد أن دفعت منى. فأى شيء في حياتك كان أغلى منها؟ أحببتها بجنون كما قلت لها، أمامك الآن جنون من نوع آخر، فادفع له وأقدم عليه".

دفع فاتورة منى بعد معاناة ولا زال يفكر بالثمن. فتح الباب، خرجت منه من حياته، هي خرجت وهو دخل.

" لكنها لم تخرج من قلبك وعقلك. شهور بعد خروجها من باب بيتك كنت تغفو عند انبلاج الفجر بعدما يكون التعب قد هلك، تفكيرا بها، بعد أن يكون الأرق قد هد أعصابك وأنت تتذكر كل لحظة قضيتها معها: إفطار الإثارة الصباحي، الجلوس في مقصف الجامعة متلاصقين، غداء شطائر الفلافل اليومي مع كؤوس الشاي، التمشي معا عاندين من الجامعة، لحظات النقاش، المزاح، الغناء، الخصام، لحظات المتعة والانتشاء، أيام الإضرابات عن الدراسة حيث تستغلن ذلك لمزيد من الرفقة والاختلاء والحب. كل ذلك بقي محفورا في رأسه شهورا وشهورا. لم تحمل لها ضعينة أو كراهية، بل حملت لها صورة، ذكرى جميلة. هل يمكن لمن احب أن يكره من احبه؟ ملاحظة واحدة، جارحة من رفيق لك مرة، استفزتك ورددت عليه بحدة".

إذ يتذكرها كان يتذكر ما هو جميل. كأنها لم تتركه وحيدا يصارع الجدران والأبواب لحظة كان بحاجة لها. لم يجدها بقربه لحظة كان يريد أن يدمر الجدران بيديه، لتأخذ رأسه لصدرها وتقول "اهدأ وتحمل". لم يجدها لحظة كانت تنهشه الرغبة بها. لقد غفر لها، ربما لأنه فهم لماذا فعلت ما فعلته، فنفهم وغفر!. ربما لأنه يحبها غفر. أن نحب يعني أن نغفر لمن نحب. قال لها "افهم ولا أتفهم" وبحقيقة الأمر تفهم فلم يحقد ولم يكره. كثيرا ما كان يشعر تجاهها بالشفقة. من يتعلق بخيارات تافهة يثير الشفقة. تجلس في البيت وتنتظر زوج المستقبل! فأي خيار هذا؟ أي بؤس وضعت نفسها فيه كامرأة؟ كان يستحضرها أمامه ويحدثها ويناقدتها. وضعت نفسها في رحمة القدر وكان هذا اشد ما يخنقه. تنتظر الزوج الذي سينكف بإحضاره والداها مثل الذي يشتري بطيخة فأما حمراء ناضجة أو "قرعة"، أما أن ينجح بالشراء أو لا. المسألة مسألة حظ لا أكثر. "أي بؤس وضعت نفسك فيه؟ تنتظرين رجلا كما تنتظرين نوع البطيخة عندما تغرزين السكين فيها؟". كان يشفق عليها ويشتم في خياله. الضعيف يستحق أن يرثى له. "كانت ضعيفة حتى الإنمحاء ككائنات". هكذا قيمها أحد الرفاق أمامه مره. لم يحتمل كنعان الوصف وغضب، ولكنه كان يدرك أنه صحيح، كثيرا ما صارحها: الضعف فقدان القدرة على التمرد، انه الانصياع والانتقياد، إسحاق الشخصية، كلها مترادفات لإنسان يرضى بأن لا يكون له مكان تحت الشمس. كانت هي هذا الإنسان.

والآن وأنت على أعتاب نهاية سنك السرية كاحتمال، مندسا في وكرك الحجري ومحاولات اقتلاع بابك جارية. هل تساءلت لماذا تابعت أخبارها لتسع سنين؟ هل استمر حبها في قلبك؟ قطعا لا. أترأه الحنين للمرأة وهي كانتها وما بعدها عدم ولحظة ألم؟ ربما. هل كان اهتمامك بها خلفته ذكرياتها الجميلة. ربما. كنت تتابع أخبارها كمن يفتح ملفا لمرشح للاعتقال، تتقصى أخبارها كلما أتحت لك فرصة، أنهت الدراسة وعملت ففرحت لها، تنتظر في البيت ذلك الذي سيأتي على "حصان ابيض" فأشفقت عليها، على بؤس خيارها وتفاهته، أمها تريد بطيختها

"صاحب مركز"، تتذكر انقيادها وانسحاق شخصيتها. خطبت "صاحب مركز"، قرأت ذلك في الجريدة فمزقتها وأشعلت سيجارتك، صديقك الوفية ورحبت تتمشي وأنت تغلي بين جدار وجدار. تزوجت فاكتمل عندك خيارها بالحياة التي تليق بمن يتعلق بالنقاها واليوس. ولم تملك سوى أن تدخن وتشم!! انتقلت لمدينة أخرى، فلاحقتها بتحرياتك، أجهزة رصدك، أنجبت طفلة، قلت حينها مازحا تخفي مرارتك: "كنا اتفقنا على مولود ذكر". فتحت ملفا أيضا لصاحب المركز ونبشت تاريخه علاقاته وعالمه، أخبارهما معا، لم تتخل عن اهتمامك بها. كانت صورتها المرأة الوحيدة في حياتك. مع صورتها عشت سنين وسنين، تلك هي الحياة السرية: صور من الذاكرة للمرأة الصديقة، للام، للرفيق، للرفيقة... ■

الفصل الثالث



الفصل الثالث

لا يتوقف عن العمل وكذلك بساطيرهم وقبضاتهم طرقاتاً على باب بيته السري. مخبأه المعتم لم يكن أكثر من ثمانين سنتماً عرضاً وحوالي المترين والنصف طولاً فيما ارتفاعه متران وثمانون سنتماً. أرضيته مليئة ببقايا الأسمنت المتيسر قطعاً صغيرة متبقية من الجدار الذي بناه، فيما الوكر يعبق برائحة الإسمنت.

دماغه

في وكره هذا كان يفكر وينتظر ويصيخ بسمعه للخارج. أشعل سيجارة ليقتل الانتظار الذي كان يرمي بثقله، انتظار المجهول. ربما مجهول حياته القادمة يكون الموت بين أيدي محققه تعذيباً أو في زنزانته مقتولاً. فكر بالموت مراراً في أحلام يقظته متمشياً بين جدار وباب، جدار وجدار، قارئاً حيوات ثوريين عظام، متقلباً في فراشه، في إحدى المرات فلسف موقفه الخاص من الموت وتوقف عن التفكير.

بعد الموت، الممتع والذي لا تشعر به على أية حال، أنك كإنسان لا ترهق نفسك بالحسابات حول ما وقع ولما وقع وكيف وقع. الماضي ينعدم وهذا جيد! حسنها مع نفسه بهذه الطريقة الغريبة وأوقف أي تفكير بالموت. أما قبل الموت، كان يحدث نفسه، فالناس تموت بسبب وبدون سبب فليبحث الإنسان لنفسه عن سبب جيد للموت. استغرق بالتأمل ومن ثم انفجر يضحك لوحده عندما قرأ خيراً مأساوياً في جريدة "القدس": "سكان قرية نائية في بنغلادش دب فيهم مرض الإسهال، نعم الإسهال! فقدت القرية ٢٦٠ من أبنائها في يوم واحد. تخيل مأساوية المشهد فضحك من شر البلية: أناس يتلوون من ألم أمعائهم وغانطهم السائل يسيل مهراقاً من مؤخراتهم ويتساقطون تباعاً. ربما سقطوا وهم يغوطون وربما قبل ذلك تخيل منظر أولئك البائسين والغانط السائل يتجمع تحت جنثهم الملقاة بين البيوت الطينية. أي "ميتة" تلك؟ هل تلك "ميتة" وتلك عندما الفقير شهيداً خلف متراسه يصوب بندقيته لعدوه الطبعي "ميتة"؟ أباإسهال تنقضي حياة هذا الكائن العظيم الذي يستعد لغزو المريخ والاستيطان على القمر والذي بات يسير المجتمعات بالكيميوتر والرموت؟ الإنسان عليه أن يتمسك عن سابق قناعة بخيار الموت بطريقة مشرفة تليق به كإنسان. ميتة إنسانية تستمد أن يذكرها الناس بعده إعجاباً لا أن يمروا عليها مر الكرام أو يتذكروها مازحين هازئين شأنهم عندما يتحدثون عن يموت غرقاً في حفرة امتصاصية لتجميع الغائط أو عندما يتندرون على البذي لفرط انفعاله أصيب بالذبحة الصدرية ومضى نحيبه ليلة "دخلته" عندما رأى عروسه عارية! فخرس دنياه كرجل وخرس نصف دينه كمؤمن! فلا عاش دنياه ولا كسب آخرته.

راودته تلك الأفكار كثيراً في حياته. الآن تعاوده إذ يحس الموت يقترب منه مع صوت الطرقات الوحشية. مصالحته مع ذاته فيما يتعلق بالموت جعلته لاحقاً ينظر لاحتمالية "وقوعه" ببرود إلى حد ما. ماذا أتى بهم؟ هل لاحظوا حركة ما؟ هل أثار البيت الشبهة واللغط فراقبوه؟ هل متعاون معهم لمحمة فعرفه ورفع تقريره الدسم؟.

دهمته تلك الأسئلة فجأة. حتى تلك اللحظة لم يخطر بذهنه أي سؤال. لم يفكر ولو للحظة بسبب قدومهم للبيت. كان الموضوع لا يعنيه، كان الطرقات تتوالى لا على باب بيته وكره هو، كان غيره من ستتغير مجرى حياته تماماً أن وجدوه قابلاً في وكره. لكنه يدرك أن السؤال يجب أن لا ينظر فيه الآن. نحى الأسئلة جانباً بسرعة من تفكيره وخاطب نفسه:

- ليس الآن أو أن تلك الأسئلة. الآن شيء أهم واحد يجب أن يمتلك التفكير والإرادة وكل الحواس: الصمود في المعركة أن دارت بيني وبينهم وتحويل انتصارهم باعتقالي لخسارة لهم بصمودي وحماية الحزب والرفاق والأسرار. وضغط على أوراقي بين يديه جيداً.

هيء نفسك يا كنعان لمرحلة جديدة تتطلب تحد جديد. السهام الآن يعرفوا- كما عرفوا مراراً- ما معنى التورط مع حزبنا وثواره في أقبية التحقيق.

ويستمر الطرق شديداً. وهو قابع في وكره الحجري المعتم، يقبض على أوراقي بين يديه، يصغي السمع ويفكر. أشعل سيجارة ثانية. يحاولون تحطيم الباب فقد كان يسمع صوت هراوات حديدية ثقيلة تهوى على الباب فتحدث دويماً هائلاً يتردد صداه أكثر فاكثراً. الباب يستعصي عليهم، سيبقى أمامهم الباب الداخلي بعد أن يخلعوا هذا وهو حديدي أيضاً. شعر بالفرح إذ يعانون، فطالما أتوا لاعتقاله فعليهم أن يدفعوا الثمن وقد بدأوا يدفعونه معاناة ومكابدة في فتح أبواب البيت. دائماً كان يتساعل عن ذلك السلوك الشعبي: فتح الأبواب للمحتلين. ليفجروها، ليقنلعوها لكن لا يجوز أن نفتحها بأنفسنا. أنفتح الباب لمن جاء يسرق حريتنا ويسوقنا لأقبية التعذيب؟ أنفتح لمن جاء يأخذ الابن من حضن أمه، الأب من أطفاله والمرأة من وليدها؟ إن ذلك كما اعتقد دائماً- كان بالنسبة له نعمة من "كرم عربي" تعكس الرهبة والخوف ينبغي التخلي عنها وزرع قيم التمرد والتحدي.

تلك كانت أولى خطواته على طريق التحدي الطويل والخطوة الثانية والثالثة سبق وقررها وكل واحدة بموعدها. هم أقوياء بجنودهم، بأسلحتهم، بكل سجونهم، هراواتهم وعتلاتهم، باختصاصهم في الاستخبارات والتحقيق.... بكل ما

يقف الآن هنالك على عتبة منزله، بكل ما يستنفرونه ويوظفونه في التحقيق معه أن اقتنصوه. دولة علمية وعصرية تستثمر كل ذلك في ملاحقة وتصفية النشاط الثوري، في التحقيق مع المعتقل ويعيدون النظر باستمرار في أساليبهم وطرقهم، يعدلون، يطورونها ويغيرونها جذريا إن تطلب الأمر بغية نجاعة أفضل في ملاحقة المناضلين واعتصارهم. كل ذلك قوة لهم ولا شك.

كنعان يدرك ذلك من تجربته ومن تجارب العديد من المناضلين، من تحليل تجربة فصائل المقاومة، لكنه كان يدرك فوق ذلك وقبله، أن المناضل قوي بنفسه، بقناعاته، بإرادته، بثقته في نضاله، بإيمانه بعدالة قضية شعبه وثقته بأن شعبه وحزبه ورفاقه يتضامنون معه وهو في الخندق المتقدم. كل ذلك يشكل مقدمات تحديه وصموده، فأيهما أفضل بالتحليل النهائي؟ القوى بالعوامل المساعدة أم القوى بذاته؟ كان يعلم علم اليقين أن حزبه سيكون معه هناك أن اعتقل، سيكون حيث يكون في ساحة الشبح، في غرفة التحقيق، في الزنازة النتنة سيكون هناك في لحظات الحاجة له. يدرك الأهمية الحاسمة لذلك في تعزيز عوامل القوة والتحدي ولكنه يدرك أن عليه أن يقاوم وحده نيابة عن الجميع، عن رفاقه وحزبه وشعبه، منفردا ووحيدا إلا من إرادته وتضامن رفاقه مثل ذلك الجندي الذي طلب إليه أن يدافع عن خندقه المتقدم وحيدا.

- التحدي والإرادة هما كلمة السر. لا شيء آخر.

كرر بينه وبين نفسه تلك النتيجة المقررة لديه منذ سنين، كررها مع ذاته، قابضا على أوراقه يصغي السمع، يفكر ويدخن. سبق وقررها وهو يتمشى بين جدار وجدار، نافذة وجدار، بين باب وجدار وهو يجلس على طاولته وأمام أوراقه، وهو يدخن متأملا جالسا على سريره في عتمة الليل.

أشعل الولاة ونظر لساعته التي لم تفارقه منذ خمسة عشر عاما: الواحدة وعشرون دقيقة بعد منتصف الليل. أكثر من ٣٠ دقيقة على شروعهم بطقسهم البدائي، على مصارعهم الباب بهراواتهم وعتلاتهم الحديدية. ما أن تطلع للساعة حتى تنتهي لمسامعه طرقات من نوع آخر. أصواتها أخف قليلا وأبعد قليلا. حبس أنفاسه فاغرا فاهه ليسمع جيدا. شتم شتيمة مقذعة والأسى يلفه وانفعاليته تزداد. توقع أين موقع الطرقات الجديدة فأحس بقلبه ينخلع من مكانه. أذناه لا تخونانه، فهما بحكم الدربه والمران في سنوات حياته السرية غدتا كالرادار. تأكد مما يسمع فستتم من مخزونه الذي لا ينضب مرة أخرى.

- ضربتان على الرأس توجع أكثر.

فكر بصوت مسموع وتهيدة طويلة متحسرة تسبق تفكيره.

- رفيق. رفيق كنعان.

جاءه صوت هشام من خارج الوكر بعد أن فتح باب الخزانة همسا، لكن مسموعا. كانت الانفعالية بادية في نبرته.

- نعم. ماذا هناك؟

- اعتقد انهم يطوقون البيت الآخر ويحاولون خلع بابه. الأمور غير مطمئنة!

تأكد من ذلك فأذناه لا تخونانه. هشام يدرك ما معنى اقتحام البيت الآخر لذلك يسارع لتبليغه.

- هشام. ما تقديرك؟ كم سيأخذهم من وقت حتى يخلعوا البابين؟

- بالحد الأدنى ساعة. سأذهب لأرقب حركتهم. كيف أحوال مغارتك؟ بالمناسبة حول البيت تكنة عسكرية. كأنهم أعلنوا الحرب!

هذا هو هشام في احلك اللحظات يجد متسعا للمزاح وإضفاء طابع من المرح على الأحداث. حدث كنعان نفسه.

- نحن نستحق إعلان الحرب علينا يا رفيق، فلسنا بقلائل، مغارتي ارجح أن تصمد في الامتحان وان لا يذهب تعبني ببنائها سدا. تأكد من وضعية الرف إياه، وإغلاق الخزانة جيدا قبل أن تذهب.

تكنة عسكرية حول البيت! هذا يعني الكثير بالنسبة له، عن سبب قدومهم. ليست المسألة قطعا ملاحقة ضارب جبارة أو مشعل إطارات سيارات بل وحتى ليست ملاحقة لملقي زجاجات حارقة. دائما كانت أحداث كهذه تحدث في أحياء سكانها وبالنظر لطبيعة تحرك الجنود وتمركز شاحناتهم كان يمتلك بالتجربة القدرة على تقدير حجم الحدث.

ما أن شارف عام ١٩٨٣ على الانتهاء حتى كانت نتيجة الصراع بين الأضداد تحسم تدريجيا، ومع توالي الشهور لصالح الـ "نحن"، العقل، متطلبات العمل والنضال. جسمه نحف كثيرا في سنته الأولى من تجربته. دماغه المرهق، توتره الدائم لشهور وشهور، أرقه المستمر والمدخنة المنطلقة من فمه بفعل ثلاث علب من السجائر يوميا، كل ذلك أفقده شهية الأكل. ليس أكثر غرابة ولا إنسانية من تناول الإنسان لطعامه وحيدا!! لا يذكر انه في حياته العادية فعل ذلك أكثر من مرات معدودة. الآن ومنذ شهور وشهور وهو يعيش تلك الغرابة. ما أن اجتمعت الوحدة القاتلة مع التوتر والإرهاق، حتى تحول الأكل إلى عادة بيولوجية يومية لا أكثر، فقط لحفظ الحياة، دون رغبة حقيقية للقيام بها، دون متعة القيام بها.

طلب من رفاقه أن يأتوه بحبوب منومة ليتغلب على أرقه، رفضوا أن يجيبوه لطلبه.

الأقائيم الثلاثة - وسام الرفيدي .

- دعك من هذا فهي مضرة لصحتك. اهدأ وستنام. اقرأ قبل النوم فترهق عينيك وتنام.

كان إذا طلب النوم، تدلل هذا كامرأة مغناج فتحولت محاولاته لجولات صراع مع ما يطحن دماغه، مع "أنا" الذات المهتاجة، مع احتياجاتها ورغباتها. ينقلب يمينا فيتذكر أمه ووحدها بعدما تركها، ارتاح لمراسلتها قبل سفرها لكن تبكيت الضمير يورقه، فيتعب عقله ويورقه وجدانه. في أكثر لحظاتها احتياجا له، اضطره النضال لأن يتركها. ينقلب يسارا فتحضره منى وذكرياتها، يتخيلها، يتمناها ويطلبها فلا يجد سوى صور وذكريات بدأت مع الشهور تبهت ويضعف وهجها. يحاول رسم صورة واقية لها في خياله، وجهها، عينيها، شعرها، فمها، شفثيها، قوامها، طريقة حديثها، ابتسامتها، مشيتها ... فيجد بعضا من ملامح الصورة قد بدأ ينمحي، يجلس على السرير مدخنا ويتمشى بين جدار وآخر فيصده الجدار بصمته. يقف عند النافذة مستغلا غياب إم عيسى عن بيتها ليرقب المارة، يتأمل أشجار الحديقة فيسرح تأمله في عالمه خارج البيت، ذلك العالم الذي أدار ظهره له. يقضي نهاره متوترا ومزاجه قلبيا وليله أرقا حتى الصباح، ما بين التقلب على السرير أو الجلوس عليه أو متمشيا في عتمة الليل حتى يهدده الإرهاق فينام متعبا. ومن خلال كل ذلك ومعه تبدأ وقائع جديدة تفرض نفسها. يا للزمن وما يفعله؟ انه لقادر على محو كل نتوءات وتشققات النفس الإنسانية التي سببتها الصعوبات وأوجدتها كأوراق طفيلية. انه الجراح الأمهر عبر التاريخ القادر على رتق أي جرح مهما كان عميقا.

الحزب يمتص نتائج الهجمة فتعود الحياة لتدب في أوصال خلاياه، تستقر أوضاعها، يعاد ترتيب الاتصالات وضخ الدماء في شرايين العمل. يبدأ كنعان بالاندراج في مهامه. يساهم بالقرار، يتلقى توجيهات، يخاطب، يحاور، يجادل، يكتب، يقترح وينتقل من هناك لهنالك إما لأعتبارات العمل أو لأعتبارات أمنه وسرية حياته واجتماعاته. يبدأ العمل باستهلاك جزءا من ساعات يومه فيشعر بأهمية مكوثه بين الجدران بعيدا عن عيونهم وأيديهم، إنتاجيته تزداد فيشعر بعنفوان تجربته فتكتسب مواقفه وتصورات مملسا آخر تشكله ثورية الواقع والتجربة. بات مع كل يوم جديد يشعر بقيمة الحزبية والثورية فبدأت التجربة تكتسب معناها الذي غاب مدى شهور وشهور ولكنها من جهة أخرى تأتيه بما ينبئه أن الاستقرار اليومي في هكذا حياة غير مضمون- وان اللاإستقرار هو قانون التخفي.

ذات يوم في بداية عام ١٩٨٤ جاءه رفيقه مسرعا وعلى وجهه إمارات الجدية.

- يجب أن أخرجك من هنا. هناك من أشك بأنه يلاحقني. دققت عندما قدمت إليك لكن الاحتياط ضروري.

حدثه بالتفصيل عما حمله على الشك. وجه غريب على المدينة يستمر في التحرك في شوارع المدينة وتحديدا في شوارع محددة هي المحيطة بميدان المغتربين ويظل يتطلع ويرقب. سار خلف رفيقه هذه الليلة فيما الأخير تعمد أن يقوده خلفه بعيدا عن خط سيره التقليدي وهو يتوجه للوكر، ثم موه عليه وافلت منه.

حمل أغراضه وخرج مع رفيقه صعدا نحو تخوم مخيم قدوره. كان بعض الطلبة الأصدقاء للحزب يقطنون في شقة صغيرة هناك. طلب الحزب إليهم أن يخلوا الشقة ليومين فوافقوا، لم يكن الحزب حينها يملك وفرة من البيوت السرية. خرجا وسار رفيقه أمامه تحسبا لطارئ كيما يمكنه تحذيره.

عند التاسعة ليلا وصلا للشقة الصغيرة التي تقع في الطبقة الثانية من منزل مكون من ثلاث طبقات. أوصله رفيقه ورحل. دخل كنعان الشقة، كل ما فيها يعلن أن ساكنيها طلبة، فرش قليل ويأس، الفوضى ضاربة أطنايها، الأوساخ بدت طبيعية كما لو أنها جزء من البيت! كان المنزل محشورا وسط كم من بيوت المخيم الصفائحية، فلا تكاد تقف عند نافذة الشقة حتى تجد نفسك وسط حشد شعبي فاعل وصاخب: تلك تنتشر غسيلها وتوزع ثرائها على جيرانها، وأولئك يتحلقون حول كؤوس الشاي يتصايحون متناقشين في قضايا خاصة، أطفال طوال النهار يتقافزون بين البيوت ومن على أسطحها، والأزقة ملأى بالمارة. كان بيت كنعان من تلك البيوت التي لا يمكنها أن تصون خصوصية ساكنيها، شأن بيوت المخيمات كلها.

- كم سامكث هنا؟ انه بيت نموذجي في عدم صلاحيته للتخفي. سينفضح أمري خلال أسبوع هنا إلا إذا جلست طوال النهار لا أتحرك.

فكر كنعان وهو ينهض من النوم في يومه الأول ويتطلع من نوافذ وكزه متفحصا أين يقيم. ولكن أقامته فيه لم تتم.

عند الساعة مساءا كان يجلس والغرفة مضاءة ويستمتع لإغنية لام كلثوم في المذياع. مقلبا الكتب العديدة الموجودة في البيت. سرقه انهماكه في تفحص الكتب عن الانتباه لصوت المذياع العالي. صوت الجرس الكهربائي يرن. اغلق مفتاح المذياع وكمن مكانه لا يتزحزح.

- افتحوا أنا أم محمود. ايمن افتح. ايمن.

كان واضحا انه صوت صاحبة البيت. لم يفتح. عادت تكرر صيحتها المنبئة بتصرف ار عن من جانبها:

- لماذا لا تفتحوا، أنا أم محمود.

اتضح لكنعان أنها لن تتزحزح فقد سمعت صوت المذياع، وأن لم يفتح تثار الريبة في نفسها.

- الله وحده يعلم ماذا ستفعل. ستجمع سكان المخيم بزعيها. قرر أن يفتح، صاح:
- نعم، نعم. أنا قادم. فتح شراعة الباب الرئيسي.
- مساء الخير. لماذا لا تفتح؟ كانت امرأة شكسة!
- مساء النور، إلا تصبرين كنت في الحمام.

حاول أن يروع اندفاعها بصوته الحازم. كانت تتطلع إليه متفحصة. مرت ثوان وهي تتفحصه ثم ألقت بقنيلتها:

- ألسنت أنت ابن أم ... أنت تشبهها. أنت الذي يبحثون عنه؟
- فجرت نباقتها في وجهه فأوقعته في ارتباك لحظي، استدركه سريعا:
- من هذه أم؟ ماذا تقولين يا أم محمود؟ يخلق من الشبه أربعين، أنا من القدس جئت عند ايمن لندرس معا.
- من القدس؟ سألت باستنكار يعكس عدم قناعتها وتابعت:

الوجه هو هو. طيب. هذه فاتورة الماء أعطاها لأيمن. ذهبت واغلق الشراعة. أخذ يتمشى مضطربا. عرفت الشبه بأمه لذا سريعا ينبغي الرحيل. عجائز البيرة يعرف طباعهن. تأخذ الواحدة منهن بملاحقة ما تريد معرفته بإصرار ذبابه وما هي أيام وحتى ساعات فتكون الألسن تلهج مثلذذة بالقليل والقال. لقد طورت التجربة التوجيه فاصبح "لا تزر أحدا، لا تستقبل أحدا، لا تفتح شراعة الباب لعجوز بيراوية".

بعد ساعتين كان رفيقه يسير أمامه وهو يتبعه باتجاه أحد الأحياء الواقعة شمالي البيرة، قاصدين بيتا سريا للحزب تملكه امرأة تدعى سكينه. عندما اقتربا من البيت ودخل كنعان شارعا فرعا يؤدي له، إذ به وجها لوجه أمام عائلة صديقة لعائلته، رجل وزوجته ومعهما ابنتهما التي تدرس أيضا في جامعة بيرزيت!! ما كان بينهما سوى أمتار. قرر كنعان أن يوصل رسالته لهما بطريقته التي كان قرر لها لطوارئ كهذه: حالما اقترب من العائلة أدار وجهه متعمدا لجهة البيت الواقع بحذاء الشارع. الرسالة واضحة: لا أستطيع التحدث معكم وعليه لا تأتوا على ذكر اسمي. تجاوزهما وهو يفكر برفيقه كشاف طريقه الذي يفترض فيه أن يحذره في هكذا حالات!! رفيقه كان سار في الشارع الآخر غير الذي ساره كنعان، فتأخر وإذا بكنعان يصبح كشاف الطريق لرفيقه!

- لينبه الرفاق العائلة التي صادفتني بالنكتة خاصة المرأة. هي ذكية وتفهم خطورة الموقف ولكن قد يقلت منها كلمة هنا أو هناك.

أبلغ كنعان رفيقه وهو يودعه بعدما وصلا لبيت سكينه. بعد يومين جاءه من الحزب "أن الوجه الغريب على المدينة" لا شبهاً حوله، بالإمكان العودة لبيت أم

عيسى. عاد أدراجه محمداً مع كشافه هذه المرة، طريق السير بالضبط شارعا
شارعا!

ومع اندراجه في العمل بدأت حياة كنعان. مطلع عام ١٩٨٤ تنساب وفق
نسق جديد يبعث على الاستقرار النفسي أكثر فاكثراً. انتقل لبيت سري جديد مشمس
وصاحبه لا يحشر أنفه بشؤون المستأجرين عنده، فأراح هذا التطور تدريجياً ٢٤
ساعة بين الجدران.

ينهض صباحاً عند التاسعة، يفطر ويبدأ بالعمل حتى الظهر. كان العمل
الحزبي قد بدأ يتشعب ويطلب المزيد من الطاقة، منظمات تترسخ أكثر فاكثراً
وقاعدة جماهيرية تتسع فيما ملامح المنظمات الديمقراطية تتضح يوماً بعد يوم
والعمل يحتاج لأفلام تكتب وتكتب فأصدر الحزب جريدة "التقدم" الطلابية
الشهرية. عند الظهر يسرع بأعداد طعام الغذاء، استهلك وقتاً مرحاً ممزوجاً بالقهر
وهو يحاول أن يتقن فنون الطهي النسائية: أرطال من الأرز فقدها حتى تمكن من
تناول أرزاً مطهياً بشكل جيد، لا كتل معجنة لا شكل لها! كميات من الملوخية فقدها
وهي تثور كالبركان فتندلق من القدر حتى اكتشف أن قدر الملوخية الموضوع على
النار لا يغطي!! ينام بعد الغذاء لينهض من جديد فيعود للقراءة والكتابة. بين العمل
والطهي وفي لحظات الملل التي تدهمه يستمع للمذيع أو يغني مع الشيخ إمام:

هو إحنا كده وحنبقى كده صاحيين فاهمين
على مين مع مين

دايماً صاحيين مش من دا ودا

هو إحنا كده وحنبقى كده

أو يقف عند النافذة يراقب المارة ويتأملهم. لا يمكن لمن يحيا الحياة السرية أن لا
يعتاد التلصص من نافذة بيته! تلك عادة مستحبة وإن كانت مستحبة لمن يحيا حياة
عادية. إضافة لفوائدها الاجتماعية بإحساسه أنه جزء من الحياة، فلها فوائد أمنية
جمة. فكم يمكن الاستفادة من ملاحظة جار أو سماع ثرثرة نسائية أو للتدقيق بعابر
سبيل أو التحرش بطفل أو استجوابه.

ليلاً كان التلفاز يقدم خدماته الجليلة، يسلي ويربطه بالتطورات والأحداث.
ومتابعة مسلسل أو فيلم سينمائي يريح الأعصاب المتعبة ويخلق المتعة ناهيك عن
دوره في تنمية الذائقة الفنية والجمالية خاصة أن كان عملاً فنياً يملك الخاصية الفنية
والجمالية!

وما بين الاندراج بمهام النضال والتي كانت تتوسع وتزداد مع توسع
مجالات العمل الحزبي وازدياد أعباء النضال وانسياب حياته اليومية وتضامن

الإقنيم الثلاثة - وسام الرفيدي ٥٤

ورعاية رفاقه، بدأت تجري حياته وفق تقاليدنا الجديدة لتطبع حياته بطابعها. من قال أن الطبع يغلب التطبع؟ لقد اكتشف كنعان بتجربته سخافة هذا المثل الدارج ومعاكسته لمنطق التطور والتغير، فالإنسان يمكنه بالجد والتحمل أن يتطبع بما يعاكس طبيعه، يمكنه أن يستجيب، أن يتسلح بالإرادة للمتغيرات الجديدة في حياته، فيتحول التطبع هذا إلى طبع جديد فيما الطبع القديم لا يسهل العودة إليه. انه منطق التغيير الدائم وهو الثابت الوحيد والمطلق والإنسان ليس بمعزل عن هذا المنطق.

كان يطوي الشهر تلو الشهر وفق منطق حياته الجديدة ولكن الذات لا تتخمد بعد نهائيا!! وهل يتوقع لها ذلك؟ هي إنسانيتها فكيف تنزاح إنسانية الإنسان فيه؟ لكنها الآن حين تضغط مطالبة باحتياجاتها ورغباتها لم تعد تتمترس خلف متراس مسلحة ببندقية تطلق رصاصاتها على العقل، كانت تنبزم وتتشكى فيسمع لها، يحاورها بهدوء فإن لم تتصاح أخرجها بفضاظة. يتذكر منى فيشعر بالمرارة والخسارة فيتدخل العقل:

"طيبة ومحبة وودودة نعم، أحببتها بجنون نعم، لكنها ضعيفة وضعيفة جدا. مدرستها، بيتها، سحقا ليس لديها القدرة على التمرد، على بناء شخصية مستقلة، شخصيتها طيبة ومنقادة لا تحتمل الهزات والصعوبات والتمرد والجنون. كيف يمكن لمناضل مثلك يحيا التمرد أن يرتبط بمن يرهبه ويخشاه ولا يقوى عليه؟ نضالك لا يسمح بالارتباط بمن ستتحول لعبي عليك وذلك متعب لها أيضا، سيسحقها ويدخلها في تجربة لا تقوى على خوضها. ما جرى طبيعيا فمن لا مكان للتمرد في حياته يصعب عليه أن يرتبط بتجربة الحياة السرية".

يشعر بالأسف لأنه لم يستطع إكمال تحصيله العلمي هو الشغوف بالمعرفة. "يد المناضل في أحيان كثيرة لا تستطيع حمل بطيختين. يجب وضع واحدة جانبا. ظروف النضال تطلبت وضع بطيخة الدراسة جانبا. أنت جزء من حركة ثورية فقيمتك في الحياة هي بقدر ما تقدم لتلك الحركة وهذه التجربة. تستطيع تغذية شغفك بالمعرفة في الحقل الذي تشاء، هنا بين الجدران دون الحاجة للجامعة".

منذ الصباح الباكر في أحد أيام صيف سنة ٨٤ كان يجوس بيته كمنمة في مملكتها. رتب الغرفة التي يستخدمها في البيت، نفض الغبار عن كراسيه وتلفازه وسريره وطاولته، لمع حوض غسل الأواني وكذلك الطباخ. فتح الثلجة ونظر لمحتوياتها: كانت عامرة أكثر من طاقة استهلاكه هو الذي يعيش وحيدا. لحوم بأنواعها، خضار وفواكه، أجبان وألبان وعصائر وسلع ما فكر يوما أن يشتريها!! كان يمكنه أن يعيش شهرا بأكمله على هذا التموين. ما اعتاد سابقا أن يشتري تموينه لأكثر من أسبوع، ما اعتاد هذه الحمى من النظافة! ذلك اليوم لم يكن مثل أي يوم

الأقائيم الثلاثة - وسام الرفيدي ٥٥

منذ عرف طريقه للأوكار قبل سنة ونصف، ذلك اليوم ينتظر ضيفاً ما احتفى ولا سيحتفى مستقبلاً بمثله.

لذلك نهض مبكراً من نوم أرق متقلب متعجلاً انبلاج الصباح، بعد يوم شاق قضاه في تنظيف أرضية البيت بالماء والصابون حتى أنهكه العمل. حتى بقية الغرف والشرفة الزجاجية الخالية من الأثاث لعدم استخدامها، نظفها دون أن ينس كذلك زجاج النوافذ. أنهى عمله عند الساعة الثامنة والنصف صباحاً، نظر لساعته وكان بقي نصف ساعة على وصول ضيفه. حلق ذقنه واستحم ولبس أفضل ما عنده ووقف عند النافذة يتطلع للشارع المؤدي لوكره على رأس التلة وحيات السبحة تططق بين أصابعه بسرعة "كيف سيكون اللقاء؟ أه كم اشتقت لك!". فكر وشعور بالشوق تجاه ضيفه يمتزج بالشفقة عليه وبالخجل من القصور نحوه ومن الفرحة لقرب معانفته. كان ينتظر أمه التي عادت من السفر. الحزب ابلغه بعودتها بعد أسبوعين من وصولها، وأتبع التبليغ بقراره بالتقائهما فقاد يطير من الفرحة، إذ في أمس لحظات الحاجة لها سيرها، ذاته تطلبها وتطلبها والآن ستتحقق رغبتها فيشاع الاستقرار في نفسه. ترك الحزب له ولرفاقه ترتيب الأمر الذي تم بصورة محسوبة وسريه: بعث لها برسالة يحملها رفيق لا تعرفه ومن خطه الذي تعرفه جيداً ومن ذكر بعض ما يعرفه هو وهي فقط، كان يمكنها الثقة أن الرسالة وحاملها ليسا جزءاً من الأعيب المخابرات. طلب منها أن تسير في شارع فرعي يفصل مدرسة "الفرندز" عن ملعبها بين الثامنة وخمس وأربعون دقيقة والتاسعة صباحاً، في هذه الفترة يلتقطها رفيق بسيارته التي تعرف أوصافها من الرسالة. على رفيقه أن يدور ويدور في شوارع عدة قبل أن يأتي بها للوكر، مثلما عليه أن يراقب الشارع الذي تسير فيه قبل أن يركبها السيارة.

كان وهو يصيغ رسالته لها يشعر بالإشفاق عليها إذ يدخلها دهاليز الترتيبات السرية المضبوطة بمواعيد دقيقة وأوصاف وإجراءات محددة. ذات الشعور الذي أحس به قبل سنة عندما كتب رسالته لها. كانت تدوس عتية الستين من عمرها وقد بدأت تلج هذا العالم الغريب كلياً عليها، لكنه كان يثق بذكائها والتزامها بما يطلبه منها، حرصاً عليه من الخطر. ليست شأن النساء اللواتي لا يعرفن من دنياهن سوى الزوج والأطفال وثرثرات العجائز، تملك قسطاً بسيطاً من التعليم، تكتب وتقرأ جيداً، سافرت أكثر من مره فاكتسبت بعضاً من تجربة الحياة، وتدرك بحكم أجوانها العائلية منذ سنين ما معنى أن ابنها "متورط" في عمل سري على حد تعبيرها الغاضب. تملك الحد الضروري من المعرفة التي تجعلها تحسب حساب خطوتها كي لا تؤثر على حياة ابنها، لذلك كان يثق بأنها ستلتزم تماماً ليس فقط بتعليمات الاتصال بها والتقائهما بل وبالعلاقة بها منذ الآن وصاعداً. خبرت طريقها للسجون كثيراً وواجهت ضباط المخابرات أكثر من مره، رأت يدس أشياءه

الأقائيم الثلاثة - وسام الرفيدي ٥٦

المنوعة في مخابنه داخل وخارج البيت وداخل ملابسه عندما يخرج. كانت منذ سنين قد بدأت تلامس عالمه السري، تتذمر، وترجر وتغضب وبذات الوقت تعطف وترق وتحنو. وعندما يلوح ما تعتقده خطرا حقيقيا كان أم متوهما تفعل ما يجنبه ذلك. ما رضيت يوما أن يعرف صغيرها طريق السياسة ولكنها أمام إصراره سلمت أمرها لربها مع دعاء له بان يرضى عنه.

عند التاسعة وأربع دقائق بدأت السيارة المنتظرة تصعد التلة نحو وكره. خفقات قلبه تتسارع وارتعاشه خفيفة بدأت تسري في أطرافه، وقف عند الباب ينتظر أن يفتح رقيقه، صوت المفتاح يدور في القفل، الباب يفتح فتتلققه بين ذراعيها بلهفة أم لاقت ولدها الضائع، أمطرته قبلا على خديه، احتضن رأسها بقوه بين ذراعيه، أخذه نحو صدره. كان يتحسس ارتعاشه شفتيها وهي تقبله وتحبس دموعها بصعوبة، دائما كانت تحبس دموعها أمامه لتقويه. ما بكت يوما في المواقف الصعبة: وهي تزوره في الأسر، عندما عاد للبيت فقبلته تواسيه ووالده مسجى في تابوته، يوم ودعها قبل عام ونصف وخرج، وهذه المرة ما أخلفت وعداها مع رباطة جأشها، تبكي منفردة حين يتوسد رأسها مخدتها لتنام ولكنها أمامه لا تفعل.

- ادخلا بسرعة كي لا يراكما صاحب البيت. ساذهب لأعود في الرابعة. نيهما رقيقه إذ كانا يفتان والباب مفتوحا على مصراعيه. دخلا ورحل هو.
- أقعدني، أقعدني. قدمي لا تحملاني، الله يلعن أبو يومك. كيف أنت؟
قالت بحزن وألم وارتعاشتها بادية لاضطرابها، ولعنتها حبها الجارف المغلف بغضب شكلي.
- اهدني أولا، سأحضر لك عصير البرتقال لتهدأ أعصابك.
- دعني من العصير، احكي كيف أنت؟ كيف تعيش؟ ماذا تأكل؟ ماذا تشرب؟ إلى متى هذه الحياة؟

أمطرته بوابل من الأسئلة التي تحتاج منه لحديث ساعات ليصيب عنها! كانت كثيرة التلفت تكتشف ما حولها، مضطربة، لم يملك إلا أن يبتسم فرحا بها أو يتلك "الإستجابات" اللوححة التي تتقنها. إنها أمه التي اشتاق للإستجاباتها وإلحاحها وزجرياتها! وللتخفيف عنها قال:

- لو أجبت عن كل أسئلتك هذه دفعة واحدة لما بقي شيء نتحدث عنه. مازحها كعادته، كان يهوي ممازحتها خاصة عندما تتناول أكثر المسائل جدية في حياته. يفعل ذلك أما ليشعرها أن لا جواب لأسئلتها، أي عوضا عن الجواب الزاجر "لا تسالي" شأنه معها عندما كانت تسأله عن وجهته عندما يخرج ليلا لأحد الاجتماعات السرية، فلم يكن ليقل سوى "ذاهب لأتمشى باتجاه حيفا وأعود!" تسكت! أو ليقلل من خطورة ما تسأله عنه فيبعث الطمأنينة في نفسها.

كرر هذا طوال سنه الماضيه منذ عرفت قدمه طريق السياسة وتورط حسب تعبيرها، حتى أدركت ألامه وما كفت عن أسئلتها!!
- الحكى لا ينتهى. احكى بسرعه!

بدأ يحكى وهي تقاطعه. ما أن يبدأ بجمله حتى تقذفه بسؤال أو تفتح موضوعا آخر. كان يجلس بقربها على السرير ولم تترك شاردة أو وارده إلا أتت عليها، حتى غسل ملبسه الداخليه أدلت حول الطريقه الأمثل لتظيفها. تلذذ برائحة الأم المميزه، لكم اشتاق أن يشتم رائحتها ويقبل تجاعيد وجنتيها ويلقي برأسه المثلث على صدرها فتداعب شعره الخشن بأصابعها وتقول جملتها المتكرره دائما "شعرك مثل شعر الخيل". تحققت الآن رغباته فنى في يومه ذلك اختفاءه، نسي المتطلبات، القواعد، التحوطات والإجراءات نقلته إلى عالمها خارج السريه وبيوتها، إلى بيتها وعالمها هي المليه بالاستجوابات اللجوجه والحنان المتدفق والتفاصيل الصغيره التي تتفنن الأم تناولها.

- والآن خلينا في الجد (تبهت جيدا وتابع) أن قلت لك أن حياتي رائعه فساكذب، لكنني سعيد لأنني أعيش حسب قناعاتي ومبادئي ولا أريد منك سوى شيء واحد: أن تسنديني بأن تكرري ما قلته ليلة مدامه البيت "رح يا بني الله يرضى عليك"! فهي عندي تساوي الدنيا. إلا تريدني رجلا تفخرين به وبأنك أنجبته؟ فافخري الآن. إلا تريدني سعيدا؟ أنا سعيد. حتى متى أبقى هكذا لا اعرف ولا أفكر فيه.

- سعيد وأنت بين أربعة جدران؟ سألت مستنكرة.
- السعادة أن يقتنع الواحد بنفسه وأنا مقتنع بنفسي. أنا سعيد وأنا أناضل وهذا يكفيني.

كانت تسمع له وتهز رأسها ونظرة استسلام في عينيها.

- ومنى؟ خسرت هذه البنت الطيبه. فسخت خطبتها. دريت؟

نكأت جرحاً ما اندمل واستحضرت صورة ما انمحت جزئياتها بعد تماما.

- ما خسرت. هي التي خسرت.

وكان بينه وبين نفسه يعلم علم اليقين حجم خسارته. منذ سنه ونصف وهو

يعلم هذا يوما بيوم.

- بنت طيبه. خساره عليها. عادت تقول وكأنها تحدث نفسها بلهجة تعبر عن اسفها.

- اعرف إنها طيبه واعرف أنها أيضا ضعيفه. تحب في زمان السلم وتهرب في

زمان الحرب. نحن في حرب. وطن محتل وتريدني أن أتصرف وكأنه لا

يعنيني.

طافت البيت غرفة غرفة. تعرفت على بيت ولدها.

- ها . عندك بيت وأنا أزورك فيه .
استشعرت التغيير في حياته وعلاقتها معا . لقد كبر آخر عقودها ! دخلت
المطبخ وارتاحت لوجود طبّاخ وفرن كهربائي . فتحت الثلاجة فانفجرت أساريها
عندما رأت ما بداخلها . رفعت حواجبها تعجبا :
- والله ثلاجتك مليئة؟ هل تطبخ جيدا؟ تعال انظر ماذا أحضرت لك، أين الكيس؟ هل
نسيناه في السيارة؟
سألت سؤالها الأخير ولطمت على خدها !
- هو عند الباب تركته هناك . ماذا حملت معك؟ قلت لك في رسالتي لا تأتي بشيء
أست بحاجة لشيء .

لم تتوقف لتسمع بقية كلامه الحائق، إذ لا يعنيهها شيء . كانت ذهبت
لتحضر الكيس فتحتة وبدأت بإخراج ما بجوفه: صرر صغيرة كنتك التي يحملها
العجائز في القرى تحت أجزمة أثوابهن الشعبية لحفظ النقود . واحدة تحوي قطع
جبنة بيضاء بلدية، أخرى تحوي أقراص "الملايت" ، ثلاثة بضعة بانجنات مخللة،
رابعة وخامسة وعاشرة في داخل نفسه فرح لهداياها الصغيرة فهي أشياء أما لا
يتقن صنعها أو ببساطة نسيها . ولكن ما أن أخرجت كيسها الأخير - صررتها الكبيرة -
حتى صاح بحنق:

- دجاجة! دجاجة! خافي الله! المدينة ملأى بالدجاج . هل تحملين دجاجة؟ هل
تعقدنين أنني منذ سنه ونصف لم أكل دجاج؟
فقد أعصابه إذ صاح بها . ألمه أن تتعب نفسها .
- يا بني الله يرضي عليك . هذه دجاجة بلدية من عندنا . حساؤها احسن من لحمها .
أحشها تنفك، أنا نظفتها، يعني جاهزة لتطبخها .
قالت بانكسار هذه، تحدثت بلهجة تتم عن جزعها من صياحه . تمنى لو قطع
لسانه قبل أن يصيح بها بنزاقة وفي لقائهما الأول!
- لأدعها تعبر . عن أمومتها بأشيانها الصغيرة، طالما يسعدنا ذلك لأتركها . أي
شيطان أحرق ركبني . حدث نفسه وقال لها معتذرا:
- حقك علي، لا تتضايقي . طالما بلدية ومن عندنا تستحق لا أن تحمل فقط بل أن
أقيم لها مهرجانا سياسيا كبيرا . دجاجة بلدية وتحشى بما لذ وطاب، إنها هدية
حقيقية .

وقبلها . فرحت وابتسمت
- أحشها جيدا . أخطها جيدا حتى لا يخرج الأرز وفي هذا الفرن حمرها .

تغذيا معا، نهض لياخذ الأطباق فسارعت تحسم الموقف: اقعد! فامتثل
وجلس . غسلت الأطباق والصحون، نظفت الحوض والطباخ .

- ماذا تريد أن اصنع لك؟ معنا ٣ ساعات حتى يأتي الرفيق ماذا اطبخ لك؟
- اعرف أن اطبخ. اجلسي لتتحدث. بصعوبة أقنعها.
- طيب متى سأعود إليك؟
- متى ما تريد. فقط رتبي مع الرفيق الذي نقلك لأجهز نفسي كي لا يأتي أحد إلي وأنت هنا.
- لا تضغط على حالك. أنت ووقتك. عاقت بلهجة مستسلمة تماما.
- لدى من الوقت لاستقبلك يوميا، لكني لا أريد أن تكون حركتك، اعني خروجك من البيت موضع تساؤل مريب من العائلة. المهم بعض القضايا يجب مراعاتها حرفيا.
- ما تريد. قالت وانتظرته ليكمل.
- تحت أي ظرف من الظروف لا أحد يعلم عني شيئا وعن لقاءاتنا. ما أخبار كنعان لا ندري. "كلمة بت احسن من عشرة لت"، هذا يضمن أن ينسون اسمي. (كانت تهز رأسها موافقة) لا تأتي إلي وحدك نهائيا أي دون ترتيب مسبق. مهما سمعت من هنا ومن هناك لا تأتي. تذكرني ما فعلوه معك بعد شهر، كانوا يتوقعون أنك تعرفين مكاني فتكوني الفخ الذي أقع فيه. أنت حددي اليوم مع من يجلبك وأنا ابعت لك ردي وبعدها تأتي. احسني تمويه خروجك من البيت عندما تأتيين إلي، مرة لزيارة معارف، أخرى للمستشفى، ثالثة لطبيب... نوعي أسباب الخروج واحذري أن يلاحظوا ما تحمليه وإلا يجب أن تأتي دون أن تحملي سوى حقيبتك. وعلى سبيل الاحتياط البسي نظارتك الطبية عندما تأتيين.

كان يملئ إجراءاته عليها وشعور بالشفقة يسيطر عليه، شعر مرارا أنه بتجربته الثورية أضاف بعدا جديدا لشخصيتها. أضحت علاقته بها أكثر من علاقة أم بابنها، بل وصديقة قريبة لقلبه توفر دفاء الأمومة وحنانها ورقتها، إنسانيتها المرهفة لكنه مع ذلك كان ينقم مع ظرفه الذي جعل لقاءه بأمه مليئا بتعقيدات السرية.

عند الرابعة عصرا غادرت وكره.

الحزب يبذل كل ما يستطيعه لإشاعة الاستقرار. والسكينة والهدوء النفسي لدى كنعان. كل ما لا يمس قواعد حياته السرية وأمنه الشخصي لا مانع للحزب من تلبية. الرسائل تصل تباعا والأحاديث لا تنقطع، التضامن والاسناد يومي وثابت ومؤكد. يصعب تصور حياة سرية ناجحة أن لم يبذل الحزب كل ما من شأنه أن يظهر العناية بـصاحبها ويؤكد لها. من يترك حياة ويمضي لأخرى قاسية ولعينة، لكن ضرورية يلزمه الرعاية. هنا كان الحزب ورفاق كنعان روافع حقيقية.

كان يقرأ كثيراً فتعزز قناعاته يومياً بخياره وحياته، كان ينهل من الأدب بشكل خاص: جورج أمادو، حنا مينا، غسان كنفاني، محمود درويش ... الكتاب السوفييت. ساعات وساعات يقرأ والرواية التي تعجبه يعيدها مرتين وأحياناً ثلاث. هكذا فعل مع "الدون الهادي" لشولوخوف، "وكيف سقينا الفولاذ" لاوستروفسكي، "الثلج يأتي من النافذة" لحنا مينا. الرواية الأخيرة لعبت دوراً هاماً في حياته السرية، فعندما قرأها كان يقول مع كل صفحة منها "حنا مينا كتبها عني، انه يتحدث عني".

كل صفحة كل سطر كل كلمة فيها تصوير رائع لحياة مناضل الخفاء، مناضل الحياة السرية، الصراع بين الضعف والقوة، صعوبات التنقل وعدم الاستقرار، المرأة، النضال، المهام ... لكن حتى ذلك الحين لم تكن له "فتاة نافذة" كما كانت لفياض بطل الرواية. كان الحزب لكنعان مثل خليل فياض، يضبط انفعالاته، يوجهه، يخفف من حدة نزقه، يعيد صقله. "خليل فياض" كان عاملاً، خليله كان سياسة ثورية. عندما أنهى قراءة الرواية في صيف سنة ٨٤ والمتعة تأسره تساعل: بداية فياض ليست كبدائتي فأنا لم اهرب من الوطن كي أعود إليه أخيراً، فهل ستكون خاتمة تجربتي كخاتمته-الاعتقال متلبساً بحيازة مطبعة الحزب؟ أي صدفة ستكون أن حدثت؟

كان الأدب ينعشه، يمتعته، ينمي حافزه المعنوي، يربي لديه الذائقة الفنية-الجمالية، يشعل نيران الحقد بداخله على الظالمين وعلى كل مظاهر الاضطهاد وينمي الإحساس والتعاطف الإنساني مع الكادحين وليس افضل من ذلك لرجل الاختفاء، فأمام قسوة الحياة اليومية، تأتي تنمية رهافة الإحساس الإنساني بالعدل وكذا التمسك بالقيم الإنسانية الرفيعة لتخفف من وطأة تلك القسوة. والحزب يدرك أهمية التربية العقائدية الشاملة والمتنوعة فيقدم له شيكا مفتوحاً لشراء الكتب.

- لا تتردد، اشتر ما تشاء من الكتب وقرأ. لا تسأل عن الميزانية.
وعندما يقع كتاب هام بين أيدي رفاقه، رواية ممتعة مثلاً، لا يترددون بأن يوصوه :
- اترك ما بين يديك وقرأ حياة العظيم ديزرجنيسكي. فرونزه عليك بفرونزه. هل قرأت "الشمس في يوم غائم" لحنا مينا؟ ستستمتع حقاً. وقع بين أيدينا عالم جورج أمادو، اشتر "غابرييلا"، "ارض ثمارها من ذهب" هل وصلتك "مدن الملح"، "وقصة حب مجوسيه" لعبد الرحمن منيف؟

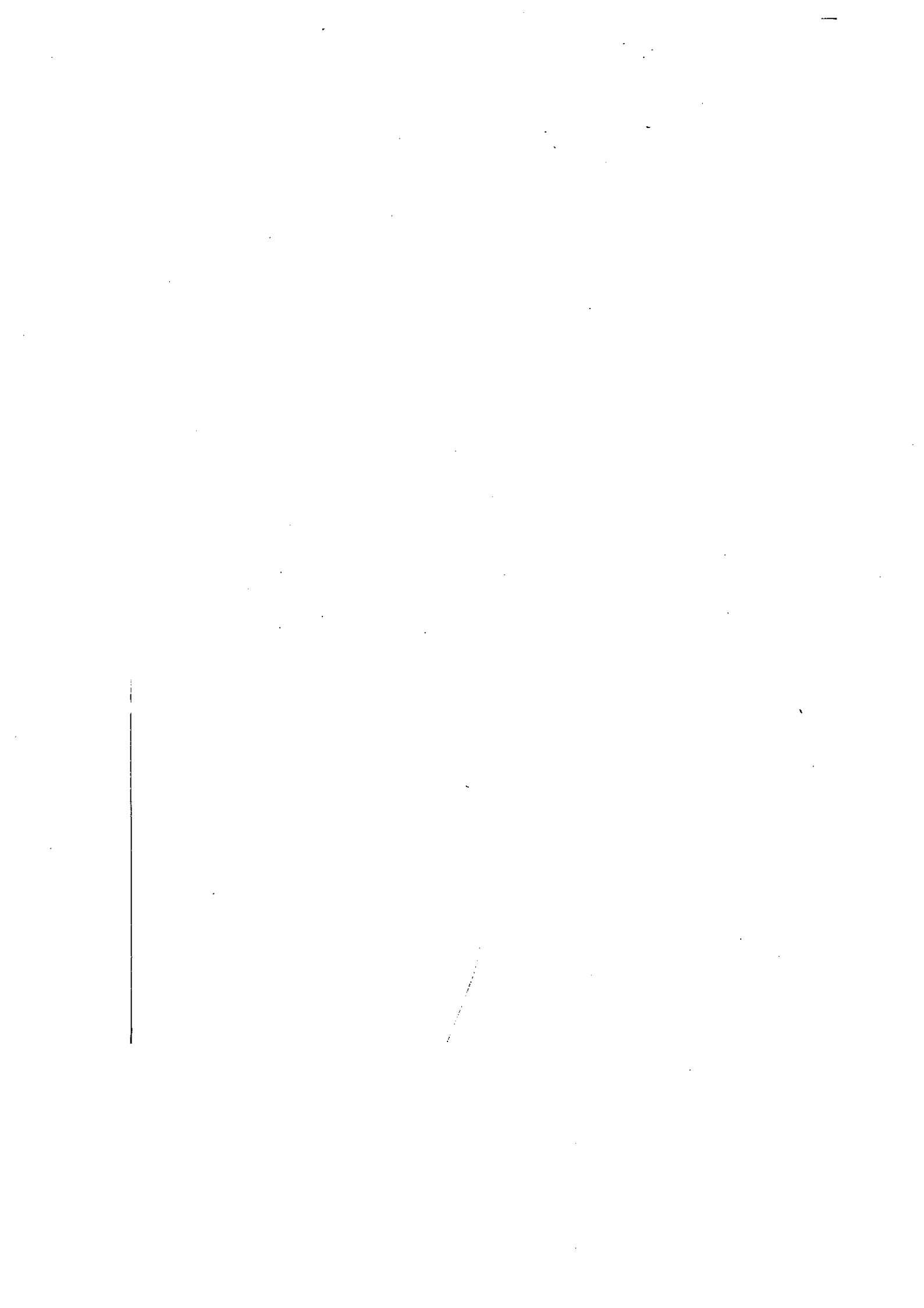
وهو يقرأ ويقرأ كلما كان عمله يتيح له ذلك. أحياناً لم يتردد بترك ما بين يديه ليغرق في رواية ماء، وهو يطهو كان يقرأ، قبل النوم، أمام التلفاز حين يقدم ما

لا يشجع على متابعته. كان يشعر بمتعة خاصة عندما يتناول رواية ممتعة بعد يوم مجهد في العمل الحزبي أو ظروف ضغط المهام والعمل اليومي.

"إجراءات، احتياطات، تطلبات وقواعد" لم يفس تلك الكلمات التي أبلغته بقرار الانتقال للحياة السرية. لم تعد تثير بعد أكثر من عام ونصف على حياته تلك حفيظته، لم يعد يقابلها بهزة كتف، بسخرية لاذعة كما فعل في الأيام الأولى، الأسابيع الأولى، الشهور الأولى. أصبحت تلك الآن قانون حياته التي يحرص عليه حرصه على حياته، تحول الآن ليصبح هو حياته. كان يمارسها الآن عن سابق قناعة بأهميتها الحيوية، كان يفهم ضرورتها في حياته، لنضاله وان لم يكن يشعر بمتعتها، بمتعة الحياة وفقها. على أية حال كان بدأ يكتشف- بدأ وحسب- أن هناك فرقا بين المتعة والضرورة.

"لا تستقبل أحدا ولا تزر أحدا" مع التعديل الذي دخل قبل ٧ شهور "لا تفتح شراعة الباب لعجوز بيراوية". أيضا تلك الجملة الأمرة، الخشنة خشونة الإسمنت والتي تكثف علاقته بمن هم خارج بيته، وكره الكبير، اعتادها ليس بحكم المتعة أيضا بل لتحويلها لروتين يومي. والزمن كفيف بتحويل أية صعوبة لروتين بانسيابه. كان بدأ يفتتح رويدا رويدا بأهميتها، مرة أخرى بدأ يدرك بدأ فحسب- مع تعاقب الأيام الفرق بين الأيام والضرورة. ■

الفصل الرابع



الفصل الرابع

عسكرية حول البيت كما قال هشام. تتوزع السيارات العسكرية بما يشبه الطوق على الحي بأكمله، وذلك يشير أن القضية جدية لدرجة كبيرة. سيأتي أوان تحليل الأسباب، إنما الآن المهم: هل شاهد الجنود اثنين أم واحدا على شرفة البيت عندما أطل كنعان وهشام برأسيهما لرؤية ما يجري، حينما سمعا وقع الأقدام وقبل أن يبدأ الطرقة على الباب؟ شتم كنعان نفسه إذ شعر انهما تصرفا كهواه لا كمحترفين عندما وقفا على الشرفة يتطلعان دون حذر كاف.

شكوة

تحسس أوراقه من جديد بعدما كان وضعها أمامه بجانب علبة الكاز والولاعة، تأكد من مكان كل شيء خشية أن تخونه حاسة اللمس في اللحظة الأخيرة فيعجز عن التصرف بسرعة. لقد اعد كل شيء للحظة طارئة فأمن الحزب في العمل السري نصفه الحفاظ على الأسرار عند لحظة الاشتباك في غرف التحقيق، ونصفه الآخر إجراءات وقواعد تخول قبل لحظة الاشتباك من وقوع الصدفة التي أحيانا تكون نتائجها كارثية أكثر من الإتهام بين أيدي المحققين.

العمل السري بأكمله تنقوم فلسفته في نفي فعل الصدفة ما أمكن. نسيان الولاة صدفة لها عواقب وخيمة أن وقعت الواقعة، نسيان ورقة صدفة وعدم إتلافها جريمة. نجاحه في الحياة السرية لسنين طويلة، يدين لتلك القاعدة الذهبية وغيرها. جريمة وأي جريمة أن تقع وثائق بين أيدي المحتلين وهو لن يسجل في تاريخه تلك الجريمة. أي معنى تتخذه رزمة الأوراق في حياته والقابعة أمامه الآن بجانب علبة الكاز والولاعة؟ هاجسه اليومي، عمله، زاده، مهامه، رفاقه، حزبه، نضاله، أسراره. كل ذلك حملته أوراق بين سطورها وفوقها. إن انتقل قبض عليها بين يديه. أن نام كانت على المنضدة الصغيرة بجانب سريره. أن شرع بالعمل كانت أمامه إما يقرأها أو يكتب عليها، أن جاءه أحدهم فغالبا ما تكون الأوراق ثالثهم. سنين وسنين وأيامه تنقضي معها، هي ليست أوراقا كأي أوراق؟ إنها تعج بالحياة والنضال والمهام، إنها تكثف حياته السياسية ونضاله ودوره، فيها هذه الناعمة الملساء والمليئة بالأسطر والكلمات المنمنة تكمن حياته. لو صوبوا بنادقهم لرأسه ما كان يمكن أن يسلمهم إياها، فهل من السهل أن يسلم الإنسان أعضاء جسده لأي كان: رأسه، قلبه، رنتيه، قدميه، يديه.... لذلك قرر أن لا يسارع لإتلافها. إتلافها سيكون بمثابة رصاصة الرحمة التي تطلق على رأس حصان هرم مريض آخر لحظة، حفاظا على كرامته. سيحافظ على كرامة أوراقه ولا يجعل أصابعهم تمسها وعيونهم تدنسها. قرر بحزم.

الحياة السرية اختضرت عنده منذ سنين لكلمات مكثفة تحمل دلالات: أبواب، أوراق، جدران، قلم، كرسي، طاولة الحياة السرية تتحشر عنده ما بين باب يفتح، دخله وأقل منذ سنين طويلة وبين باب قد يفتح بعد ساعات ويخرج منه لتنتهي تلك الحياة وتبدأ أخرى لا يدري كنهها. ما بين جدار وجدار خطواته لا أكثر، خطوة، اثنتان عشر، فيواجه جدار فيرتد خطوه، اثنتين، عشر فيرتد من جديد أمام الجدار. تحت سقف وجدار احتياجه انحسرت سنيًا لا تستطيع أن تخترقه، وأن قاومت فالسقف-الجدار لها بالمرصاد، رغبته تستطيل وتستطيل فتجد جدرانها أربعه. أينما استطالت تجد جدرانها تصطدم بها لترتد لنحرها، فالجدران تمنعها من أن تتجسد. أوراقه أكثر ما رأت عيناه، أكثر ما حملت يدها، أكثر ما حفظت ذاكرته، أكثر ما خاف عليه، بها خاض تجربته ومعها تواصل مع نضال شعبه. قلمه لسانه به حاور، حرض، ربي، احتج، حاجج، اقترح، ناقش، قرر، كان بديل يده المغلولة ولسانه المحشور في جوفه ولا يستخدم سوى للوك الطعام. طاولته أخذت ساعات يومه عملا فلا عجب أن اهتم دائما باختيارها اختيارا خاصا، ينقر، ينقر على سطحها مفكرا أو يسند كوعه عليها مدخنا أو يأكل أثناء عمله ليختلط عليها بقايا زيت الزيتون بالأوراق، بأعقاب السجائر ورمادها. كرسيه لا يتعب عجيزته فقيره اللحم فقر فأر الكنسية. كرسيه وطاولته لم يورثا ألم الظهر والكتف واليدين. مع السنين كانت تتعمق لديه دلالات الأشياء المادية في حياته التي ارتبط بها حتى غدت كما لو أنها حياته.

في يده كانت تقبع رسالته لها. تناولها عندما تحسس أوراقه والطرقات ومحاولات فتح الباب مستمرة. تذكر هند إذ لمس الرسالة. الصورة لم تبرح خياله، كأنه يلمس شعرها القصير الخشن بعض الشيء، كأنه يمرر أصابعه فوق وجهها الباسم أبدا فيلتقط بسمتها بين أصابعه، كأنه يمرر أصابعه فوق عينيها اللتين تشعان ذكاء وتغرسان النظر فيه كلما كانت عنده. تنهد وضغط على الرسالة ألما وامتعاضا. حرص حرصا خاصا على رسالته لها عند سماعه الطرقات، لن يسمح لأي كان بالدخول لتلافي دماغه وشغاف قلبه بالاطلاع على رسالته. فيها فرحه وجزنه، نشوته وغضبه، رفته وخشونته، فيها كل التناقضات التي استحسنت ذاكرته بعد تجربته القصيرة معها، فيها ما لم يقله إلا لها كمستمعة جيدة ومتمحدثة لبقة، وهو كراغب في الحديث معها لا مع غيرها. لن يسمح لهم بوضع عالمه العاطفي على طاولة التحقيق وفي غرفة التعذيب. حتى أمام رفاقه تحفظ بالحديث فكيف به يكشف ذاته أمامهم- عدائه؟ كان رفاقه يطرقون باب ذاته تلك ولا يسعون لفتحه عنوه، فإن لم يفتح انكفأوا. رسالة حساسة في ظرف حساس شكل طابع تكبيره ومزاجه وسلوكه لأسابيع، رسالة مثابة حوار مكتوب كأنها جالسة أمامه تبتسم

دائماً، ولا يدري أمن باب اللباقة وحسن التصرف أم دون تكلف تفعل، لطبيعة فيها؟ تهتم بما يقول لفضول يكاد يقتلها أكثر منه لاهتمام يفرضه عليها طابع الصداقة التي اعتقدها نشأت بينهما. رسالته كانت محاولته الأخيرة وهي الأولى في حياته السرية لتحويل صورة المرأة في خياله لحقيقة، صورة شكلها لامرأة وجد في هند ملامحها فمزقت الصورة ودلفت هي الباب خارجة فأغلقه خلفها وعاد ليحيا مع صورته التي عاش معها سنين!!

بم تحلم هند الآن وهي نائمة بعد يوم مرهق كالعادة قضته في العمل والتنقل بين مدينة وأخرى فيما هو يقبع الآن منتظرا المجهول الآتي في وكره الحجري المعتم؟ هل سمعت الموسيقى الكلاسيكية الهادئة قبل أن تنام لتريح أعصابها المرهقة أم فضلت عليها أغاني مرسيل خليفة الذي يسكرها أم تراها سمعت الشريط الأخير لفيروز "كيفك إنت" والذي نجحت بأن تنقل عدواه لبيته؟ هل التزمت بتعهداتها له بأن لا تتناول طعام العشاء ليلا كي لا تسمح للسمنة بأن تشوه جمال قوامها، كما نوه لها مرة؟ كان ذلك آخر تعهد قطعت على نفسها!

فجأة صوت الطرقات يقترب أكثر فأكثر. أصواتهم الآن يسمعها واضحة وقريبة. نجحوا أخيرا باقتلاع الباب الأول الخارجي والآن جاء دور الباب الداخلي. الساعة الآن الواحدة وأربعون دقيقة، ساعة تقريبا استغرقهم خلع الباب الأول، الثاني لن يصمد ساعة فهو أصغر وأقل سمكا وحديده من نوع أضعف. اللحظات الفاصلة بين عالمين تقترب، عالم سري عايشه سنين طويلة، الأرجح سينهار وعالم آخر لا يدري كنهه سيحياه لمدى زمني لا يعرفه. المجهول يعذبه، يقتله، يريده أن يظهر. هل سيكتشفون وكره أم لا؟ هل شاهدوا إثنيين أم واحدا على الشرفة؟ قد ينجح بالافلات ويحافظ على وجوده بين رفاقه وفي حزبه وفي حضن شعبه وعلى رأس مهامه. تعلق بهذا الأمل. لم يملك إلا أن يتعلق به، مع إحساسه أنه أمل واه، إحساس لا يدري من أين واتاه..

هشام ملتزم بنهجنا ولا يفتح الباب. الطرقات قريبة وعنيفة وشديدة وصياحهم الذي يدعو لفتح الباب عال. بماذا يفكر هشام الآن؟ تساعل كنعان. أبقادم مجهول واحتمالات المستقبل يفكر؟ بطفله الجميل كعبة الأطفال صاحب الرأس الأكبر من سنه خمسة شهور؟ بالرفاق، بوالديه المريضين... بما يفكر..؟ كل شيء عزيز على القلب يفتح تلك اللحظات المحفوفة بخطر داهم يقترب أكثر فأكثر. الحزب، الأهل، الام، الرفاق، المرأة... كلهم يقتحمون الدماغ. هشام سيكون هشام الذي أعرفه رجلا حين يعز الرجال. ألم يقل "لا تتركه" عندما سألته عن احتمال اعتقاله في لقائنا الأول؟ انه من ذلك الطراز من الرجال الذين لا تجد صعوبة في

أن تحفظ له في قلبك، مكاناً خاصاً به لطيبته، إحساسه ومشاعره، لحرارة إنتمائه التي لا تبرد، لشجاعته، جرأته، لرفاقيته وروحه المرحة، نكاته المتجددة دائماً والتي تحرك عضلات جسد من يسمعها، يؤكد بها إنتمائه حقاً لجنين التي ترعرع بها. في تلك اللحظات بالذات والتي يقترب بها المحتلون من جسديهما، كان كنعان على ثقة بأنه وهشام سيكونان عند مستوى ثقة رفاقهما.

مع الطرقات تتعالى أصوات منادية بلهجة عربية ركيكة طالما كره سماعها من الإسرائيليين رحمة بلغته وشفقة عليها: افتح بأمر الحاكم العسكري، جيش، افتح الباب. الباب يقاوم. حتى الباب بدأ له يدافع عنه بجسده، يصمد أمام طرقاتهم ليحميه. يتحمل جسده الحديدي ضرباتهم المجنونة دفاعاً عنه، هو يعاشره سنين وسنين، يوماً بيوم، ساعة بساعة. كل ما في بيته كان مديناً له، الأبواب الموجودة والتي تحميه من عيون الأعداء والفضوليين، النوافذ يطل منها على الطرقات والناس. الجدران التي بثها همومه وهو يتمشى منتقلاً بينها. كتبه التي ما تعبت لا من التنقل من بيت إلى بيت طوال سنين ولا من طي صفحاتها وثنيها، حتى وهو يقضي حاجته رفاقته!! حتى تلك المنمنمات الملونة على بلاط الغرف كانت صديقه، كان يتخيلها رسوماً وأشكالاً، مثل طفل يرى في الغيمة بيتاً أو حبة برنقال أو وروداً أو حروفاً صغيرة. في الحمام كانت هنالك بطة جميلة على بلاطه تكون عند مرمى نظره وهو جالساً يقضي حاجته. الم يسأل الجدران: احتياجاتي ورغباتي تستطيل وتكبر، أفلا تستعنين لتحقيقها؟ الم يصرخ بوجه الباب في لحظات الاحتقان، استشعار ضغط، قسوة الحياة: ألن تفتح يوماً؟ لن اخرج منك لاعيش في الطبيعة مثل الإنسان الأول دونك ودون الجدران، الطاولة والكراسي؟.

لكن الباب صديقه سينهار عاجلاً أم اجلاً، سينزع أمام ضرباتهم، فأي إرادة يملك هو بالنهاية حتى يصمد؟ كنعان ومنذ سنين يزرع في عقله قيم التحدي والصمود واوان الحصاد يبدو له وقد اقترب، لن ينهار هو أمام ضرباتهم ولن تتخلع ثقته بحزبه والنضال من قلبه! سينزع الباب الثاني.

انسياب حياته السرية لم يكن لتخلو من منغصات، هي في الواقع جزء من هذا الانسياب لأنها جزء من الحياة السرية التي لا تعرف الاستقرار السكني. بعد عصر يوم قانظ من أيام آب وقبيل الغروب بقليل كان يقف عند نافذته يتأمل ما تقع عليه عيناه. النافذة تطل على المنطقة الصناعية الواقعة شرقي مدينة البيرة، سميت تجاوزاً بالمنطقة الصناعية شأنها شأن المناطق الصناعية في المدن. أما في الواقع فإنها بالكاد تنتمي لعالم الصناعة بالمعنى المعاصر والاقتصادي. تنتشر فيها

معامل النجارين والحدادين ومعمل أو اثنتان لانتاج الطوب والبلاط ومثلهما لانتاج المواد الغذائية، ما عدا هذه الصناعات الخفيفة ومعامل النجارة والحدادة فقد طغى على المنطقة كراجات وورش لتصليح السيارات والحافلات، على مدى الرؤية كان اذ ينظر من نافذته يرى هياكل السيارات والحافلات وأجزاءها متناثرة في الشوارع الفرعية وعلى حوافها وفي ساحات الورش والكراجات. ولأن البيره بالكاد خرجت من رحم البيئة القروية لدنيا المدينة، فالمنطقة الصناعية لم تتعدم فيها مظاهر القرية الأبرز: حقول وأشجار التين واللوز والبرقوق بشكل خاص، فعلى طرفي الشارع الذي يخترق التلة صعدا نحو بيته السري تنتشر الأشجار المثمرة وبشكل خاص التين البيراوي طو المذاق كطعم العسل. كانت حقول الاشجار تضيء على المشهد العام للمنطقة جمالا يخترق عالم الكراجات وعوادم السيارات وضجة الورش، جمالا يذكر بأنه في يوم ما، قبل سنين ليست بالكثيرة، كانت الطبيعة تنطق بجمالها قبل أن يشوها البناء العشوائي وتتاثر الكراجات.

نافذته - طاقته للعالم كانت شأنها شأن كل نافذة في كل بيت يقبع فيه، نافذه تأخذه وهو يتأمل عبرها حقول التين، إلى ذكريات طفولته يوم كانت كل حقول البيرة مشاعا له ولأترابه، لا للتلذذ بالتين فحسب بل ولصيد عصافير الحساسين، هوايته حتى يفاعته. تتفاعل الذكريات مع حاضره، تتشابك كنتسيج عنكبوت، ليقرر تنظيم غزو لكرم التين الذي يملكه صاحب البيت الذي يقيم فيه، استعادة لطفوله شقية تبعث على فرح مشتهى من حاضر مليء بالضغوطات والمسؤوليات والقسوة.

لم يكن صاحب البيت، الطيب والودود، كحالة استثنائية بين من عرفهم من اصحاب البيوت حتى سنيته تلك، لم يكن ليمنع عن مستأجره تين كرمه. ربما خجلا من الطلب أو ولعا بالغزوة لم يسأل كنعان صاحب البيت تينا، بل نسق عمليته مع رفيقه صاحب القدم العملاقة ليشرعوا بالغزو قبل انبلاج الصباح، ليس رغبة بالتستر تحت جنح غيش الظلام فجرا بل لأن التين لا يؤكل إلا نديا يحمل معه برودة الليل المنعشة. بعد عدة غزوات زاره صاحب البيت يحمل "قرطله" تين ليعلن له بطيبة اشعرته بخجل يلفه من رأسه حتى أخمص قدميه: الكرم الذي تحت هو لي، بامكانك أنت وأصحابك أن تتعاملوا معه كما لو كان لكم فالبيت بيتكم والكرم كرمكم. بذلك أصبحت غزواته "شرعية" ففقدت متعتها. لم يكن صاحب البيت كغيره من الذين قابلهم كنعان اذ يصعب تصنيفه - بالاستناد لسلوكه - كعقاري! انه من ذلك النوع الذي وجد نفسه فجأة وقد أصبح في وضع ظبقي جديد كمالك، فلم يعتد بعد على التصرف حسب مكانته الطبقيّة الجديدة، شأن العديد العديد من البرجوازيين ذوي الاصول الشعبية الفلاحية، لا هم امتلكوا سمات البرجوازية اجتماعيا ولا تخلو عن طبيعتهم الفلاحية تماما، مثل التي ترقص على الدرجة

الأقانيم الثلاثة - وسام الرفيدي ٦٧

الوسطى للسلام! كان لا يعشق أوائل الشهور كالعقاربين، لا يدس انفه في شؤون مستأجره شأن أصحاب الملكيات الصغيرة والاهم بالنسبة لكنعان انه لا يرصد تحركاته وتحركات من يزوره ويخجل اذ تمد اليه اليد بالإيجار ويلج دون تزييف أن لا يأخذه. عندما كانت أموال الحزب تتأخر لسبب أو لآخر بما يعيق تنفيذ المهام فما كان من كنعان الا أن يقصده: تأخر الأهل بإرسال المال لنا ويجب أن ندفع أقساط الجامعة، هل يمكن أن نقرضنا لاسبوعين؟ ولم يكن الرجل ليتردد أبدا. لم تتحول طبيئته لغباء كما لدى من تتجاوز الأولى عنده حدها المعقول، بل بدر منه أنه "يشتم" حقيقة الطلبة المستأجرين كنشطاء وأن لم يكن بالضرورة كستار لمتخف.

- طلبت لمقابلة المخبرات ماذا أقول أن سنلت عن يسكن عندي؟ أعطوني أي اسم تريونه بعيد عن الشبهة.
شكره كنعان وأعطاه اسما لا وجود له، وهجر وكره أسبوعين تحوطا من وقوع أية مصادفة غيبية.

ذاك اليوم القانظ وقد ارتحلت الشمس لتوها، وقف كنعان ينظر من النافذة وإذا برتل من ناقلات الجند تتقدم من جهة معسكر الجيش في المدينة فتخترق الشارع الرئيسي الرابط بين رام الله - ونابلس لتتزل باتجاه المنطقة الصناعية.
- ما كل هذا؟ اعتقالات نهائية؟ صعب. لا تظاهرات هنا. ربما يكون وقع حادث ما في المنطقة!

حاول كنعان الوصول لإجابة وهو يرقب الناقلات واقفا عند النافذة. كان في مقدمة الرتل وبضمنه سيارات عسكرية مخصصة لضباط وشاحنات صغيرة مجنزرة. استمر الرتل يسير باتجاه مفترق الطرق الذي يؤدي احد تفرعاته إلى التله. حيث وكره. عند المفترق توقف الرتل عند الشارع الصاعد باتجاه التله وأخذت قطععات منه تتوزع توزيعة مريبة لمن يرقبها، بعد توزعها أمكن لكنعان ملاحظة أنها أخذت وضعية التشكيل القتالي على شكل كمامة وجرية في الوسط: سيارة ضباط وناقلة جند توجهتا إلى يمين المفترق ومثلهما إلى يساره وعلى مبعده ١٠٠ م توقفت السيارات.

عند المفترق تمركزت شاحنة عسكرية فيما واحدة أخرى تتقدمها سيارة ضباط صعدت الشارع المؤدي للوكر. نزل جنود من الشاحنة عند المفترق واتخذوا موقعا لهم على الشارع مثبتين رشاشهم متوسط المدى على ارض الشارع. الصاعدون الشارع المؤدي إلى التله ظلوا يسيرون حتى تجاوزا الشارع المعبد ودخلوا الشارع الترابي. بعد بضعة أمتار توقفوا ليكونوا خلف الوكر مباشرة، لا اكثر من ٣٠ م فقط!! (انه التطويق الذي يتبعه الاقتحام).

ردد كنعان بصوت مسموع فيما أخذت يديه في الحال تجمع أوراقه السرية على عجل مستشعرا كان حبلا لف حول عنقه، ودماغه ينفعل بسؤال ملح (كيف التصرف؟) وبعد عشر دقائق من تفكير مضطرب لا يستدل إلى حل يصاحبه تنقل مستمرا بين النوافذ لمراقبة تحركات الجند، سمع صوت المفتاح يدور في قفل الباب والرفيق ذو القدم العملاقة يدخل وعلامات التوتر والانفعال باقية عليه. كان يلهث ولا يكاد يلتقط أنفاسه، ملابسه متسخة بالأتربة والعشب الجاف. وضع كيس الخبز على الطاولة وسأل سوآلا بدا غريبا فوق غيائه:

- هل رأيت ما يجري خارجا؟

حاول أن يبعث في أوصال رفيقه هدوءا هو كنعان نفسه يحتاجه أصلا:

- وهل تعتقد أن أذني لن تلتقط صوت مجنزرة تشخر على بعد ٣٠ م مني، لا أدري ماذا يجري بالضبط، لكن كيف دخلت؟ (استدرك) حدثني بما رأيت ولكن بسرعة.

لم يضيف شيئا مما كان كنعان رآه سوى طريقة وصوله:

- عندما اقتربت من المفترق ووجدتهم نزلت عن الشارع إلى الحقول وأخذت أزحف بين الأشجار والبيوت كي أصل هنا. وهناك أناس يمرون بشكل عادي ولا أحد يعترضهم.

كان رفيقه الذي ما خذله في مواقف تتطلب الشجاعة والجرأة. انه من النوع الذي لا يعرف الخوف طريقا لقلبه أو تأثيرا على أقدامه ... ربما لطبيعة فيه جبلت على الجرأة أو لأن ذهنه لم تغزه بعد كثرة الحسابات التي تقتل الشجاعة أم لعله لا يستطيع أن يحسبها أصلا فتخور عزيمته أن استمرات ذاته السكينة. انه من النوع الذي يملك الجهازية ليفعل ما يطلب منه أو يدرك انه يجب أن يفعله شريطة أن لا يطلب من عقله أن يتدخل في التنفيذ. كان من ذات الطراز من القاعدة التي تحدث عنها المفكر الماركسي غرامشي قاعدة جاهزة للتنفيذ لا تملك الكثير من النضج السياسي لتبادر أو تقرر. كانت حياته الريفية والمحدودة جدا التي عاشها، ضيق نطق آفاق تفكيره إلى أضيق الحدود. ضعف المبادرة، الحنكة، الحذق، المعارف والتجربة ... كل ذلك قابله جلد، شجاعة وجرأة، لذلك فمثله كما قيمه كنعان مرة يصعب على أي تعذيب أن ينتزع منه حرفا، لكنه يقع بسهولة إذا ما استخدمت الحيلة والخدعة معه.

- ما القصة إذن؟ يطوقون ولا يقتحمون وحتى لا يعترضون طريق السائرين. لم يفرضوا منعا للتجول؟ أي اقتحام هذا في النهاية؟ وهل هناك قضية خطيرة

لدرجة الاقتحام النهاري؟ منذ عشرين دقيقة وهم هنا، فماذا بعد؟

كان يسأل رفيقه ولا ينتظر إجابة. يفكر بصوت مسموع. قرر أخيرا:-

- على أية حال يجب أن نخرج حالا. لا يمكننا أن نبقى محاطين بثكنة تنهيا لاقترام ما. هيا لنسرع طالما الليل حل. نتسلل مثلما أتيت. لأي وكر نذهب؟
 - إلى أم عيسى فهو خال قدر ما اعلم، أليس كذلك؟
 - خال. حسنا لنخرج إلى بيت أم عيسى.
- نطق جملته الأخيرة مع تنهيدة ذي معنى. فقد تذكر للتو أن عليه أن يدقق في أن لا تسمع صوت بوله المناسب من مثانته!

بيت أم عيسى على الطرف البعيد لرام الله وهذا يعني أن عليهما أن يسيرا أكثر من ٤-٥ كيلو متر دونما هويه مزيفة يحملها أو وسائل تكترية تخفي ملامحه. كانت لحيته قليلة الشعر وبالكاد تقوم بوظيفتها وتحسبا لأي طارئ كان يجب أن يسير في شوارع فرعية لا تزدحم بالمارة ولا بدوريات الجيش ويسهل عند أية مفاجأة النزول عنها لأي بيت أو حديقة تفتقدها عادة الشوارع الرئيسية وهذا يعني أن تطول المسافة ربما لأكثر من ستة كيلومترات.

الأسن لا زالت تلوك اسمه، لم ينزرو بعد في ثانيا ذاكرة الناس. لا هوية مزيفة ولا وسيلة تنكر. كانت تجربته تحبو بعد أكثر من سنه ونصف من عمرها ولم يتأتى لها أن ترسي أصولها، قواعدها تماما. ما كان يزيد الموقف خطورة أن الاستنتاج المنطقي يشير إلى أن اسمه قد يكون في جيب جنود الدوريات التي تجوب طرقات المدينتين.

البقاء مخاطرة تربض متربصة على شكل جند مدججين وعلى بعد ٣٠م فقط، والرحيل مخاطرة أيضا ولكن بتشدد أكثر ويقظه مستنفره يمكن تجنب نتائجها الخطيرة. الحياة السرية بأكملها مخاطرة دائمة، سلسله من المخاطر التي على الثوري السري المحتك التفتل بينها أو القفز عنها بوسائل قد تتوفر وقد لا تتوفر. كانت معالم التجربة تتضح أكثر فأكثر، يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر.

تسلل الاثنان من البيت وظللتهما الأشجار ودغشة الليل، لينتقلا عبر بساتين الأشجار ومن خلف بيوت بحذاء الشارع، وزحفا على الأرض كجنود في معركة اجتازا الطوق سريعا وأطلقا ساقيهما سيرا سريعا في شوارع المنطقة الصناعية. ذو القدم العملاقة كشاف للطريق وكنعان يتبعه دون أن يفقده. التقا حول تجمع المقاهي في البيره وصولا حتى المقبرة، منها نزلا لمذبح البلدية حتى حي الشرفة ثم لأطراف مخيم الأمعري ومنه صعدا عبر الحرش الصغير المؤدي لمشفى رام الله فدوار وكالة الغوث لتدريب المعلمين ثم نزولا حتى أطراف "المنطقة الصناعية" في رام الله حيث بيت أم عيسى.

منذ سنة غادر وكره هذا دونما سبب! لم يتغير شيء، هي ذات الدرجات التي تفضي لتعريشه الممر.

- هو دعاء أمي الذي أنفذنا الليلة! افتح افتح يا رفيق.
أخذ رفيقه يبحث عن المفتاح، لم يجده في جيبه الأول، جرب الثاني، بدأت
علائم التوتر تتحفر على وجهه، بحث في جيب قميصه وما وجدته. اكتسى وجهه
بالارتباك.

- ابحث جيدا. تتهد كنعان وهو يحس يذنو ورطه لا محالة.
- ليس معي، يبدو أنني نسيته في البلدة.
كان يتحدث خجلا، مرتيكا كطفل ضبطته امه متلبسا بجريمة ولا يقوى
على انكارها ويحسب حساب عقابها.

صب على رأس رفيقه سيلا من الألفاظ القاسية وهو يرتعش من الغضب
المسيطر عليه ويسعى جاهدا ليبقي صوته خفيضا خشية أن تلتقطه أم عيسى، التي
تسمع صوت البول ينساب على أرضية المراض!
- الساعة العاشرة والنصف ليلا، نسير من آخر البيرة إلى آخر رام الله لتقول لي
نسيته؟ أين نذهب الآن؟ أين سايبت؟

لم يكن أمامهما إلا الاتجاه للحقل الكبير المجاور للوكر. قضيا ليلتهما
هناك، كل واحد ينكمش على نفسه صامتا، أما الحشرات القارصة فأشبعت نفسها
بوجبة دسمه من دمانهما، كان لا يسمع حينها سوى ضربات الأيدي تلاحق
الحشرات متبوعة بشنائم مقذعة. وفي الصباح الباكر أوصل كنعان لرفاقه ما حدث
وقبل التاسعة كانوا اتوا ونقلوه مرة أخرى لوكره في البيرة.
- لا خطر حول البيت، ليلا اكتشفنا أن الجيش قام بما قام به نحوك عند أطراف
المدينة الأخرى ويبدو الأمر كتدريبات لا أكثر.

طمأنه رفاقه وقدموا له معلومات كان يجهلها: ليلا لاحظ رفيق له وبالصدفة
كثافة في تواجد الجيش جهة بيته فسارع لإبلاغ الحزب الذي سارع لاستنفار حفنة
من رفاقه. أحدهم تسلل من خلال "الطوق" حتى الوكر وتطلع من خلال النوافذ فلم
ينلمس أية علائم لاقتحام والاهم لم يجد كنعان. أخذ الرفاق يجوبون الشوارع
بسياراتهم باحثين عنه ليلتقطوه مفترضين انه قد يواجه خطرا في التنقل ليلا في ظل
تحركات عسكرية كثيفة عند أطراف المدينة.

انخلع الباب أخيرا. فتحوه على مصراعيه عنوة بعثلاتهم وأحذيتهم
العسكرية الثقيلة. انهالوا على هشام بالضرب حالما دخلوا هائجين، متعطشين لنهش
اللحم الأدمي، علا صياحهم:

- لما لم تفتح؟ احك يا منيك، احك!
- اضرب يا فاشي، اضرب، ارض ساديتك التي تربيت عليها.
صاح متحديا والحق صيحته بسلسلة من الشتائم المقذعة. الشتائم كنز لغوي
للثوري وينهل منه لحظات الاشتباك وتفجير الغضب والاحتقان الذان يعتملان في
صدره. الثوري الذي لا يشتم مثلا في اقبية التحقيق نادر الوجود كالعملة القديمة.
أحس كنعان بالغضب يغلي بداخله اذ لا يستطيع فعل شيء لرفيقه، يدافع عنه
ويتحمل معه وعنه ضرباتهم. أحس بالتعاطف تجاهه يمتلك عليه حواسه. ترتيبات
المواجهة وضعت هشام في الخندق الأول.

(الرفيق الجيد يكون حيث المهمة الأصعب). ردها الحزب مرارا. هشام
الآن هو الرفيق الجيد، يضع نفسه في المقدمة - يدافع بوجوده بين أيديهم عن رفيقه
القابع في وكره الحجري. أمام كنعان أوراقه، يسمع ما يدور ويحاول أن يفهم ما
يسمعه من أصوات تتحدث بالعبرية باستخدام مخزونه الشحيح من ألفاظها وقبل ذلك
وبعده يتحفظ استعدادا لمعركته أن حانت ساعتها واكتشف وكره.
- ما اسمك؟ احك اين الثاني؟ اين الثاني؟ احك! صاح صوت بالعبرية.
فهم كنعان جملة الاستفهام: "ايفو هاشيني"؟ (أذن رأوا اثنين على الشرفة
ويبحثون عني، لن أسامح نفسي على هذه الحماسة التي تليق بهاو لا بمحترف. ساعة
المعركة إذن تقترب، هي قادمة لا محالة).

رأوا اثنين وبين أيديهم واحد، فأين ذهب الثاني؟ سيقتلون بلاط المنزل،
بلاطه بلاطة حتى يظهر، سيحطمون الجدران حتى يجذوه، يمزقون فرشاة النوم،
كل شيء. لا بد أن يظهر، لقد انقضى الأمر بالنسبة لكنعان. سيستمرون بالبحث،
سيقتلون الخزائن وحينها سيجدون. المسألة الآن مسألة وقت بسرعة الوصول اليه،
متى سيكون بين أيديهم.

حقا انقضى الامر يا كنعان. سنواتك الطويلة توشك أن تنتهي. كل
الاحتمالات الآن مفتوحة على مصراعها: القتل، التشويه، الابعاد، الاعتقال والآن
سيظهر الخيط الابيض من الخيط الأسود من الفجر، سيظهر أن كانت تربية الحزب
مثمرة، أن كانت تعبتك لنفسك وتحشيدك لها أثناء التمشي بين جدار وآخر عندما
يتوسد رأسك المخددة... ثمرة ام لا. انه الامتحان، امتحان نضالك وتجربتك
ومكانتك ودورك وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان الصمود. كرم والانهيار
مهانة.

كما كان قرر لم يحرق أوراقه بعد، ينتظر آخر لحظة هي لديه: عندما
يبدأون باقتلاع الخزانة التي تخفي وكره حينها فقط سيحرق. استدرك سريعا: إن
وجدوا الوكر!!

لا زال عنده أمل بالإفلات ذاك المهندس بجحره كذئب طريد يخشى رصاصة الصياد! لا زال يأمل أن لا يكتشفوه هو الذي تملص لسنين ولم يعرف عنه أحد شيئا، يأمل ذلك لأنه يريد بكل جماع شخصيته، لا لأن أمله يسنده امكانيات واقعية ليحقق، بل لتعلق بخياره، بحياته، بتجربته، بنضاله ومهامه، بانتماؤه لكل ذلك، انتماء الراهب لصومعته، يتعلق بأمله كما الغريق، يتعلق بخشبه إنقاذ لا تظهر في وسط لجة المياه اللانهائية. تعلق بأمله الواهي مثل تعلق أم بأمل "نفحه ربانية" تنهض فجأة بابنها الوحيد من قبره الذي سجي فيه للتو، نفحة تقول له كما قال السيد المسيح: قم فيقوم!!

قرر أن لا يتلف أوراقه حتى آخر لحظه تمسكا بالأمل الواهي ودفاعا عن أوراقه، حياته لآخر لحظه. يسمع هراواتهم الحديدية تدك جدران البيت، كانوا يبحثون عنه، يزرحون خزائن ملابسه في غرفة نومه خلفا الوكر مباشرة، درفات خزائن المطبخ الصغيرة تفتح وتغلق بحركة سريعة مثيرة الضجيج في البيت. حتى هناك داخل الخزائن في المطبخ بحثوا عنه. هل هو في علبة سمك معلب مثلا؟ أو في كيس ملح صغير يحتمي بذراته؟ أم تراه خلف جدار بناه من حبيبات السكر، بناه قبل أن يشرعوا بتدمير جدران بيته؟! انهم وانقون من وجود الثاني، سيستمرون بالبحث عنه حتى يجذوه.

- اين الثاني؟ احك بسرعة اين الثاني؟

كان صياحهم مختلطا بضرباتهم يكيلونها لهشام ممزوجة مع شتائمه الغاضبة يقذف بها في وجوههم. هشام كان ملق على أرضية الغرفة الأولى التي يقرب باب البيت. يجوسون بيته وهو يقبع منتظرا. كان أخيرا سلم بالأمر - حتما سيجدونه! ما عليه سوى الانتظار، انتظار مصيره الذي تقرر، انتظار الإعلان الرسمي عن النهاية. التوتر، التحفز، الحقد، الألم، الأسى، التصميم كلها مشاعر امتزجت معا ليعيش امتزاجها وهو ينتظر وصولهم لجسده. إلا ما اصعب الانتظار في لحظات كذلك؟؟

نقد عاش "انتظارا" شبيها قبل سنوات. كل له "انتظاراته" في حياته، لكن "انتظارات" كنعان كانت دائما ذات نكهة خاصة، لها وقع خاص، "انتظارات" تخلقها لحظات العجز عن فعل شيء سوى "الانتظار". أن سال احتياجا ما فليس له سوى انتظار تلييته لانه لا يستطيع تلييته بنفسه. أن طلب ما يساعده على عمله فعليه أن ينتظر لانه يحظر عليه أن يليه بنفسه. أن سال عن قضية ما فعليه الانتظار بمن يأتي بتفاصيلها، أن نفذت سجنه لصفة سخيفة او لترتيبات غبية منه فعليه أن

"ينتظر" من يحضرها له. ما أن تذكر انتظاره لسجائره حتى أشعل سيجارته وعب منها بنهم متندا من تداعيات "الانتظارات". أن سمع اشاعة ما تثير اهتمامه واحيانا توتره، عليه أن "ينتظر" للتأكد منها. أن "انتظاراته" كانت تؤكد عجزه!! لكم كان يرهقه الإحساس بالعجز في لحظات كهذه، يكون في لحظات انتظاره مثل الصياد الذي يحبس أنفاسه فيما العصفور يتقلّى مغردا، مرحا قرب الشبكة لا في دائرة فعلها، يستحث سيره بين جدار وجدار، يدخل ويدخن أن لم يكن انتظاره لسجائره، يضرب الجدار بقبضته أحيانا، غيظا من عجزه، أو يتوجه للمطبخ ليتناول شيئا ما من باب التصرف اللاواعي كأن عقله الباطن يسعى لتهدئة احتفانه باشغال يديه بشيء ما، أو يفكك الأسرة، ينقلها، يغير مكانها، يعيد ترتيبها، يغير مكان خزانة الملابس لا لشيء إلا ليشغل نفسه، وعندما ينتهي "انتظاره" كان يكاد ينفجر في وجه من أخرجه من دائرة الشعور بعجزه!!

ولكن مع توالي السنين، مع توالي "انتظاراته" كان بدأ يعتاد تحمل توترها!! إذ بالنهاية كما اكتشف بالتجربة تنتهي "الانتظارات"!! بالتدرج بدأ يعتاد ضبط انفعالاته في لحظات الشعور بالعجز حتى وصل لحالة التي يمكن وصفها "بالمراة المطفية" حسب التعبير الدارج تعبيراً عن الجلد والصبر والتحمل.. لكن "انتظار" الاعتقال لم يكن لتتم معالجته وفق ذات الوصفة الشعبية "المراة المطفية". جربه مرة قبل سنين من "انتظاره" الآن وهو قابع في وكره واكتشف حينها انه اصعب "الانتظارات". حينها انتهى انتظاره دون أن يقع في شبكه الصياد، إنما المرة فالشبكة تلف حول عنقه متراً أو اقل بينه وبينها. تلذذ وهو يسحب نفساً طويلاً من سيجارته وتذكر "انتظاره" ذلك.

منذ نيسان سنة ١٩٨٥ افتتحت أجهزة المخابرات هجمتها على منظمات الوطن في قطاع غزة اثر العملية العسكرية الجريئة التي نفذها فتحي الغرباوي وقدم حياته على شرفها. بدأت الهجمة على المنظمة في قطاع غزة لتمتد طوال ١٩٨٥-١٩٨٦ فتشمل منظمات الوطن بأغليبيتها. كانت سنة ١٩٨٥ سنة انعطافية في تاريخ الحزب في الوطن، إذ وضعت منظمات الحزب مباشرة أمام مهمة حماية ما أنجزته منذ أكثر من خمس سنين من النضال ومن العمل الدؤوب اليومي، في مواجهة هجمة احتلالية مركزة طالت معظم تلك المنظمات.

منذ ١٩٨٠ وحتى ١٩٨٤ كانت منظمات الحزب وامتداداتها تتهمك في النشاط التنظيمي الموجه وفق شعار "حل المسألة التنظيمية" فجرى التركيز على حلقتين أساسيتين، التوسع بتنظيم أعضاء جدد وبناء شبكه حلقات قوامها أصدقاء

وأَنْصار الحزب من ناحية والتركيز على تربية الكادرات وتنمية ملكاتها وتوزيعها بما يتوافق مع موهبتها ومهارتها وحالة الحزب ونشاطه من ناحية ثانية.

ما أن حل عام ١٩٨٥ حتى كانت المهمة قد تحققت بنجاح، فتلک المنظمات الحزبية التي كانت في وقت مضى غارقة في محيطها الحلقية، منغلقة على تجربتها، مقدمة الخاص على العام في نشاطها وأولوياتها، تلک المنظمات كانت خلال سني ٨٠-١٩٨٤ قد شرعت بامتلاك ملامح الحزبية في بنائها ونشاطها بديلا للمحلية الضيقة، وما أن حل عام ١٩٨٥ حتى كانت ترسخت في الواقع منظمات حزبية تقترب أكثر فأكثر من تأكيد صفتها اللينينية. القاعدة النظرية الموجهة لمهمة البناء الحزبي. تبلور هيكلها القيادي والكادري بمختلف التخصصات وتحديدًا التنظيمية والجمهيرية والنسوية وبقدر اقل السياسية والإعلامية وصولًا إلى النضالية، تصلبت بنية الكادر أكثر سواء في انحيازه العقائدي والسياسي أو في صلابته الأمنية وخبرته في العمل السري على مستويات مختلفة، وبنفس الوقت كانت احاطت نفسها بسياج حلقى واسع تغرف منه خلايا المرشحين للعضوية، فتم الاقتراب أكثر فأكثر من تنفيذ القرارين-الشعارين "كل عضو يقود حلقة للأصدقاء" "السياج الحلقى ضعف العضوية الحزبية". ولقد جرى تنظيم الصلة بطرق عديدة مع الأنصار، إما عبر حلقات التنقيف التي يقودها الحزبيون وإما على شكل صلات سياسية مع أفراد وجماعات، وإما بالشكل الأكثر انتشارًا شيوعًا: تنظيم الأصدقاء في منظمات ديمقراطية مهنية ونقابية يقودها وينشر في مختلف مستوياتها أعضاء حزبيون. لقد غدا من النادر أن توجد منظمة حزبية محلية دون أن يوجد معها فرع للمنظمة الديمقراطية، وإن لم توجد فالقرار صريح: على الأعضاء تشكيل فرع للمنظمة الديمقراطية. لقد كان لتلك السياسة أثرها الكبير على بناء منظمات العمال والطلاب والنساء الديمقراطية كأدوات للنضال الوطني والنقابي وكشكل لتنظيم الصلة بتلك القطاعات الشعبية ليصار لاغتراف المؤهلين منها للترشيح للعضوية في الحزب، فيما بقيت النقيصة الأكبر في التوجه الفئات المتقنين والمهنيين كالمهندسين والأطباء والمدرسين والمحامين

أما على صعيد التنقيف الداخلي فقد غدا التنقيف الموحد يسري في أوصال المنظمات بمختلف مستوياتها وامتداداتها، ابتداءً من حلقة الأصدقاء مرورًا بخلية المرشحين فالأعضاء وصولًا للكادر. وقد جرى التركيز على تقارير المؤتمر الوطني الرابع وكراريس التنقيف الأمني والمؤلفات اللينينية والتعميمات والنشرات المحلية وتاريخ القضية الوطنية، فيما حوى البرنامج توجيهات للدراسة الذاتية شملت بتركيز واضح توجيهات لقراءة الروايات، لقائمه متنوعة الأدباء (كنفاني، حنا مينا، الطاهر وطار، غوركي، غابرييل غارسيا ماركيث، امادو، نقولا أوستروفسكي، شولوخوف...) وقد لعبت مجلة "الرفاق" الداخلية دورًا هامًا في هذه

المرحلة اذ بانتظامها تم تبادل خبرات وتجارب النضال، التنظيم وتعميمها بما يساهم في توحيد الآلية والمهام وخلق ذهنية حزبية مشتركة وتكوين نفسي- حزبي موحد، كما أن تركيزها الاساسي بالاضافة لذلك كان على المقالات التنظيمية والتثقيف الأمني. إنها مجلة لعبت دور مايسترو يوحد عازفي السمفونية فيما كان عدم انتظام الجريدة الجماهيرية السرية "الثورة مستمرة" يشكل النقص الأكبر هنا، أي في حقل التحريض السياسي. والسمفونية كان اسمها "حث جميع قيادات وكادرات المنظمات الحزبية على بناء منظمة حزبية موحدة البنية والقرار والنشاط". اواخر ١٩٨٤ ومطلع سنة ٨٥ صدر القرار الحزبي بترسيم البناء المركزي للمنظمة على مستوى الوطن وكان مجمل تطور العمل الحزبي منذ خمس سنين ونيف يسمح بذلك.

وما أن ولدت تلك المنظمة حتى وجدت نفسها في حرب حقيقية تشنها عليها أجهزة الاحتلال التي شرعت منذ أوائل سنة ١٩٨٥ بشن حربها التي طالت منظمات القدس ورام الله وغزة وبيت لحم وبيت ساحور ونابلس وقلقيلية وطولكرم تحت شعار صريح أعلنه محققو جهاز المخابرات الإسرائيلي (هناك قرار حكومي. يجب تصفيتم).

ابتدأت الهجمة والحزب يخوض أكبر معاركه السياسية التي رأى فيها حينها دفاعا عن الهدف الوطني المرحلي "الدولة المستقلة" واستقلالية القرار والتمثيل الفلسطيني (اعتبار م.ت.ف الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني) جرى انتهاك ذلك حسب الحزب في الاتفاق الذي وقع في ١١ شباط سنة ١٩٨٥ بين قيادة م.ت.ف والحكومة الأردنية. لقد قدم الحزب حينها تحليلا مسهبا للاتفاق في اجتماع للجنة المركزية في دورته الكاملة في نيسان ذلك العام. لقد عزت اللجنة المركزية أسباب توقيع الاتفاق وخلفياته إلى التغييرات البنوية الطبقية والمؤسساتية التي جرت داخل م.ت.ف عبر السنوات السابقة نتيجة ضخ أموال البترول ودولار وللنتائج التي تركتها هذه العملية بتتمية شريحة بوجوازية بيروقراطية فاسدة داخل وعلى رأس أجهزة مؤسساتية متضخمة باتت تجد في التلاحم والإندماج مع البرجوازية العربية الحاكمة طريقها لتثبيت مصالحها وامتيازاتها وكذا للاندماج في سياسة السيد الأمريكي وتحت عباءته كما قيل! كلما تعطشت تلك الشريحة للامتيازات الجديدة وللأموال كلما انبنت مؤسسات جديدة، وضخمت تلك القائمة، فيما الأخيرة ما أن تبنى وتتضخم حتى تطلب بيروقراطيتها في عملية توالد مستمرة للمؤسساتية من جهة وللبيروقراطية من جهة ثانية. وفي محاولة منها لتعزيز نفوذها في الوطن لم تكف تلك الشريحة ببناء أدواتها التنظيمية المناضلة بل وبإعادة نفسها في الوطن بشكل مؤسسات تبنى يوميا في عملية حثيثة منذ مطلع الثمانينات،

مؤسسات غدت من الكثرة ومن حجم الأموال التي تنهب عبرها وباسمها موضوعا للتندر من الشعب والتحريض من الفصائل السياسية الفلسطينية، كان التلوث البيروقراطي الأشبه بالفيروس قد بدأت عدواه بالانتقال من الخارج وبذات الأموال الخليجية لكن بفتاتها، لتشتري زلم ورموز وشخصيات وما أن انقسمت الساحة بين القيادة البيروقراطية وم.ت.ف وقاعدتها التنظيمية الأكبر حركة فتح من جهة وبين مجموع القوى من جهة أخرى حول الموقف من اتفاق عمان حتى تحركت البيروقراطية ومؤسساتها لكسب موقف الوطن خلف اتفاقها. كانت توجيهات الحزب صريحة وقد وردت في رسالة تلقاها كنعان (يجب أن يدرك أبو عمار أن الأرض المحتلة ليست في جيبه وأنه يفرض بوحداوية تمثيل المنظمة للشعب وبالهدف الاستقلالي)، لذلك فقد غدا النشاط الجماهيري والسياسي لاظهار رفض الوطن للاتفاق محور عمل المنظمات الحزبية والديمقراطية وإظهار تبعاته الخطيرة وأهمها الدعوة لعقد المجلس الوطني السابع عشر والمقتصر على مندوبي فتح ومستقلي قيادة المنظمة في عمان لكسب شرعية التوقيع على الاتفاق بعد أن وقع!.

نظم الحزب بالتعاون مع غيره أحيانا ومنفردا أحيانا أخرى المهرجانات الخطابية والمسيرات ومختلف الفعاليات لتعبئة موقف شعبي ضد مجلس الـ ١٧ ولاتفاق ١١ شباط ولاظهار صوت الوطن. وفي العديد من المؤسسات طغي كالعادة الجانب السياسي على التحالفات فنشكلت كتل يسارية ديمقراطية لخوض انتخابات المؤسسات على قاعدة موقف رافض للاتفاق. لقد ظهر جليا أن الوطن والشعب غير موحد خلف اتفاق عمان وسياسة قيادة المنظمة رغم ليس التعظيم الإعلامي فقط بل والتزييف المضحك للحقائق والمثير للشفقة حول واقع صحافة الوطن، والذي بلغ حد أن تنشر جريدة "الفجر" المقدسية صورة لمسيرة نسائية نظمتها عضوات وصديقات الحزب وهن يلبسن السواد وسط مدينة رام الله احتجاجا على اتفاق ١١ شباط وعقد المجلس الـ ١٧ لتتنشر الصورة وتحتها عنوان "مسيرة في رام الله تأييدا للمجلس الـ ١٧".

في تلك السنة، انتقل "كنعان" إلى بيت سري آخر صغير وذو سقف واطى فرض عليه أن يحني رأسه أن وقف على قدميه!! ودع رفيقه ذو القدم العملاقة "وأفئعه" أنه سيترك الوطن إذ تعب من التخفي!! فيما رفيقه سافر للدراسة على نفقة الحزب!. وفي ليلة شتوية أنهى لقاء سريعا في غرفة من غرف وكره، غرفة يمكن للمارة من الشارع بحذاء وكره أن تلاحظ ضوءها من خلال نوافدها. كانت الساعة العاشرة مساء عندما انتهى من اللقاء، خرج زائره وانتقل "كنعان" إلى غرفة ثانية بعد أن اطفأ المصباح الكهربائي في الغرفة الأولى ومن الشارع لا يمكن ملاحظة الضوء في الغرفة الثانية.

كان اللقاء سريعاً ومتوتراً بحكم المواضيع التي بحثت فيه. ترك كنعان غرفته المضاعة وخرج يتمشى في الممر المحاذي لباب البيت والمنزوي عن جهة الشارع. كانت الساعة العاشرة وخمس دقائق وهو يتمشى بخطوات سريعة ويدخن كعادته عندما يعمل دماغه بطاقته القصوى. فجأة وعند طرف الممر رأى جندياً يقف عند السور الملاصق للبيت ظهره للمر ولكنعان ويتبول! لم يكن مضى أكثر من خمس دقائق فقط على مغادرة زائره وإطفائه للنور في الغرفة التي يرى ضوءها من الشارع!! احتبست أنفاسه، علا وجيب قلبه، أربكه ما رأى لثوان. لم يكن بينه وبين الجندي أكثر من مترين، فقط مترين!! تحرك رأسه ويؤبؤ عينيه سريعاً لجهة اليمين، جهة الشارع والمدخل الرئيسي للوكر، فرأى سيارتين عسكريتين وجنوداً يترجلون منها ويتوجهون نحو البيت نزولاً على درجاته. تحرك الجهاز العصبي سريعاً فانتزعه من ارتبائه اللحظي وصادر له أوامره: دون أن يحدث أي صوت يكشف عن وجوده، تراجع بسرعة. المسافة بينه وبين الجندي كانت قصيرة لدرجة أن تنفسه كان يمكن أن يسمعه ذلك الجندي الذي يمارس غريزته. كان يسمع صوت الخيط البولي الذي ينساب منتهاياً لقاع السور. سار سريعاً ودونما ضجة قاصداً غرفته. أغلق الباب جيداً بالمفتاح والمزلاج، أخذ أوراقه السرية ودخل الحمام وأغلق بابه أيضاً.

- أن خلعوا باب البيت فأمامهم باب الحمام وما بين المحاولتين يمكن حرق ما معي من أوراق. لم يكن في البيت وكراً صغيراً يحتمي به عند المداهمة. كان بيتاً للاستخدام المؤقت لأيام، لأسابيع على الأكثر. لم يكن بيتاً سريعاً بالمعنى الكامل للتسمية. بعد أقل من ثوان على دخوله الحمام، بدأ الجنود بالطرق على الباب بقوة:

- افتح، افتح، الحاكم العسكري. افتح جيش!!

استمروا بالطرق ليضع دقائق. كان طرفهم صياحهم، ثم شرعوا بمحاولة فتح الباب عنوة وبالطريقة التقليدية التي تميز جند الاحتلال ورجال الشرطة الأمريكية: يتراجع جنديان أو ثلاثة للخلف يندفعون بقوة تجاه الباب يدقونه بأكعاب بساطيرهم الثقيلة. كان يقبع في الحمام منتظراً. قتله الانتظار والعجز عن فعل شيء سوى أن ينتظر.

هل تنتهي تجربتي بعد سنوات ثلاث؟ أي تجربة التي ابتدأت لتنتهي؟ انها "تجربة" لا تستحق معانياتها التي بالكاد خلفتها ورائي. ماذا سيقول الحزب؟ لماذا جنت لهذا البيت اللعين؟ ماذا أتى بهم إلينا؟

أكثر من عشر دقائق وهم يمارسون طقسهم في الهجوم بكعابهم على الباب محاولين خلعه. كنعان ينتظر ويجهز نفسه للمواجهة التي رآها مبكرة جدا. فجأة توقفت محاولات خلخ الباب لينتهي "انتظاره" ويلج آخر:
هل أفلت من "قبضتهم"؟ هل ذهبوا أم يكمنوا خارج البيت عل اطمئناني يدفعني لحركة أو إصدار صوت فيتيقنون من وجودي؟ إلا يحتمل أن بعضهم ذهب ليحضر أداة لخلخ الباب أو تفجيرة؟

مع "انتظاره" الجديد كان الشك بسلوكهم يحيره، أي نفس قصير يتمتعون به إذ لم يحاولوا سوى لدقائق لخلخ الباب؟ قرر أن يبادر: تسلل سائرا على رؤوس أصابعه من الحمام وبيده أوراقه وولاعته متحفزا يلتقط أية نأمة تأتي من خارج البيت، تطلع من النوافذ فلم ير أثرا له، سمع فجأة صوت شاحناتهم العسكرية تتحرك ثم تتباعد.

- يبدو أنهم رحلوا. هل أخطر بالخروج خشية أن يعودوا! احتمال الكمين قائم؟ ام ابقى وأعرض نفسي للاعتقال أن عادوا؟

البقاء مخاطرة والخروج مخاطرة والحياة السرية برمتها خروج من واحدة لولوج أخرى وما بين مخاطرتين اتخذ قراره سريعا بالأخذ بالمخاطرة الثانية. فتح الباب محاولا ان لا يحدث أي صوت. قصد السور بسير على مهل واذناه ترصدان أي ذي صوت ذو معنى. تسلق السور سريعا وقفز وأطلق ساقيه للريح في السهل الواسع الممتد خلف البيت قاصدا بيتا آخر ياويه. كان البيت الآخر الذي اختاره بيت سكينه.

أي صدفة سعيدة حملت زائرته على الرحيل عند العاشرة وخمس دقائق بحيث اطفأ الضوء في الغرفة الأولى؟ أي صدفة حملته للتمشي على الممر بحيث يلتقط "طليعة" الجنود وهي تبول؟ أي صدفة سعيدة دفعت مائة ذلك الجندي اياه للامتلاء بحيث يتوقف لثوان فيتمكن كنعان ان يصادفه؟ تذكر دعاء أمه سنة ١٩٨٢ "رح يا بني الله يرضى عليك"! لقد رتب القدر سلسلة صدقاته السعيدة دفعة واحدة، ترتيبا رائعا أنقذه من برائتهم. في حياة الثوري صدف سعيدة كثيرة كهذه، لكن هناك فقط صدفة واحدة سيئة، فبعدها يكون وقع المحظور وقد يدفع حياته ثمنا لسلوك القدر. العمل السري وذكاء المتمرس يلغي صدفا سيئة كثيرة لكن الحياة تملك منها الكثير الكثير بعدد لانهاية امكانات التغيير في أحداثها، لذلك كان الاعتقال والاستشهاد من الاحتمالات التي تكاد تكون حتمية.

وصل بيت سكينه منهكا وتعبا، يلهث من الإنفعال ومن الآف علب السجائر التي تجمع نيكوتينها داخل شرابين رنتيه على مدار سنين. صنع كأسا من الشاي

وتمدد على السرير يتأمل ليلته واحداثها. بدا له انه انتظر لسنوات لا لدقائق بين لحظة بدء طقسهم ولحظة انسلاله خارجا.

انتظاره الآن يختلف عن سابقه سنة ١٩٨٥. حينها كان مضى على حياته - تجربته سنوات قليلة لم تكن قد فعلت فعلها فيه. الآن شيئا آخر. الآن سنوات طوال عاشها بقسوتها، بتحدياتها، بانتاجيتها، صقلته، عجنته وشكلت ملامحه. بين الإنتظارين، انتظار ١٨٨٥ وانتظار سنة ١٩٩١ عاش حياته بالطول والعرض والارتفاع أيضا! لقد حمل صليبه، وزر نضاله، مسؤوليته أمام شعبه، لكن منتصب الظهر لا محنيه. لم يقل ولن يقول يوما كما قال السيد المسيح في آخر صيحة له قبل أن يسلم الروح "الهي الهي لماذا تركتني". وان وقع فلن ينكر معلمه حزبه كما أنكر بطرس القديس معلمه المسيح ثلاث مرات!! انتظاره الان اكثر جدية. الان مصرون، خلعوا الباب الثاني وسيبحثون عنه. انتظاره الان هو الاصعب والاكثر قسوة، انهم يقتربون من جسده المكوم في الوكر الحجري المعتم فيما بات يرى منذ خلعوا الباب الثاني حياته السرية تزحف بعيدا، حثيثا حثيثا كما ثعبان يهرب من عصا تهش في وجهه. بعد نصف ساعة من بحثهم عنه سمع وقع خطواتهم قرب الحزانة التي تخفي وكره الحجري الصغير، كانت خطواتهم ثقيلة، ثقل أحذيتهم العسكرية، كثيره كثرة جنودهم وضباطهم الذين يجوسون البيت. مع وقع خطواتهم يسمع اصوات احاديثهم التي لا يفهمها. لا يفصل بينهم وبينه سوى حائط فيه فتحة وثبته فيه خزنة، هي حفنة من السنتمرات تفصل بين النقيضين. سنتمرات تفصل بين حياة وحياة!! مسافة صغيرة تختصر تسع سنوات طويلة بين فتح باب واقفاله والارجح سيتم بعد قليل اعادة فتحه من جديد. مسافة تحمل على ظهر سنتمراتها كل ذلك المعنى: انتهاء حياة وبدء حياة!! كيف تقوى تلك السنتمرات على كل هذا الحمل الثقيل؟ حمله هو بمعاناة كبيرة، فهل تعاني هي الاخرى، هل تشعر بحملها؟ ■

الفصل الخامس

الفصل الخامس

الخزانة ينفتح. أيديهم تنقر على اللوح الخشبي تتفحصه، تتحسسها، تشمه، كالكلاب تشم أثار طريديتها، تحتبس أنفاس كنعان ويعلو وجيب قلبه.

باب

- آه ما أفسى الانتظار! انتهى كل شيء!

"تلك هي اللحظة يتحسون اللوح الخشبي الخلفي. مليمترا فقط الآن بينك وبينهم. هما فقط سمك اللوح الخشبي. لا سنترات حقيرة بل مليمترا احقر! احرق أوراقك كي لا تدين حياتك السرية. احرق حياتك السرية التي تنمت حروفا وكلمات على الورق. اطلق رصاصة الرحمة على حصانك الهرم ولا تدعهم يهزءون به. لا تسمح بكشف الحزب على الطاولة.

يتحدثون بالعبرية وهم ينقرون ويتفحصون اللوح الخشبي، جرس اصواتهم يحمل معنى تساؤل أحاديثهم، إستغرابهم، تشككهم. أشعل الولاعه. بدأوا يعالجون الخزانة بعثلاتهم الحديدية لاقتلاعها من الحائط المثبتة به بأربعة براغ قوية تنغرز عميقا في الجدار. لم يكتشفوا اللوح يتحرك صعودا وهبوطا، فقرروا خلع الخزانة برمتها، لفحص ما ورائها.

"سارع! حذار أن تسبقك عثلاتهم. أشعل النار في حياتك. تجربتك المرصوفة على سطح الورق الناعم".

قرب لهب ولاعته من الكاز فاندلعت النيران وبدأ سريعا يلقمها بالأوراق. وفي نفس اللحظة ألقى برسالته لهند في فمه وبدأت أضراسه بتفتيتها بصعوبة بعد طيها وتغليفها بأكثر من خلاف بلاستيكي ورقي وقد أصبحت الرسالة بحجم حبة خوخ فيصعب حرقها. النيران تهس وثلثس وجهه وأصابع يديه والدخان المشبع برائحة الكاز بدأ يغزو منخريه ورئتيه. استمر يلقم الاوراق بسرعة جنونية وعتلاتهم تعالج أمر خزانته والدخان يتصاعد كثيفا. أنفاسه لاهثة، تعب، متلاحقه، متوتره. توتر القتال يسيطر عليه. أوراقه كثيرة ووكره ضيق وصغير والهواء لا يدخله. العرق يتصبب من وجهه وهو مستمرا بإلقاء الاوراق في العلبه المشتعلة. حرارة النيران تلهبه والدخان المتصاعد يسبب الحرقه لعينييه ويؤدي رنتيه فيجد صعوبة في التنفس. أحس بنفسه يكاد يختنق.

عتلاتهم لازالت تعالج أمر البراغي الاربعة لاقتلاع الخزانة. اصواتهم وحركات أيديهم كانت محمومه. فجأة حدث ما لم يحسب حسابه، حانت اللحظة التي

يقدم فيها القدر صدفته السيئة مناكفه، حرون، معادية، ابنة عاهرة وسخة! الدخان الكثيف المتصاعد كون طبقة من ثاني أكسيد الكربون فتمتعت تلك الطبقة الأكسجين عن النيران فانطفأت! أحس كما لو روحه غادرت جسده. أي صدفة حقيرة ووسخة تلك! بل أية ترتيبات أمنية ساذجة! أسرع يحاول إشعال النيران من جديد، أعلنت الولاة هي الأخرى العصيان على رغبته فلم تشتعل! شتم بأفزع الشتائم التي حواها قاموس اللغة الشعبية وهو قاموس حافل غني!! صدفة مجافية كهذه في لحظة مصيرية كتلك تبعث على الظن بأن كل الصدف السيئة في العالم تجمعت ضده. كان لا بشر غيره تنلهى بهم!!

سارع يا كنعان، سارع! انت في سباق مع عتلاتهم التي تتقدم وتتقدم. ستنتزع عتلاتهم روحك إن وصلوك وأوراقك حيه ترزق!! جد حلا وبسرعة. لم يجد سوى حلا واحدا أمامه. بدأ يتناول ما تبقى من أوراق ويلقي بها في فمه. يلوكها سريعا ويبتلعها ومعدته عليها أن تتصرف. أضراسه تعمل كما لدى الفأر، سريعة، وقاضمة. يقضم ويلوك ويبلع بسرعة قياسية كنهم حرم من الطعام. أياما وفجأة وجد اللحوم والأطاييب!! بعض الأوراق تشتريت بالكاز ولم تحترق تماما. لم يتردد. تناولها ودسها في فمه، قضمها، لأكها وبلعها. كان له هو الآخر طقسا آخر اخاصا به يمارسه الان، طقسا وحشيا، بدائيا يليق بالانسان-الحيوان، انسان الغابة. الدخان يزداد تأثيره على رئتيه، لم يعد يستطع فتح عينيه من كثافة الدخان ومن ألم حرارته. أغلق عينيه جيدا واستمر بممارسة طقسه الوحشي. قرب أنفه من الشق الخيطي الرفيع ما بين خشب الخزانة وحافة مدخل وكره محاولا بصعوبة التقاط ما يتسرب من هواء يعينه على التنفس. يلتقط خيطا هو انيا رفيعا، رفيعا جدا ويتنفس بصعوبة وعيناه مغلقتان تشتعلان حرارة ويدس بفيه ما بين أيديه من أوراق. معركة على أشدها. من سينتصر؟ ذلك الذي لا يملك إلا أسنانا وأضراسا تطحن ومعدة تهضم أم أولئك بعتلاتهم الحديدية؟

بدأت معدته تؤلمه. في حلقه وجوفه حرقه الدخان وطعم الكاز المقزز. لم يتوقف. تحسس جيدا ما حوله كضربير يكتشف مكان قدمه والأشياء المحيطة به. تأكد ما خلو ما حوله. بالكاد كان يتنفس. بصعوبة كانت معدته تهضم ما تستقبله من أوراق محبرة وعيناه تشتعلان ولا يقوى على فتحهما ولكنه انتصر. كسب السباق-المواجهة غير المزنيه. انتهى من حفلة القضم واللوك والبلع والهضم قبل أن ينتهوا من خلع الخزانة!

أعقبته خزائنه بصنعها وتركيبها وثبتيها في شتاء كان قارضا. ها هي أخلصت له واستبسלתه متمسكة بحائطها الذي تلتصق به، لئلا يمتنع عليهم فتمنحه مدة

كافية لهزيمتهم! كانت هي الأخرى صديقتة، مثل الباب والجدران والطاولة والكراسي والأقلام... كل ما في وكره الكبير. أخيرا انتصر وكسب السباق. لم يشغل ذهنه سوى الاتيان على أوراقه حرقا وبلعا فانتصر. لم يخطر الموت على باله اختناقا، لم يكثر بالموت الذي لم يقترب منه في حياته كما فعل الان. صارع مثل بحار يواجه بحرا هائجا فأنقذ نفسه ومركبه من الغرق. لقد انتصر.

يجلس الآن على حافة مدخل الوكر المرتفعة بضعة سنتمترات ويسند ظهره على الحافة الجانبية للمدخل. كان يسعى لالتقاط أكبر كمية من الهواء الذي ينجح بصعوبة بالتسلل من الشق الخيطي الرفيع. حاول ان يتنفس بانتظام ليريح صدره المتعب. جاهد لفتح عينيه فلم يستطع. كانت عيناه تؤلمانه جدا. أما محاولات خلع الخزانة فقد كانت حثيثة. كانوا يواجهون صعوبة بانتزاعها من الجدار فالبراغي الأربعة المنغرزة عميقا جعلها وإياه جسما واحدا. رغم ألم صدره ومعدته وحرقة عينيه، كان سعيدا. لا أروع من النصر. ينسى الانسان بعده الثمن الذي يدفعه على شرفه. كان فرحا لحفاظه على اسراره وانتصاره في جولته التي عدها الأولى. كل له "تقاليد" في التعبير عن مشاعره. عنده التدخين كان التقليد الثابت للتعبير عن كل ما يعتريه من مشاعر! للحظة الانزعاج، التوتر، الترتب، التفكير، الانتعاش، لا أروع من سيجاره يحب منها باستمتاع. كان وهو جالسا على حافة الوكر يعيش لحظة الانتعاش اذ فاز بالسباق. - لأدخن سيجاره. الله وحده يعلم متى يحين موعد التدخين مرة ثانية! بل قد لا أدخن غيرها! خلع الخزانة كما هو واضح يستغرقهم بعض الوقت. تحسس بيده موضع علبه السجائر. لقد حمل سجائره معه عندما حمل أوراقه واندس في وكره المعتم. كان يتوقع ان يمكث وقتا طويلا وربما لا يجدونه، يفتشون لساعات ولا يجدونه، إن السجائر حينها ستكون رفيقته التي عليها أن تؤنس وحدته في الوكر. الرغبة في السجارة جامحة ولا شيء يعدلها. تناول سيجارته ووضعها بين شفثيه، قرب الولاة. هل ستذله كما فعلت قبل قليل؟ أدار مقداحها محاولا أن لا يحدث صوتا عاليا، خذلته ولم توافق رغبته، شتمها دون أن ينطق. كرر المحاولة ثانية فخذلته مجددا. "هيا يا بنت العاهرة، لا تخذليني، أتوسل اليك" ناشدها باستعطاف، قربها من الشق الخيطي الرفيع بين الخزانة التي ترحزت قليلا ومدخل الوكر، ليستثمر بعض الهواء المتسلل. قدحها ففعلتها وانصاعت.

عب نفسا طويلا مستشعرا الدخان يغزو كل ما مسامات رنتيه وشرابينها. "متع الرجل الشخصية ثلاث: السجارة والمرأة وكأس العرق". جربها الثلاث واقتنع ان حنا مينا، كاتبه المفضل، روائي وحكيم ايضا. أي متعة شخصية يطلبها من يعتد الحياة سنينا بين الجدران، مقيدا بسلسلة لا تنتهي من (الاجراءات، التحولات، المتطلبات والقواعد). كثيرا ما قال له الحزب "رغباتك بسيطة لا تخجل ان تطلبها

فتحقيقها بسيط" شريط جديد للشيخ إمام يتضمن أغان جديدة له. صحننا من "البقدونسية" مع الثوم وكأس العرق. رحلة في السيارة لعشر دقائق يتأمل فيها معالم مدينته ويرتب ما تغير فيها. خمس شطائر "شاورما" وثلاث زجاجات من "البيرة" أي ٣×٥ كما اعتاد هو وهشام ان يسميا أكلتهما المفضلة. طفل لم يتجاوز السنة الأولى من عمره يلعبه لساعات. تلك وغيرها كانت بعض رغباته ومتعة، فالحياة السرية تقزم طلبات المتعة والرغبة الى أدنى حد ممكن، يجعل كل ما هو بسيط عزيز المنال رغم بساطته.

في تلك اللحظة وهو يجلس منتظرا وصولهم لجسده كانت السجارة متعته. دائما كانت بنزين تلك الماكينة المنتصبة بين كتفيه. تختلط متعته بسحب نفس طويل وعميق من سيجارته بانتعاش مشاعره، بضجيج احاديثهم متجمعين عند الخزانة، بصوت عتلاتهم تفتت الخشب وتحكك بالحائط. انجاز مهمتها. انزاح المجهول الذي كان يؤرقه وهو دائما يؤرق من يتحسسه. انزاح وما هي الا دقائق حتى يصلونه، وهذا جعله يهدأ اكثر وجعل انفعاليته تتراجع. نسي امر عينيه اللتين تحرقانه من الحرارة ولم يعد يشعر بطعم الكاز المقزز في حلقه. صدره ممثلي بالدخان الفاسد، يتقبل دخان السجارة كالمعتاد كأن شيئا لم يتغير. كان يدخل هادئا رابط الجأش لا يبدو اثر للانفعال عليه، فقط كان يشعر بارهاق شديد نتاج المجاهدة في معركة الأولى.

حوالي ربع ساعة استغرقهم خلع الخزانة. ما ان انخلعت حتى قلبوها على الأرض، فأحدثت دويا هائلا وتحطمت بعض أبوابها. تدفق الدخان المحتبس في الوكر بسرعة واندفاع، فتح عينيه بصعوبة وبالكاد رآهم جيدا. كان لا يرى سوى اشباحا يغلب عليها اللون الاخضر، تحمل اسلحتها ومصابيحها الكهربائية وترتدي قبعاتها، لم يستطع احصاء اولئك المتجمعون عند الخزانة الملقاة ارضا. للحظة بدا الجنود وكأنهم صعقوا بالمشهد امامهم: الخزانة ستاره مسرح رفعت عن مشهد جمدهم لثوان، مكانهم ومصابيحهم الكهربائية تكشف لهم من يقف على خشبة المسرح: انسان يجلس على حافة باب يقود لجر معتم، وجهه شاحب، تعب، مرهق، عيناه تنفتحان قليلا فيظهر الاحمرار جليا داخلهما. دخان كثيف يتدفق من باب الوكر، سيجارة لم تنته، بتدلى من قم الوجه الشاحب المتعب، وبعض من السخام الاسود ظهر يغطي الجدار المقابل لفتحة الوكر. عندها سلطوا مصابيحهم الكهربائية هجموا عليه بعد ان تسمروا لثوان مأخوذون بما يشاهدون، مدوا ايديهم متدافعين كوحوش كاسرة تتدافع متقاتلة لافتراس صيدها.

انترز عوه من جلسته تلك بقوة وعنف. كانوا يشعرون بسلوكه الاستفزازي حين رأوه جالسا والسيجارة تتدلى من فمه ولم ينهض حينما وصلوه، كانوا يتوقعون بان يتصرف بفرع وبهلع تعودوا ان يشاهدوه في سلوك بعض من يعتقلونهم. تناولوه سحبا من ملايسه، من ابطيه وطرحوه ارضا بوحشية تميز كل جندي احتلالي. بدأوا يكيلون له الضربات على كافة انحاء جسمه بأحذيتهم العسكرية وبأعقاب بنادقهم، وبقبضاتهم وبتركيز على ظهره وخاصرتيه. استجمع كل ما أوتي من قوة ونفض جسده بسرعة ووقف ويكوع يده اليمنى وجه ضربة لاحدهم في صدره فترنح الاخير ووقع على ظهره ليسنده حوض الماء المثبت بالحائط فعاجله أحدهم بضربة من فوهة بندقيته لتصيب حاجب عينه اليسرى اصابة بالغة فتشجه. هجموا عليه بقوة مستفزين من دفاعه عن نفسه. عادوا وطرحوه ارضا ليعودوا لضربه بوحشية اكبر، احدهم يمسك برأسه من الخلف ويضربه في الارض، وآخرون تكفلوا بتوجيه الضربات بأحذيتهم الى ظهره وخاصرتيه وقدميه، استمروا يمارسون وظيفتهم حوالي خمس دقائق وخلالها لم يكن لسانه ليكف عن الشتائم بنوعيتها السياسية والجنسية وكلاما شتم ازدادوا همجية ليزيدهم شتما.

سمع صوتا قدر انه يطلب منهم التوقف عن الضرب. اوقفوه على قدميه وكان لا يستطيع التحرك من الم الضربات على كافة انحاء جسده والدماء تسيل على وجهه متدفقه من الجرح النازف من حاجبه الايسر. طوقوه واوتقوا يده خلف ظهره بحبل مطاطي حبس دماء يديه. اوقفوه في الحمام وظهرة للحائط واثنان يصوبان نحو صدره بنادقهما الآلية من نوع "ام ١٦" كما لو ان حكما بالاعدام سينفذ به. اقترب احدهم منه، ومن ملايسه المدنية قدر انه ضابط في المخابرات، بأدره كنعان: - اسمع انا مناضل ثوري وماركسي متفائل باننا يوما ما سننتصر وننتزع حقنا وهذا يمنحني القوة ويجعلني لا اخضع للارهاب وللزعرنة التي تمارسها انت وجنودك. لا تعتقد ان هذا يمكن ان يفيدكم بشيء فانتم لا تخيفونني.

كان يتحدث بانفعالية وبصوت عال، ولكن كلماته نطقها باصرار ووضوح. كان يريد ان يتعرفوا منذ البداية على حقيقة قوته دونما رتوش او تردد. هي مواجهته الاولى المباشرة معهم ويريد حسمها لصالحه فعلى المواجهة الاولى يتوقف الكثير. رد رجل المخابرات بعربية ركيكة وهو يرفع أصبعه في وجهه (كنعان) مهددا:-

- انتبه لما تقول. نحن لسنا ارهابيون او زعران. نحن ننفذ القانون. الارهابي من يختبئ كهذا [واشار بيده نحو فتحة الوكر]. انت الذي بدأ بالمعاندة والمشاكل. انا لا اريد الامور هكذا. لماذا لم تفتح ابواب البيت؟ لماذا كنت هنا؟

- أبواب بيتي افتحتها لمن اشاء ومتى اشاء فهو بيتي فهذا شأنني وليس شأنك ولا تسألني عنه.
- ما اسمك؟ من أنت؟
- لن اقول لك!
- جحظت عيناه وهز راسه كمن يكتشف حقيقة ما:
- ما الذي حرقتة هنا؟ لماذا كل هذا الدخان؟

قال مشيراً للمرة الثالثة تجاه الوكر وبقايا الدخان لا تزال تتسرب وان قليلا منه. رغم الازهاق الشديد والم ضربات وتوتر المواجهة والموقف لم يستطيع كنعان الا الابتسام لهذا السؤال الغبي. رد والابتسامة الخفيفة تتطبع على وجهه المرهق، المدمي:

- سؤالك غريب! بل ومضحك، لو كنت اريدك ان تعرف ما الذي حرقت لما حرقتة اصلا!

لم يرد بشيء بل امعن النظر بكنعان وهز راسه ثانية. ادار راسه تجاه جنوده وخاطبهم بعبرية لم يفهمها. القوه ارضا ممددا على بطنه بعد ان عصبوا عينيه وأوتقوا قدميه بحبل مطاطي شبيه بالذي قيدوا به يديه.

آخر انتظار اترك في حياتك السرية انتهى. انفتح الباب الذي صرخت فيه يوما: ألن تنفتح يوما؟ ألن أخرج منك لأعيش في الطبيعة؟ ها هو انفتح، قدماك لن تنفلك للطبيعة بل للزنازين الننته، اما بعدها فلا تعلم، اخر ليلة تقضيها في بيتك السري، تودعها الان الى غير رجعة. املك الواهي بان لا يجدونك تبخر من امامك وها انت على ارضية الحمام ممددا وهم من حولك يجوسون البيت. المجهول انزاح فسحبوك من وكرك ليحل محله مجاهيل ومجاهيل. عد لممارسة رياضة "الانتظار" - المجهول فتدبر امرك الان كما تدبرت منذ سنين ان تواجه وتتحدى، واول الغيث قطر: علامات احدثتهم وقبضاتهم وبنادقهم على حاجبك الايسر الذي يسيل دما، على ظهرك، راسك، خاصرتيك. تنبأت ان معركتك معهم ستكون دامية كتلك الدماء التي تسيل فتغطي وجهك والبلاط الذي يلامسه. وطن النفس على معركة دامية ومطولة فاول الغيث قطر، اول الغيث قطر.

سمع خطواتهم تتحرك في البيت وتدلل على كثرتهم. اصواتهم تملأ البيت الذي كان ساكنا قبل اقل من ساعتين. اصوات بعضها أمر وبعضها يناقش ثالثة تسأل ورابعة تنادي.. كانوا في غمار حركة دائمة فقد وقع بين ايديهم الليلة من لم يتوقعوا ان يقع. ظروف القبض عليه داخل الوكر، النار، الدخان والغرفة التي تحتوي ماكنيات الطباخة، كل ذلك جعلهم يعملون بسرعة ونشاط وفرح. وثاق يديه

جعل الدماء تحببسي فألمته. الجندي الذي أوثقه لم يجد وسيلة للانتقام غير شد وثاقه للدرجة التي ألمته. جندي تافه ينتقم بطريقة تافهة!

يحاول كنعان ان يحرك يديه ليخفف بعض الشيء من شدة الوثاق. كان يتأمل نفسه وهو ملقى على ارضية الحمام وعلى قناعة تامة بان واجب حزيه محاسبته ومساءلته. لقد كان يسأل دائما عندما يعتقل احد رفاقه: أتساهل مع اجراءات التحوط وجعلهم يقبضون عليه ام بذل كل ما بوسعهم للتخلص والتمرد على الاعتقال. من باب اولى ان يضع نفسه امام حزيه موضع المساءلة. كان حزيه يقول له دائما: (أمن بيتك مسؤوليتك، دقق مرة واثنين وعشر وضع قواعد لحياتك لتحافظ على نفسك). لم يكن ليتردد بذلك.

كنت ادقق مرة واثنين وعشر فماذا جرى؟ كيف وصلوا الي؟ كيف وصلت لهذا الوضع؟ دهمته الاسئلة من جديد. تصر هي ان تطرح ويصر هو على ان الاوان لم يحن لها. لا تحمل مسؤولية اعتقالي كاملة، مسؤولية هجراني للصفوف، بعد ذلك فقط يمكن نقاش الأسباب التي أدت لاعتقالي.

أصواتهم لا تزال تهتك هدوء وسكينة سنين ميزا بيته. مجرد المقارنة بين حال بيته قبل ساعتين والان يشعره بغضب لا يوصف. سهر مع هشام في الغرفة التي يلقون به على أرضها الان وعوضا عن شوي اللحم الذي احضره هشام معه، اقترح كنعان تأجيل حفلته ليوم آخر خلال النهار. استعاضا عن اللحم بالسلطة مع الزيت والجبنه البيضاء والمخللات. لا زال الطبق الكبير يحمل بقايا عشائهم موضوعا في مكانه: على الطاولة الصغيرة في الغرفة اياها امام التلفاز. تناقشا في كل شيء، تابعا فيلما بريطانيا، تعشيا ثم انتقلا عند منتصف الليل الى غرفة النوم. كعادته كل ليلة نقل التلفاز معه لغرفة نومه اذ كان قبل ان ينام يقوم بجولة بحثا عما يمكن متابعته في التلفاز. لم يجدا ما يغري المتابعة فتناول هشام كتابا ليقرأ فيما اندس كنعان في الفراش لينام وما هي الا دقائق حتى كان ما كان. يتذكر كنعان ويشعر بالامتعاض. لقد عبثوا ببيته-عرينه. يخربون كل شيء فيه. يجب ان يدفعوا الثمن. معركةه الاولى بحرق اوراقه بداية دفعهم للثمن، رفضه اعطائهم اسمه خطوه اخرى سيلبها خطوات اخرى. مهما دفعوا من ثمن فلن يدفعوه كاملا. معركةه بحرق اوراقه استعداد تفاصيلها التي ما برحت تفكيره بعد: الاوراق، الكاز، الولاة، اللوك، البلع، صدره، معدته، عيناه... معركة جنونية كانت بينه وبين عتلاتهم. عجيب امر الانسان، لا يتذكر في لحظات السلم سوى ضعفه، ترده، عجزه فيما في لحظات الخطر، زمن الحرب يكتشف ان لديه قوة جبارة يصعب احيانا وصفها. عندما يقاثل الانسان دفاغا عما يعتبره حياته، باراده وقناعه راسخه بعدالة قتاله

ومشروعيته فإنه يتحول لانسان غريب بقوته، شاذ بتصرفاته. في ظرف طبيعي لم يكن كنعان ليقدّم على ما اقدم عليه داخل وكره ولو منح كنوز الدنيا! كاد يخنق من الدخان، كان اللهب الذي هب فجأة بفعل كمية الكاز الكبيرة ان يحرق وجهه وعينيه . كل ذلك لم يثته داخل الانسان طاقة هائلة على التحمل. ذلك كان واجهه مرارا في حياته السرية.

وبعد نصف ساعة من القائه ارضا في الحمام حوالي الثانية والنصف بعد منتصف الليل عاد رجل المخابرات من جديد. انهضه عن الارض، قطع وثاق قدميه وقاده الى غرفة النوم يرافقه جندي. حينما ازاح الجندي الغطاء عن عيني كنعان تمكن الاخير من النظر لغرفة نومه لثوان: خزانة الملابس مخلّعة، كل قطعة فيها ملقاة في جهة وكيفما اتفق، فرشاة الاسرة ممزقة باداة حادة ومحتوياتها من الاسفنج متناثرة في الغرفة، ملابسه ملقاة على ارضية الغرفة وبعضها ممزق، تمزيق الملابس عكس توترهم ورغبتهم بالانتقام والا فماذا سيجدون بين خيوط ملابسه ليمزقوها. فقط التلفاز وطاولته بقيتا كما هما فمصادرتهما أهم من تحطيمهما. غرفته لم تعد غرفته، بعدما ازاح الجندي غطاء عينية تناول سكيننا ودار خلفه وامسك بيديه لفك وثاقهما فيما ضابط المخابرات يقلب بعض الكتب الملقاة على ارضية الغرفة. بينها كان كتاب "الدفاتر الفلسفية" للينين الذي كان قرأه قبل ايام. كان رجل المخابرات يدقق النظر في الكتاب وصفحاته والهوامش التي كتبت على اطرافه.

أثناء فك وثاق يديه انغرس سكين الجندي في اللحم عميقا. احس الدماء تسيل من يده:

- انتبه، يدي يا اخو الشرموطه!

صاح بالجندي متأوها. انتبه رجل المخابرات لصيحته ولشتمته:-

- ماذا جرى؟ لماذا تسبب الجندي؟

لم يرد. كان يتطلع ليده التي يسيل الدم منها غزيرا، لاحظ رجل المخابرات الدم فاقترب وامسك بيده يتفحصها ثم تفحص حاجبه المدمي ايضا. تحدث للجندي ثم توجه لكنعان:

- انا آسف لما فعله الجندي فهو لم يقصد ان يجرحك. عندما تصل للسجن اعدك

بعلاج طبي لعينك ويدك. طبيب السجن سيفحصك فهذا هو القانون. كل ما حدث

معك منذ وجدناك في مخبأك تطورات لا نريدها.

- اعتذارك لا تخفي حقيقتكم عني كما انها لا تعيد الدماء التي تسيل. جنديك

ربيتّموه كفاشي وهو مخلص لتربيتكم.

لم يبد عليه انه سمع ما قيل او انه تعمد ان لا يسمع ما قيل!

- ما اسمك؟ لماذا لا تريد أن تقول لي؟

استقر كنعان لهذا الاسلوب الساذج، مقدمة مليئة بوعود واعتذارات ملحقة بسؤال عما يريد معرفته: اسمه. وبنفس الوقت امتعض لان رجل المخابرات اعتقد ان هكذا اسلوب ينطلي عليه (لم يعرفني كفاية حتى اللحظة) حدث نفسه فيما كان رجل المخابرات يحمل بيده بطاقتي هوية شخصية، الحقيقية تحمل اسمه كنعان صبحي والثانية مزورة فيها اسمه المستعار عادل امين. كان كنعان يدرك ان معرفتهم لاسمه الحقيقي ليست بالمهمة الصعبة، اتصال لاسلكي كفيل بكشف الحقيقة فمخابراتهم تبرمج عملها وفق الكمبيوتر ويطرق علمية لكنه قرر ان لا يعطيهم الاسم وعلى سبيل التحدي.

- مرة اخرى لن اقول اسمي لك!

- لماذا؟ قالها محاولا ان يظهر بمظهر هادئ الاعصاب.

- اولا لان بيتي ليس غرفة تحقيق حتى تسألني وثانيا لاني اريد هذا!

ابتلع اهانة الاستعلاء الكامنة في الجواب.

- نحن يمكننا بسهولة معرفة شخصيتك عبر الاتصال بالمقر من هنا. نستطيع حل المشكلة بثوان لكن القضية لا تستحق كل ذلك. اعتقلتك واريد ان اسجل اسم من اعتقلت يعني محضر اعتقال أفهم؟ يعني هل أنت كنعان صبحي كما هو في هذه (ولوح بيده ببطاقة الهوية الصادرة منذ ١٥ عاما) ام انك عادل امين كما في هذه (ولوح بيده الأخرى ببطاقة الهوية المزورة منذ عام) كل ما اريده الاسم. المسألة بسيطة.

لكنه قرر ان لا يجعل منها قضية بسيطة.

- لن اعطيك اياه وعندما تشرع بالتحقيق قد اقول او اترك لك حل هذه المشكلة!

- نحن من يقرر الان لا انت. عليك ان تفهم ذلك جيدا والا سنتعب دون فائدة. انت

الان معتقل. افهم ذلك جيدا.

- سنرى من يقرر!

- سنرى ذلك انت! غير ملابسك الان فهي ناقعة بالدماء.

القميص الداخلي اصطبغ بالدم وبقع اخرى تظهر على بنطال منامته، خرج رجل المخابرات وأبقى حارسا يشهر سلاحا بوجهه. تحرك في الغرفة للبحث عن بنطال وقميص يلبسه. كان يتحتم عليه ان يبحث عما يريد اذ لم يبق شيئا في الغرفة على ما كان عليه فمعالم طقوسهم البدائية تظهر جلية على محتويات غرفته، انهى تغيير ملايسه وربط خرقة من القماش حول يده ليمنع استمزاز نرفها، اعاد التأمل في غرفته مستغلا فرصة عدم ربط عينيه.

هاهي النافذة، نافذته على العالم. كم قضى من وقت هنا واقفا او متمشيا بينها وبين الجدار المقابل، جدار وكره الحجري المعتم. كان ينظر لعمال المصنع المقابل، مصنع الشكولاته وهم يتمشون عند الظهر يقضون ساعة الغداء. كان سمع ان متوسط اجورهم لا يكفي العامل ثمن التدخين واجرة المواصلات ان كان من ساكني الريف فيما المصنع مشهور بجودة انتاجه وتوزيعه الواسع ودخوله للسوق الاسرائيلي. اما في الانتفاضة فقد كسبها صاحب المصنع مرتين: تزايدت مبيعاته نتيجة وقف استهلاك المنتج الاسرائيلي وقام بخفض اجور العمال استغلالا للبطالة الواسعة!. ومع ذلك يصرخ صاحبه كغيره من الرأسماليين (تضررنا من الانتفاضة، نريد دعما...). من نافذته نغم على عمال معمل الطوب وعلى ماكيناتهم الصاخبة التي كانت احيانا توقظه من النوم في الرابعة صباحا حين لم يكن قد نام ساعتين او ثلاثة ... من نافذته تلك كان يغذي ناظره من فتاة تسير في احد الشوارع المؤدية لبيته، من المترددين على المشاغل القريبة، من الحركة الحثيثة نهارا امام المطعم المجاور، من سيارة يتكرر ظهورها او اخرى تقف على ميعده من الطريق تشير التساؤلات.... من نافذته تلك كان يصب سبيلا من الثنائيم على اليوم الذي ظهر فيه نوع الكلاب على وجه البسيطة عندما تبدأ بمعزوفتها الليلية دونما مناسبة وبعرزف يستمر احيانا لساعات! من نافذته وفي يوم من ايام الاضرابات الشاملة الانتفاضية رأى مرة شاب وفتاة يدخلان ممر البيت باتجاه الباب، لم يقرعا الجرس الكهربائي او يدقا الباب كما لم يعودا ادراجهما. استغرب سيلوكهما، كانت الشوارع خالية من المارة والحافلات. انتقل للشرفة التي منها يمكن رؤية الباب الذي تحتها مباشرة، تطلع خلسة دونما ضجة فاذا بهما يتبادلان القبل ساترين نفسيهما بالحائط القائم عند الباب، تراجع بهدوء دونما ضجة تاركا لهما فرصة اقناص لحظات سعادتهما التي يضطرون لسرقتها خلسة وبهذا الوضع المنفرد. مسكينان فقد اعتقدا ان البيت خال من السكان فهكذا كان يظهر، لا بأس قال حينها ليعتقدا ما شاءا مع ان ذلك مضر لسرية البيت، المهم انهما فازا بلحظة سعادة!. من نافذته تلك كان يرقب هندا عندما يحين موعد قدومها وعندما تتحرف يمينا فتعبر من الشارع الرئيسي للشارع المؤدي لبيته... كان يقفز فرحا وما هي الا ثوان حتى يفتح لها الباب منتظرا ان تدلعه!. عند تلك النافذة وقف هو وهشام ينظران خلسة الى الشارع المؤدي للبيت، الى مدخل البيت عندما سمعا حركة مريبة قبل اكثر من ساعتين ليكتشفا اشباحا لم يتحققا منها جيدا!

حالما انهى تغيير ملابسه قام الجندي بتقييد يديه وقدميه من جديد وبعبس عينيه واقعه على الارض. كان كنعان يتأمل سحنه وملامح الجندي وهو يبحث عن ملابس يرتديها. كان جنديا صغيرا بالكاد جاوز الثامنة عشرة، غرا بكل ما في الكلمة من معنى، ضعيف البنية وصغير الحجم، وجهه ذو ملامح طفولية، أنفه

الأقنيم الثلاثة - وسام الرفيدي ٩٠

صغير لا يكاد يظهر في وجهه، فمه تحسبه خرما صغيرا منسيا في وجهه وليس
فما باختصار كان كل ما فيه يذكر بكل شيء صغير. الاطباعات على وجهه تنبئ
عن انسان لا يفقه شيئا مما يجري حوله بل اكثر من ذلك تنبئ تقاطيع وجهه بانه
مرتعب لسبب ما، ربما ما جرى بعث الرعب في قلبه: ابواب تخلع، دماء تسيل،
مخبأ ونيران ودخان واحتكاك بالايدي، جندي كهذا كما قدر كنعان من الصعب ان
يكون قد شارك بقتال حربي. فقد بدا وكان مداهمة البيت معركة الاولى في حياته
العسكرية: "أي جندي هذا انه طفل". حدث كنعان نفسه وهو يرتدي ملابسه
ويصوب نحو الجندي نظرات قاسية استفزازية تحمل طابع التهديد. لقد تملكته رغبة
جامحة لاهانة الجندي بطريقة ما. كان جنديا يجسد التناقض بين الدور الذي رسم
له كجندي احتلالي قمعي وبين وجهه ذي الملامح الطفولية التي تنبئ عن رعب
وجهل بما يجري. (هل هذا الجندي هو من كان قبل اكثر من ساعتين يمارس
الطقس الوثني، الجماعي، البدائي، ويرقص رقصة أكل لحوم البشر على باب بيتي؟
هل هذا من انهي حياتي السرية الليلية؟ من دنس عذرية بيتي، اغتصبها). شجر
بالامتعاض والنقمة اذ خطرت له تلك الاسئلة حالما قعد مقيدا معصوب العينين.

بدأ هذا يمارس صبيانيته كان يريد ان يقنع نفسه بانه يمتلك قوة لا يمتلكها
كشخص في الواقع امام قوة "المخرب الارهابي" الذي يجلس امامه. لقد لاحظ قوة
"المخرب الارهابي" منذ ان بدأ يمارس كجندي طقسه حتى اشتباكهم معه بالأيدي.
كل ما رافق المداهمة وتخللها من مواجهة سريعة مع رجل المخابرات، اظهرت
للجندي قوة من يجلس امامه فتحركت عقده النقص لديه فاخذ يعبر عنها بحركات
صبيانية استعراضية استفزازية ليقنع نفسه بقوته. تناول الجندي قرصا من الحديد
يستخدم في رياضة رفع الاثقال وزنته ١٥ كغم ووضعها على رأس كنعان. تهدد
الاخير متأففا بصوت مسموع وحرك رأسه ملقيا بالقرص على الارض، عاد
الجندي وكرر فعلته. (يريد ان يتسلى ابن العاهرة) حدث كنعان نفسه والقى بالقرص
من جديد ارضا. ازاح الجندي حينها العصابة عن عيني كنعان وصوب بندقيته نحوه
مقربا فوهتها من صدره حتى كادت تلامسه وتكلم بالعبرية بكلام لم يفهم منه سوى
كلمة "خبلان" وتعني "مخرب" واعقب حديثه بصيحة "بوم" مقلدا اطلاق النار
بحركة تمثيلية.

- احرص وضع بندقيتك في مؤخرتك.

قال بصوت اراده عاليا بعض الشيء. لم يفهم الجندي ما قيل له وحينها دخل رجل
المخابرات الذي يبدو انه سمع ارتطام القرص الحديدي بالارض مرتين وكذا
صوت كنعان.

- ماذا جرى؟ لماذا تصيح؟

- هذا الولد المنيك (واشار براسه ناحية الجندي) يريد ان يلعب، يضع القرص على رأسي والبندقية في صدري ويهدد باطلاق النار. انا لا احتمل حركاته الصيانية، افهمه ان يتجنبي وان حركاته لا تخيفني.
- لا تتوآقح عندما تتحدث عن الجندي. يبدو انك متقف وبيتك مليء بالكتب ومع ذلك فلساتك وسخ جدا.
- صبري سينفد بعد قليل. احذر. الجندي ساطلب منه ان لا يقترب منك. كان يتحدث وهو يلوج باصنعبه مهددا.
- انتم تستحقون الشتائم لان سلوككم دموي وفاتشي. هل تريد ان اشكره على زعرناته؟
- ساطلب منه ان لا يقترب منك. انتهىنا.

وتحدث مع جنديه بلهجة أمره زاجرة، انكمش هذا الاخير كطفل عوقب. خرج الضابط بعد ان اعاد عصب عينيه. كان واضحا ان رجل المخابرات بدأ ينفذ سياسة التحقيق: يريد تهدئة الامور ما امكنه. وتعمد زجر الجندي امام كنعان كي يفرغ بطريقة ذكية شحنات الاحتقان والحقد داخله ولكي يمهد لمد جسور من الحوار المتعل يعتمدها ستخدمه في التحقيق. الفرق واضح بين رجل المخابرات والجندي. الاول يفكر بمهمته المقبلة وبدأ منذ اللحظة الاولى للاعتقال بالقيام بها، فيما الجندي انتهى مهمته بانتهاء عملية الاعتقال.

مكث في غرفة النوم مقيدا معصوب العينين جالسا ربع ساعة اخرى ولم يقترب الجندي فيها منه. بعد ذلك انهضه احدهم وسحبه سحبا وهو مقيد اليدين يجرهما خلفه حتى الواسعة والقاه ارضا ممدا على بطنه ووجهه معصوب العينين، يلامس أرضية الغرفة لتبدأ مرحلة الانتظار الاكبر داخل وكره المنتهك. ■

الفصل السادس



الفصل السادس

عصبه العينين بالارض فازاحها قليلا لاسفل، مع الاحتكاك اصطبغت بقعة البلاط الملاصقة لجبينه المدمي بدماء كثيرة سالت منه. كان الان بتحريك طفيف لرأسه، ليؤبؤ عينه اليمنى يستطيع ان يرى من خلال العصبية المنزاحة قليلا أرجل الجنود المتحركة. لا يمكن ان تكف عين معتقل عن محاولة القيام بوظيفتها سواء كانت بين ايدي جنود او في ساحة الشبح في اقبية التحقيق. دائما تسعى العين لكسر الطوق وللنظر وليست بحاجة لتدريب لتقوم بذلك فما ان تعصب او يغطيها كيس حتى تجد طريقها.

يعبثون ببيته، عالمه. بيته الذي استعصى عليهم سنين وسنين اضحى ارضا تستبيحها احذيتهم الثقيلة بشعة الهيئة. حياته التي بقيت سرا مكتوما حتى عن أقرب المقربين اليه تتكشف الان امامهم وهاهم يهتكونه. اينما تحركت ارجلهم كان يستشعرها تتحرك فوق سنينه الماضية، سنين عاشها خارج قيدهم، خارج اجراءاتهم التي تكبل يديه، ملك للحزب والنضال. اما الان ققيودهم تلتف حول معصمه الذي كان لسانه وقد نطق عملا وجهدا، تلتفان حول قدميه لتمنعانه من التمشي بين جدار وجدار يفكر ويحيا تجربته. عصبه العينين تحرمه من رؤية اصدقائه، كتبه، اقلامه، الابواب، الجدران... بيته كان بقعة مجررة وسط ارض محتلة مارس فوقها سلطته، انتشى يوما اثر يوم وشعور بالتحدي يغمره وهو يحيا فوقها.

بتمزيقهم للارائك والفرشات كان يراهم يمزقون روحه وجسده، بعبثهم بمحتويات مكتبته كانوا كمن يعبثون بزاده اليومي، يدوسونه بأقدامهم كي لا يتزود منه ليوم جديد. اينما تحرك بؤبؤ عينه رأى احذية عسكرية- بساطير باللونين المعهودين الاحمر المائل للبنى والاسود الغامق. تتحرك البساطير يمينا ويسارا، تذهب لتعود تتوقف لتتحرك من جديد، عيناه لا تريان سوى مجموعة كبيرة من البساطير بينهما عدد قليل من الاحذية المطاطية الخفيفة التي يرتديها رجال الشرطة، والاحذية الرياضية التي يرتديها رجال المخابرات. السيادة كانت للاحذية الرياضية، هي تفكر، تخطط، تتخذ القرارات، تصدر الاوامر وتقود الحملات ليلا فيما على البساطير ان تطيع وتتصاع وتنفذ الاوامر. اما الاحذية المطاطية فلا أكثر من اضعاف الشكل القانوني المزيف على السلوك الاحتلالي العسكري القمعي. نظام عسكري مراتبي، الجذاء الرياضي على رأسه والبسطار في قاعه وما بينهما كل انواع الاحذية والنعال كل حسب رتبته ونوعه ولونه يتدرج في الهيكل.

ما بين الحذاء الرياضي والمطاطي والبساطار اختزلت عيناه المتلصصتان الاحتلال لمجموعة من البساطير والاحذية. ابشعها كانت البساطير، جلدية، خشنة، متربة، ثقيلة، متسخة ووحشية الهيئة، مغبرة وفوق ذلك مدججة بالسلاح من اعلى عنقها حتى اسفل كعبها الثقيل والسلاح المحبب لديها كبساطير احتلال هو الامريكي وبنديقية "ام ١٦" تحديدا. البساطير هي تجسيد لوحشية وعدوانية الاحتلال. الاحتلال نفسه ليس سوى بسطار يقرر ويسن قوانينه، يقمع، يعتقل، يشرذم، يقتل ويحكم. اينما وجد بسطار وجدت الوحشية والعدوانية وهذا مغزى عالمي يتخذه هذا الحذاء العسكري يقابل المغزى الذي تتخذه حماسة السلام.

رات عيناه الاحتلال باكملة نظام ودولة وسلطة وقوانين كلها تتكثف بالاحذية. غاية من الاحذية ومن لا يعرف الاحتلال فليظن لتلك الغاية فليعرفه على حقيقته كما رآها كنعان وهو ممدد على بطنه يتلصص مختلصا النظر مقيد اليدين والقدمين. كان يتأمل المشهد كمخرج سينمائي يدقق النظر في حركة ممثليه عبر عدسة التصوير، لكنه مخرجا لا يصدر الاوامر والتعليمات والتوجيهات، فقط يراقب، يدقق النظر ويتأمل. كان في الواقع متفرجا لا مخرجا، المخرج هو الحذاء الرياضي والممثلون بساطير (المشهد يصلح لفيلم سينمائي حول القمع والنضال) قرر وهو يتأمل غاية البساطير ويرى جسده نعشا كما رآه مرة في تأملاته ملفوفا بالاعلام محمولا على اكتاف اعضاء الحزب والجماهير!.

لكنه ليس مشهدا سينمائيا ذلك الذي تراه عيناك. انه حقيقة واقعه تدوس بتقلها حياتك ومستقبلك. ان بساطير مشهدهك ايها المخرج بل المتفرج قلبت حياتك راسا على عقب، انتزعتك من حزيك ورفاقتك ومهامك في لحظة حساسة وحرجة من عمر حزيك. البساطير الان تقرر مصيرك بعيدا عن الشمس ستأخذك، لزنزانتك اللنته او لقبرك المعتم او لغربتك القاتلة. من حضن جدران بيتك وابوابه ستحملك والى قلب المجهول تقودك، أنهت حياتك السرية ومعها ما اعتقدته اقنوما "ثالثا" انتظرته يكمل دينك. قبل ايام انسل الاقنوم الثالث من بين يديك كمياه تحملها راحتك تحتضنها فتتخل سائلة تحت قدميك. المستقبل فقط يحمل في احشائه الاجابة حول اقنومك الثالث كما يحمل الاجابة حول حياتك كمناضل. ارقب ودقق وتأمل بعين مخرج او متفرج لا فرق! مارس هوايتك في التأمل كما اعتدت في سنينك الماضية. لا يتاح التأمل بعمق وسعه الا لمن يحيا حياتك، تأمل غاية البساطير الان كما سبق وتأملت كل شيء. تأملت وانت تسير بين جدار وباب، تأملت وانت تجلس على الشرفة وكأس العرق برفقتك والسيجارة تتدلى من فمك، تأملت وانت مستلق على السرير تدخن في عتمة الليل، سرح بك تفكيرك فتأملت وانت تطهو فوضعت سكرًا عوضا عن الملح فوق الارز فالقيته في سلة النفايات شاتما تأملاتك وحياتك! لقد

وصلت تأملاتك حدود المقبرة، كنت جثة مزقها التعذيب أو الرصاص ملفوفا يعلمين، علم الوطن وعلم العمال محمولا على النعش ورفاقك يؤبنوك ويهتفون بأسمك، وصلت تأملاتك حدود انتصار الاشتراكية، فهل نجحت تأملاتك-احلام يقظتك بان توصلك لما انت عليه الان ممدا على بطنك مقيد اليدين والقدمين معصوب العينين ومدمي الجبين وسط غابة من البساطير؟ هل نجحت عدسة احلام يقظتك طوال تسع سنين بان تلتقط مشهدك السينمائي الان؟ احلام يقظتك قصرت عن واقعية الحياة، خذلتك، لم تسعفك بكنوزها عن التصورات والاحلام والتأملات... لا تسارع فتلعنها فقد كانت ممثلنة بالخيال محدودة بالمتغيرات اللانهائية. الحياة اوسع بكثير من حدود الخيال واحلام اليقظة.

- اعترف، اعترف. لكن لا لوم على احلامي، قصرت ولكنها كانت متفائلة جميلة.

- أي تفاؤل هذا؟ رأيت جسدك نعشا عندما راقبت البساطير.

- كيف تتفاعل احلامي والبسطار فوق رأسي؟ اين البسطار وغابته من التفاؤل؟

- اذن لم تكن احلامك دائما متفائلة. ان تحول جسدك في خيالك لنعش ليس تفاؤلا وليس تأملا متفائلا.

- الاستشهاد نهاية مناسبة للمناضل. البطل من يمت في الزمان والمكان المناسبين. نعشي كان باسم يسخر من القتل.

- دعك من فيلسوفك هذا فقد مات غرقا في حفرة امتصاصية.

- ولكنني اسعى لميته شريفة وهذا حلم متفائل، مسعى متفائل.

- التفاؤل في السعي للانتصار لا في السعي للموت حتى لو كان الموت استشهادا.

تمسك بالحياة تنتصر في صراعها، الم يقل لك مهدي عامل ذلك؟

سمع حركة قدرها آتية من الغرفة المجاورة للباب الحديدي فتذكر هشام. ماذا يفعل هشام الان؟ هل يتأمل البساطير مثلي؟ أه يا هشام يا رفيق زمن القوة والتحدي، يا رافعة حقيقية استمتعنا الليلة الفاتحة بالفيلم السينمائي؟ ادخل المعركة يا رفيق متمسكا بالحياة، منتصرا لها كي تنتصر في صراعها. متى نلتقي لا اعلم ولكننا سنلتقي حتما وقد انتصرنا في صراع الحياة.

هشام مثله كان ممدا على بطنه مقيد اليدين والقدمين ومعصوب العينين يعيش هو الآخر تأملاته. احد البساطير يذهب ويعود، يتوقف عند رأس كنعان يشتمه وينصرف. حجمه الكبير يؤكد انه يحمل فوقه كتلة من اللحم الخنزيري. بين ذهاب واياب قرر البسطار ان يعرف على نفسه جيدا وبصورة جلية. توقف عند رأس كنعان وارتفعت احدى قطعتيه وحطت على رأسه ضاغطا اياه للارض، قاصدا ليس فقط اذاءه بل والتلذذ بتمرير وجهه بالدماء التي تسيل من حاجبه والتي

تجمعت على بقعة كبيرة من الأرض عند موضع راسه. اشتعل الحقد في قلبه، رفع راسه بصعوبة لأعلى والبسطار يرمى بثقله ضاغظا لاسفل. راس يجاهد ليرتفع والبسطار يضغط. الرأس يجاهد فيرتفع ليضغط عليه من جديد وهكذا لدقائق حتى تراجع البسطار ذو اللحم الخنزيري. أخيرا ورحل من عنده لمهام أخرى عليه ان يقوم بها. ليس الحقد على الاعداء يولد مع الانسان او يرضعه مع حليب امه. جينات الوراثة لا تتضمن الحقد، حليب الام يمتزج به حنانها ودفؤها وقبالاتها لا حقد، الحقد على الاعداء يولده عدوانيتهم ووحشيتهم كرد فعل طبيعي وانساني، لذلك من لا يرد بالحقد على العدوانية والوحشية فانسانيته ناقصة بل تكاد تكون معدومة. بازدياد العدوانية والوحشية يرتفع منسوب الحقد، تلك معادلة رياضية في العمل الثوري. كان البسطار في غرفته الواسعة بعد منتصف الليل بقليل قد اضاف لكنعان درسا جديدا في الحقد، اضاف له جرعة اضافية على حقد.

اينما تحركوا في بيته عبثوا في عالمه ماضيه وذاكراته. ذاكرته تستعيد تفاصيل ماضيه كشريط سينمائي وتنزف احداثه مجبولة بالقسوة والحرمان والنضال، ذاكرته تصير على ان تبقى قطرات احداث ماضيه ندية، تروي حاضره، تقويه، تحفه لمعركته المقبلة. حاضره المقيد يتقوى على القيد بماضيه المتمرد، المتحدي، ينهل منه كالبدوي "الممعن بالهجرات" (يتزود قبل الربيع الخالي بقطرة ماء)¹. ماضيه قطرات ماء لرحلته وقد شرعوا منذ خلعوا خزانه الوكر الحجري بتلك الرحلة نحو الربع الخالي وصحراء المجاهيل-صحراء التجربة الجديدة، التحدي الجديد والمواجهة الجديدة.

كانت المواجهة بين المحتلين ومنظمات الحزب قد اتسعت عام 1985 لتشمل حتى كانون الاول غالبية منظمات الوطن، اجواء الاعتقالات تهيمن على المنظمات بأخبارها ونتائجها الحزبية. قرارات وتوجهات واجراءات تطل الجميع من رفح للناقورة. من اجراءاتها انتقال كنعان لوكر جديد بعد ان مكث يومين فقط في بيت سكينه. توقف عن القيام بمهامه مؤقتا زيادة في التحولات.

صباح يوم من ايام كانون الاول قرع باب بيته بالايقاع المتفق عليه. كان انهي افطاره وجلس على شرفة بيته الغربية يخطف بعضا من اشعة الشمس

¹ الشاعر العراقي مظفر النواب: الوترية الليلية.

الكانونية التي تظهر عادة على استحياء وما ان تفعل حتى تحتجب سريعا خلف الغيم المتراكضة تباعا:

- احمل معي خبرا سينا!
- منذ اسبوع وانا احيا بمزاج جيد رغم ما نواجهه كحزب البيت رائع فانساني المصيبة المسماة "بيت سكينه" وسقته عالي اسير دون ان احني راسي والاهم انه اتاح لي فرصة الحياة خارجه، فهل تتأمر على مزاجي لتأثيني بخبر سيئ؟
- ستتضرر لان تترك البيت سريعا. (احتبست انفاسه ترقبا لان يتابع رفيقه كلامه). البيت هذا غير آمن والاصح انه لم يعد آمنا بعد الان نتيجة تطورات الهجمة. الخطر اقترب اكثر.
- اشرح. اشرح. استحث رفيقه على التحدث، شرح هذا تفصيلا ولكن بسرعة. ادرك فعلا خطر الموقف.
- الليلة اذن؟
- بل الآن فالوضع لا يحتمل، جهز نفسك خلال ربع ساعة!

شرح يعد حقائبه ويجمع اوراقه وحاجياته. اهم ما كان يتناوله في لحظاته تلك والتي تكررت كثيرا، ثلاثة اشياء ظلت ترافق جيب بنطاله اينما رحل، اوراقه السرية والسجائر والسبحة الحمراء "الشيعوية كما كان يسميها مازحا"! وضع اشياه الثلاثة قبل ان يفعل اي شئ آخر.

كان فعلا بيتا رائعا ذلك الذي جاءه منذ اسبوع، من شرفتيه الاثنتين، من نوافذه كان يرى ويسمع كل ما كان يشتهي منذ ثلاث سنوات؟ اصوات الباعة الذين ينغمون مناداتهم على بضائعهم، الشوارع تعج بالماره، الفلاحات يحملن سلال الخضار على رؤوسهن بعد ان يتسوقن، هدير الحافلات وزعيق سائقي عربات الجر، الطلاب يملأون الشوارع صباحا وما بعد الظهر بضحكاتهم الصاخبة وضجيج اصواتهم متناقشين ذهابا وايابا الى مدارسهم بينهم ارتاب الطالبات بملابسهن المدرسية الخضراء، لقد اعتاد واقرانه وهم على مقاعد الدراسة الثانوية ان يسموا كل الطالبات هذا بـ"الكتيبة الخضراء" على سبيل المداعبة والتغزل. منذ سنين لم ير الكتيبة تلك وهي تشيع الجمال في شوارع المدينة.

بيته اتاح له ان يعيش خارجه، فمن جهته الغربية يطل على ازدهام الشوارع وضجيجها ومن جهته الشرقية على الساحات الخلفية لبيوت متلاصقة بعضها ببعض... الاطفال الذين يلعبون بالساحات، النساء يعلقن الملابس المغسولة للتو على الحبال، يغسلن الساحات الخلفية للبيوت، صياحهن وثرثراتهن بسبب او

بدونه كل ذلك كان يأخذه خارج الوكر ويخفف من وطأة الهجمة الاحتلالية على مزاجه ونفسيته، تلك الوطأة التي تتيخ بكالها منذ شهور الصيف.

- الخير السئ لم ينته بعد!

قالها رفيقه يهينه لما هو اسوأ. كان يتحدث والخجل والتردد يطبع ملامحه كأنه هو المسؤول عن منغصات الحياة السرية. كانت حروف كلماته ذات وقع خاص.

- توقعك المؤقت عن اداء مهامك يتضمن قرارا حزيبا بتجميد وضعك الحزبي لمدة ثلاث شهور، اي اخراجك من الوضع واتصالاته ومهامه والهدف حمايتك كي لا تتولك رشقات هذه الهجمة، اذ ربما تقود التطورات إلى ان يشتموا رائحتك!

بلغ السيل الزبي. كاد كنعان ينفجر في وجه رفيقه لكنه ضبط انفعالاته في جوفه.

- هجمة واعتقالات وخطر يحيط بالحزب من كل ناحية وانا مجمد أقضي وقتي في مرحلة المواجهة في الطهي ومتابعة التلفزيون مثلا؟ الا استشار من قبل هكذا قرار؟

- القرار كان سريعا، المسألة لا تحتمل النقاشات والاستشارات، انه امن الحزب. هل تحتاج لان اشرح لك ذلك؟!

نطق جملته الاخيرة بنبره استنكارية فكنعان لم يكن بحاجة للشرح. عندما يغدو الموضوع مرتبطا بأمن الحزب، أمن التجربة فلا مجال للاخذ والعطاء، للتداول والنقاش الواسع خاصة اذا كانت الاعتقالات كالسيف مسلطا على الرؤوس، حينها تصبح الرغبة بالنقاش محض رغبة بالتعرف لا تتسع لها ظروف المواجهة. كان يدرك ذلك جيدا. تطورات الهجمة التي شرحها له وما استجد منها نزلت على راسه كالصاعقة، اضطراره لتترك هذا البيت الذي خفف عليه بعض الشيء من كآبه الشهور التي يعيشها منذ ابتدأت المعركة زاد الطين بله على رأسه. جاء القرار الاخير بتجميده ليكون الطامة الكبرى. أشعل سيجارة واخذ يتمشى وأصابه تطقق بحيات السبحة حتى هدا. تساعل دون انفعال:

- الى اين الرحيل هذه المرة؟

رد رفيقه بكلمات متلعثمة:

- الى بيت "اللعيثه سكينه"، هو الأنسب الآن.

قعد على اول كرسي قريب منه. أطفا السيجارة دون ان تصل نارها عقبها كما اعتاد وتهد. تناول سيجارة ثانية واشعلها. كان لا يدري ماذا يفعل فالامور باتت تسير من سئ الى اسوأ. احنى راسه واسنده الى راحتي يديه فيما كوعاه ينتصبان فوق فخديه كامرأة بانسة فقدت زوجها لتوها. السيجارة متدليلة من فمه ودخانها يوذي عينيه فاغلقهما.

- انها القسوة بعينها، كيف يمكن العيش قرب هذه المرأة الكارثة لثلاثة شهور؟
قال محدثا نفسه بصوت مسموع فيما رفيقه ينظر اليه لا يتكلم. كان يحس بان كل امتعاض العالم تجمع بداخله، كل الضغوطات والتوترات التي عاناها في شهوره الأولى عادت لتطحن رأسه من جديد.
- لكن القير اهون من الاقتراب من هذه اللعينة المسماة تجاوزا امرأة!
ضحك رفيقه ملء شذقيه.
- اضحك، اضحك فلست انت من سيقم عندها. اتمنى ان اراك مكاني لارى ماذا ستفعل. مزاحه يعبر عن مرارته.
- اعرف تماما ما سيواجهك. ولكن عليك ان تحتمل يا رفيق، يجب ان تسرع علينا ان نرحل.

ورحل بسرعة قاصدا بيت اللعينة سكينه ليعيش قريبا من صنف بشري غريب. صاحبة البيت امرأة رآها مرتين وحدثه رفاقه عنها مرارا. ما قصد بيتها الا للإقامة لايام قليلة في ظرف طارئ او لسويغات يقضي عمله ويخرج، اما ان يقيم ثلاثة شهور في بيتها فما كان سمعه عنها سيلمسه على جلده يوميا.

كل شيء الان يذكره ببدايته الاولى كأن الزمن ما سار سنيه الثلاث. كأنه يخطو نحو بداية حياته السرية، "كانون" هو هو بامطاره، ببرده وبالكآبة التي يبعثها في النفس. "اجواء" الرحيل للبيت هي هي، هجمة مكثفة واعتقالات تطال لا العشرات كما ١٩٨٢ بل المنات من الاعضاء والانصار والمنظمات متحفزة للمواجهة. بعض الاعضاء يدنسون الراية واخرون يصونوها بدمائهم، الإبعاد يطال بعضهم هذه المرة. اجواء المواجهة تلف الجميع، اعضاء واصدقاء الحزب وعائلاتهم من اقصى شمال الوطن الى جنوبه. "الطريق" الذي سلكه في الليلة الكانونية الماطرة سنة ١٩٨٢، الأشجار الجانيبة تصطف على جانبيه، المارة يتلفعون بمعاطفهم الشتوية الثقيلة وهو يكوفيتة الرقطاء تغطي وجهه عدا عيناه ويدقق النظر في المارة، بمن يسير خلفه، بمن يتجاوزه. ذات الطريق، ذات الأشجار، ذات العينين الحذرتين. هل هم ذات المارة؟ حدث نفسه. والمرأة؟ هي هي، بدل ام عيسى هناك اللعينة سكينه. وتشابه الجوهر قائم: كلتاها لا يمكن احتسابهما على صنف النساء! كأنه موعود في حياته السرية بالعجائز الشمطوات اللواتي يضيفن مسحة من التكدر بين فترة وأخرى على حياته.

ما ان دخل الممر الترابي الفرعي المؤدي للبيت حتى اكتمل تشابه العامين الكانونيين-المرحلتين: في اخره انتصب البيت من طبقة واحدة تحيط به الأشجار الباسقة وسط الأمطار والبرد، الريح تحرك اغصان الأشجار وسط عتمة الليل الذي افتقد قمره، بدا البيت البعيد عن ضوضاء المدينة مطوقا بوحشة ما، برهبة ما، كان

الأقانيم الثلاثة - وسام الرفيدي ٩٩

أشبه بيت في اسطورة خرافية تمتلئ بالجن والاشباح والسحره. ماذا يريد الزمن ان يقول حين يكرر نفسه؟ أيريد أن يذكره بايامه وشهوره- المتوترة المتعبة والمرهقة حيث تمكنت منه الذات المتمردة والمنفلتة من قيد العقل والحسابات الحصينة المترنة؟ أيريد أن يبلغه رسالة ما: [حياتك هذه سيزل عنوانها اللا استقرار والهجمات المتلاحقة وانت تسعى لان تهرب من شباكها تباعا كي لا تقع فيها. قسوة حياتك اليومية وحرماناتها لن تنتهي، المعركة مع المحتل تتصاعد يوما بعد يوم وانت في قلبها جندي مجهولا!] ام تراه الحزب يستثمر كانون الماطر، رياحه، الاشجار الياسقة، البيت السري، وحشية الليل وقسوة الظروف ليعجنه أكثر، ليصقله أكثر بماء صعوبات الحياة اذ يعيده لبداياتها ليحرمه نفق استقرارها اللحظي؟.

وصل بيت اللعينة سكينه عند السابعة مساء، فتح الباب الحديدي الضخم الذي ينتمي لطراز ساد منذ قرون، دخل واقفل الباب خلفه. احس بالزمن يعود سنينا للوراء عندما دخل بيته الأول بيت ام عيسى. أقدرني أن اعيش في بيوت تمتلكها حيزونات ينتمين بالصدفه للجنس الذي يفترض فيه الرقة؟ هل هي من عوامل تجربة التخفي؟ علق ساخرا عندما الفى نفسه داخل البيت المعتم وسط هدوء مطبق مخفي وصوت المطر وحفيف الاشجار المتحركة يحمله بعيدا نحو عالم الاسطورة الخرافية. اشعل ولاعته واخذ يتفحص غرف البيت. الآن عليه ان يعاشر جدرانه، اثائه، بابيه الحديدين، بلاطه ... وكل ما فيه لشهور.

كان يتكون من ثلاث غرف ومطبخ وحمام، اثنتان من غرف البيت خارج الايجار أغلقتهما اللعينة سكينه بقليلين صغيرين وخلف البابين تحتفظ بالاثاث الجيد من ارائك وفرشات محشوة بالقطن وأغطية صوفية خفيفة وثقيلة ووسائد ... أي كل ما حرصت اللعينة سكينه على أن لا تجعله قيد الاستخدام داخل الغرفة المفترضة كغرفة نومه! سريران مهترنان عليهما فرشتان متبعفتان، ضغط بيده على احدى الفرشتين يبغى التعرف على جودتها فاذا به يشعر بما هو غريب: كانت يده تصطدم بنتوءات كبيره داخل الفرشة، صلبة وغير مستوية ومن مختلف الاحجام. قرر تأجيل مهمة الفحص للنهار وقصد المطبخ. كان اسما لا يعكس مسمى، بعض ادوات قديمة لا تصلح للاستخدام البشري تتشكل من كاسات واطباق واوعية واوان، ثلاجة صغيره بالكاد تعمل بعد العمر الطويل الذي انقضى عليها، طباخ ناربع عيون اثنتان معطلتان وكذلك تنور.. تلك كانت اللعينة سكينه وقد قدمت امام مستأجرها بيتا مفروشا.

سمع عنها الكثير، عن جشعها وتدخلها في كل صغيرة وكبيرة في حياة من يسكن عندها، عن تفقدها اليومي لبيتها المفروش الذي كانت تعتقده لا أقل من "فيلا" الأقاليم الثلاثة - وسام الرفيدي ١٠٠

على ساحل الرفيرا الاوروبية. سمع عنها الكثير، انها حديث احياء باكملها وان من يتورط معها بطريقة ما، باية قضية ومهما كانت تافهة، بالكاد يخرج من ورطته تلك دون ان يناله لسانها تشهيرا على مستوى المدينة فيخرج من ورطته متمنيا لو يستطيع اعدامها!

كان يجوس البيت على ضوء ولاعته الخافت فمن اجراءات التمويه وحتى لا يعرف جيرانه بوجوده كان يتوجب عليه ليس ان لا يظهر عند النافذة فقط بل وان لا يشعل الضوء في البيت او يخرج لالقاء النفاية في حاوية الحوي. على ضوء ولاعته وجد كيسا وضعه رفاقه في البيت فيه اغراضا: اكثر من ثلاثين علبة سمك من نوع التوننا، رطلين او يزيد من التفاح ومثله من الليمون وعشرات الارغفة، كما حوى الكيس على كمية من الجرائد والمجلات وأربعين علبة سجائر من النوع الذي يدخنه. غير ذلك كان يوجد في المطبخ زيت زيتون بكمية وافرة وزعتر ويصل جاف وزيتون مخلل. [هذا جيد. يعلمون ان امكانيات الطهي شبه معدومة طالما يوجد زيت وزعتر وزيتون فكل شيء بخير]. حاول ان تعبت في نفسه بعضا من سكينه يفتقدتها منذ هاجمه رفيقه بجملة الأخبار السيئة حتى وصوله البيت.

عاد لغرفة النوم او ما يفترض انها غرفة نومه وتفحص على ضوء ولاعته ما يوجد على الطاولة الموضوععة فيها، كانت طاولة بالكاد تسند نفسها فقوائمها مخلعة وتتحرك وتتواء ان مسها اصبع، كان عليها حفته من الكتب والدراسات: كتاب عن الثورة في عمان للباحث البريطاني فرد هوليداي، آخر في نقد علم الاجتماع البرجوازي، ثالث حول موقف ماركس وانجلز ولينين وماو وغيرهم من تحرر المرأة وغيرها من الكتب. اما الدراسات فاكثرها حول جماعة الاخوان المسلمين في الاردن فترة الخمسينيات والستينيات [وهذا جيد يوجد ما يقرأ]. توجه لنافذة الغرفة المطلة على الشرفة وعلى البيت المقابل، تفحصه كعادته في التدقيق في ما يحيط بالبيت الذي يقطنه. بيت من طبقتين تضمنا اربع سكنات احداها الارضية من الجهة الشمالية لا يوجد فيها مطبخ فقد شاهد وهو يقف عند النافذة عجوز ترتدي ثوبا شعبيا باليا تدخل وتخرج من غرفة جانبية ملحقة بالبيت تحمل طبق الاكل وابريق الشاي. كانت الغرفة الملحقة تقوم مقام مطبخ البيت (يبدو جيراني فقراء، مطبخهم خارجي والارجح حمامهم وهذا يعني حركة كثيرة بما لا يبشر بخير).

كان يكتشف تفاصيل ما اتيح له التدقيق فيها سابقا او ما كانت تعنيه في زيارته السريعة. ظل واقفا عند نافذة الغرفة يرقب المرأة العجوز، تخرج بين حين لآخر تتوجه لمطبخها لتعود لمنزلها مسرعة لتتجنب البرد والمطر الذي كان يتساقط

رذاذا خفيفا. تناول من حقيبتة مذياعه الصغير الذي لم يبارحه مذ انتقل لحياته السرية وادار مفتاحه فجاء صوت عبد الحليم يغني من قصيدة نزار قباني "فحبيبة قلبك يا ولدي ليس لها ارض او وطن او عنوان" تنهد وانهى تهديدته بابتسامه ذي معنى [صلي عالني يا عبد!!] ادار مفتاح المذياع ليبحث عن محطة اخرى فجاءه الصوت الملائكي لفيروز "انا عندي حنين ما يعرف لمين، ليلي بياخذني من بين السهرانيين" اخرس المذياع بحركة عصبية وشتم كل المغنين [هل هي مؤامرة على اعصابي]. نام على السرير كيفما اتفق متدثرا بغطاءين صوفيين دون ان يبذل ملبسه.

اذ نام ليلته الاولى مبكرا فقد افاق عند الساعة السادسة صباحا. افاق وكل عضله في جسمه تؤلمه كأنه نام على كومة حجارة وحصى!! ما هذا اين نمت؟ كان هذا اول ما خطر في ذهنه عندما فتح عينيه واحس بالالام في كل انحاء جسمه. نهض وجلس على السرير وكان ضوء النهار الخجول قد دخل الغرفة. كان يتحسس النتوءات في فرشته كخوازيق حادة تتخزه في ظهره وفخذه وخصرته... نزل عن السرير وقرن مباشرة فحص الامر. أعاد الضغط على الفرشة يتحسسها: نتوءات اينما ضغط، خوازيق بمختلف الاحجام [سافتح هذه اللعينة لارى اية مصيبة هي] قرر سريعا وتوجه للمطبخ وعاد بسكين، مزق الفرشة من احدى اطرافها ودس يده فيها، كانت المفاجئة صاعقة! عثرت يده على حجارة بمختلف الاحجام. مزق الفرشة أكثر وبدأ باخراج كل محتوياتها: حجارة بمختلف الاحجام، قطع من الخشب وبين هذه وتلك قطع من الاسفنج (يا فتاح يا عليم بدأت الالاعيب العجائزية. كيف سأنام على هذه الفرشة شهورا؟). قرر ان ينتقم منها، احضر سكيننا صغيرا ذا راس مدبب وعالج قفل احدى الغرفتين المقفلتين فخلعه من خشب الباب واقتحمها مستشعرا الانتصار وحلاوة الانتقام (ساقوم بتأميم ملكيتها الخاصة، ساضع محتوياتها غرفتها في خدمة حزب العمال ونضاله) بدأ يتناول من الغرفة ما يحلو له ويضعه في غرفة نومه، فرش الغرفة بسجادة عجمية فاخرة وعليها فرش فرشتين سميكتين محشوبتين بالقطن نجدتا حديثا، احضر وسائد لمزيد من تلبية الرغبة بالانتقام. علما انه ما كان يستخدم الا واحدة!! احضر اغطية وبياضات من كل الانواع، اريكتين واحدة لجلوسه والاخرى ليمدد قدميه عليها! كانت رغبة الانتقام تحركه بعد ان حقق رغبته وفرش غرفته الجديدة تناول افطاره بسعادة، زيت وزعتر وزيتون واربع كؤوس من الشاي، تناول كتابا وأخذ يقرأ فيما المذياع بجانبه ييئ تقارير اخبارية لا يعيرها أهمية.

ما بين القراءة وسماع المذياع، بين الوقوف عند النافذة والتمشي بين جدار وباب او بين جدار ونافذة والسبحة تطقطق بين اصابعه. كان يقضي نهاره منذ الأقاليم الثلاثة - وسام الرفيدي ١٠٢

الخمسة صباحا- حين يفيق وحتى التاسعة مساءا حين يتدثر مستشعرا الدفء في ليالي الشتاء الباردة. لم يكن اعداد طعامه يستغرق وقتا، فالطعام البسيط لا يحتاج لاعداد اصلا. عشاؤه مثل افطاره اما الغذاء فعلبه سمك محفوظ يعصر عليها حبة ليمون ويضع قليلا من الزيت ويتغذى. ما ان ينتهي من شرب ابريق الشاي حتى يعد الآخر. لا تلتفاز لديه فلتلتفاز ضوء يرى من خارج البيت ويمس ذلك بالاحتياطات المقررة. كان يقضي ليله دون ضوء منذ الرابعة تقريبا حين تغيب الشمس حتى ينام، كان يحيا دون ضوء حتى حفظ خط سيره في انحاء البيت، موقع كل شيء فيه غيبا كضربير لا يحتاج من يقوده داخل بيته. لا احد يأتيه سوى مره كل عشر ايام يحضر كيسا من الطعام مع الجرائد وبعض الكتب، يمكث لدقائق، يتحادثا سريعا عن اخبار الحزب والمواجهة يعبر عن تضامنه ويرحل. كان لا يستطيع الخروج لالقاء كيس القمامه في حاوية النفايات ففتح الباب واغلاقه يحدث ضجيجا سيسمعه سكان البيت المقابل الذي لا يبعد عن بيته سوى امتار قليلة، سور فقط يفصل بين البيتين. اكياس القمامة تترامك لايام في مطبخه فتعقب رائحتها في البيت كله. يتمشى لساعات ما بين الجدار والباب او بين النافذة الشرقية والجدار المقابل في غرفة نومه، يتوقف عند النافذة يرقب ساكني البيت المقابل لدقائق ثم يعود للجدار. يستمع للمذياع، اغان وبرامج اخبارية وتمثيلية اذاعية حتى حفظ برامج محطات البث جميعها. كان يفتتح يومه باقوال الصحف العربية من اذاعة صوت العرب عند الساعة الخامسة وعشر دقائق صباحا ليختتمه ببرنامج بانورما الاخباري من اذاعة "مونت كارلو" وما بينهما ام كلثوم عند الظهر والمساء من اذاعة الاحتلال وسماع فيروز عندما يلتقط صوتها من اية محطة تبث اغانيها.

كان التوتر يسيطر عليه والوحدة تصرعه لكن توتره الان ليس كتوتر الشهور الاولى حيث الذات تواجه "المتطلبات والاحتياطات والاجراءات والقواعد" انه توتر من نمط اخر لان ذاته عدت من نمط اخر لها مطالب اخرى: اين وصلت الهجمة؟ ما اخبار الرفاق في اقبية التحقيق؟ من صمد منهم ومن خان حزيه ورفاقه؟ كيف تصرف من بقي خارج القيد؟ ايرتكون فيشيعون اجواء التشكيك والضعف والانهيال المعنوي ام يتماسكون يتحملون برياطة جأش ويدافعون عن حزيهم ويحمون ما تبقى منه؟ كيف تتصرف الخلايا والمنظمات لحماية نفسها ومواصلة نشاطها لتعويض الخسائر؟ ماذا اصدر الحزب من رسائل وماذا تحوي وكيف يتقبلها الاعضاء؟ أسئلة كهذه وغيرها سيطرت عليه، ينتظر وينتظر وما من اجابة. كان "الانتظار" سيد الموقف. الموقف صعب وهو يفهم ذلك بل ويتفهم ان تقديم اجابات نهائية مستحيل الان، لكنه لا يفهم ذلك، يريد ان يروي ظمأه يشعر انه جزء من المعركة، في صلبها ولو بالتفكير والاهتمام وهذا يتطلب اجابات ومعطيات لا ترد. ينتظر وينتظر وغليله لا يشفى، ينتظر رفيقا، خبرا، أي شيء يأتيه، ولا يأتي

الأقائيم الثلاثة - وسام الرفيدي ١٠٣

شيء... غدا مثل "كولونيل" غابرييل غارسيا ماركيز ينتظر تلك الرسالة اللعينة ولا تأتي.

انفعل مع بداية الهجمة على حزبه شأنه شأن أي عضو شعر أنهم يدمرون ما هو عزيز عليه ساهم مع رفاقه بيناته. كان يرى كأن أباه أو أمه أو ابنه يتعرض للذبح دون أن يتمكن من نزع السكين من يد القاتل، فقط يرقب المعركة من بعيد!!

ابق حيث انت واقرا ! المواجهة مستمرة والامل في الصمود وتحديدا صمود الكادرات واجراءات التحوط لمن بقي هي صمام الامان. اهم شيء الان هي ان تحافظ على نفسك فصورتك شوهدت مع الجنود عند حاجز على طريق رام الله-القدس. الصمود الان ان تنقذ ذاتك من الوقوع بين ايديهم في زمن الهجمة اذ لا يجب ان تحشر طاقتك في الاكياس الحجرية. المطلوب الان منك شيء واحد لاغير، السكون لحين الانطلاق اللاحق. اسكن ولا تتحرك.

هكذا خاطبه الحزب. اخيرا جاءت رسالته رسالة شرحت بعض الشيء، قدمت بعض الاجابات، نقلت ما قاله محققو جهاز المخابرات "الشاباك" في اقبية التحقيق (هذا العام عامكم. سنصفيكم ولن يبقى منكم احد. ذلك قرار حكومي. يجب ان تنتهوا) كانت رسالة تظهر حجم المعركة والمواجهة والخسارة، منات الاعضاء والانتصار في زنازين التحقيق، في ساحات الشبح والكيس النتن يغطي رؤوسهم والقيد الرصاصي يدمي لحم معاصمهم، فيمنا وجبات الماء البارد تلسع اجسامهم العارية في شهور الشتاء ببرده اللاسع وريحه الصرصر. انها المواجهة التي لا تعرف الحل الوسط، جسد عار ضعيف يرتعش لكنه يكتسي بارادته وثقته بحزبه وعدالة قضية وطنه، مقابل جهاز استخباري قوي ومتمكن يمتلك كل الاساليب العصرية والعلمية لتحطيم الانسان الذي يقع بين يديه. جاءت الرسالة على تفاصيل كثيرة عن يتحدثون وعن ينهارون اما النتائج فلم تستخلص فالمعركة ما فتأت في اوجها انما ينبغي التناول بأن النبات الذي غرس طوال سنين تربية وتصليبا وتشريبا حتما سيطرح ثمارا يانعة وان من البدهي ان كل شجرة تطرح بعض الثمرات العفنة. ثم جاءت الرسالة على ما وقع على رأس كنعان كالصاعقة "وخسارتنا الاكبر هي نجاحهم بالوصول الى بعض كنزنا الذهبي-رجال التخفي واعتقال الرفيقيين البطالين فنون والنحاس". ما تمكن من متابعة القراءة. جلس على الكرسي لا يقوى على مغالبة شعوره بأن عظامه انتزعت منه. لم يكن التقاهما ولم يكن الحزب ليصرح باسميهما لرجال التجربة ولم يكن هو ليسأل ايضا فأصول اللعبة مفهومة له اذ لا يجوز السؤال عن ترك بيته ولم يظهر لكنه كان يحس بكيانه الداخلي ان له "زملاء مهنة" اناس يعيشون مثلما عاش يناضلون في مواقعهم كما يناضل في موقعه، يحيون حياة القسوة والتحدي يتمشون داخل اوكارهم، يفرحون ويغضبون

ويهزمون ذواتهم. يوميا اذا طلّت مناكفة! لذلك كان يشعر باسنادهم فدائما رفقة
التجربة والحياة، اية تجربة واية حياة تشعر من يخوضها ويحياها بالاسناد. الكل في
خضم المعركة الا انا
اسكن حتى يحين او ان الانطلاق اللاحق.
ان ، ان ،

ما تمكن من مغالبة شعوره بالعجز كأنه يتمنى اعتقاله ليكون هناك وسط
المواجهة! هي الرغبة في الدفاع عن الحزب في لحظة الاشتباك متناسيا في لحظة
الانفعال الانساني ان الصمود في تلك اللحظة هو السكون لحين الانطلاق لاحقا.
جاءته رسالة بعد شهر من سكونه في بيته هذا، اراحته واشعلت بداخله نار الرغبة
بالنضال لسنين وسنين، فيها كان صوت الحزب نبضه واصراراه. ظهرت امامه
صعوبة الموقف من كلمات الرسالة: (العضو الذي يستمر معنا بعد هذه الهجمة
سيستمر طويلا) كانت جملة تعكس حدة الهجمة وتأثيراتها، لذلك تركت مواجهة
١٩٨٥ تأثيراتها عليه مثلما على غيره من الكادرات، صلبتهم، عززت انتمائهم
اكثر فاكثر مثلما دفعت آخرين للانهيال، كان يتحسس تأثيرات المواجهة يوميا تنمي
بداخله بواطن القوة، تعززها.

لم يعد يحمل الان تلك التصورات الرومانسية الجميلة عن العمل الثوري
والتي حملها في مقتبل شبابه ايام الخلايا السرية اليسارية في المدارس وطباعة
البيانات والجراند السرية في بيوت وسخة يقطنها طلبة الارياف وعلى آلة طباعة
مصنوعة يدويا... ان التصورات الرومانسية عن العمل الثوري تصلح لتضمينها
اغنية ملتبهة او قصيدة جميلة لكنها لا تصلح لتربية انسان سيتخذ من الثورة مهنة له
لانه سيكتشف عاجلا ام اجلا ان الثورة شيء والرومانسية شيء اخر. ان تلك
التصورات لا تنشأ لدى من يغرق في العمل الثوري ويعيش تضحياته ويدفع
"فاتورته" كاملة: التخلي عن ابسط احتياجاته الانسانية، بل تنشأ لدى حديثي العهد
بالنضال- وان ليس كلهم- الذين ينخرطون في النشاط الثوري دون استشعار كامل
لما ينتظرهم وما يجب عليهم ان يدفعوه في سياقه وعندما تشرع التجربة باعادة
صقلهم وتغيير جلدهم حينها وحينها فقط اما ان يتطبعوا ويغيروا تصوراتهم
وينسجمون بتفكيرهم واستعدادهم مع ما تطرحه متطلبات النضال واما يهجرونه
دون رجعة فنتفوى الحركة الثورية برحيلهم.

من يتطلع لحياة كنعان من خارجها ويسمع عنها لا شك يرى رومانسيتها،
طابع المغامرة فيها، الغموض والسرية اللذان يكتفانها، العيش طويلا يتقافز كالذئب
من جحر لآخر متكرا مغيرا من ملامحه، لقاءاته السرية، سيره الحذر في الشارع
يدقق بالمارة، ذلك في عين المراقب عن بعد. اما في عين كنعان فهي لم تكن كذلك
وعلى الاقل بعدما طوى اكثر من ثلاثة سنين من حياته السرية. ملامحها

الرومانسية موجودة ولكن قسوتها تبدو في عينه وتسكن يومه وان تراجع تأثيرها في سلوكه اليومي وانسجام تفكيره. كان بدأ يعناش متصالحا مع قسوة حياته. العيش طريدا يتضمن حرمانات لا حد لها والتطلع يمنه ويسرة والتدقيق بعاير سبيل يسير الهويني امام بيته، يعني التيقظ والحذر الدائم يعني استنفار الجهاز العصبي كل ذلك ليس بالعيش الطبيعي.

يتحسس متعة تحدي المحتلين بأن يحيا ويناضل رغما عنهم. كان ينتشي فرحا كلما فكر بذلك، كان يقول (هانذا ان كانوا فعلا يملكون جهازا مخابراتيا نشطا فليصلوا الي) يتحسس انه بنجاح تجربته انما يؤكد عجز دولتهم وجيروت جهازها. كان يشعر بكل ذلك يتحسسه ولكنه يدرك اكثر، يقتنع اكثر فاكثر ان تلك الحياة "ضرورية" اكثر منها "متعة". ضرورة لنضال حزبه وشعبه لطرد المحتلين وبناء حياة سعيدة ممتعة حقا، فالتخفي خيار نضال لا خيار حياة، وان شاء ان يعتبر احدا حياة سرية بكل حرماناتها وقسوتها حياة رومانسية فله ذلك من باب المجاز لا الحقيقة باعتبارها تكتسب رومانسيتها من كونها تساهم بخلق حياة ممتعة رومانسية حقا لا بكونها رومانسية بذاتها، باعتبارها رومانسية بالقوة لا بالفعل.

ليست المتعة في الغاء الايفاء بمتطلبات الطبيعة الانسانية بل العيش وفقها ببساطة وثقافية دوما دون قيود وانظمة وممنوعات وسلطة تصدر وتسن محظوراتها. كل يوم كان يمر عليه كان يؤكد له ان المتعة المطلقة، السعادة المطلقة هي في التحرر من كل كايح للعيش وفق الطبيعة الانسانية ولكنه يقتنع اكثر فاكثر ان الوصول لذلك يتطلب نضالا جديا من مستتبعاته اجراءات، تحوطات، تطلبات وقواعد. نضاله بات يتطلب بان لا يستقبل احدا، بان لا يزر احدا وان لا يفتح شراعة باب لعجوز بيراوية. اضحى الان يحاكم الامور بطريقة ناضجة ولنقل يتنامى نضجها بتراكم التجربة نفسها. بات يعرف تماما ما له وما عليه، ما يستطيع وما لا يستطيع ضمن نظام حياته. التجربة تصنع رجالها وتجربته اخذة بصنعه تماما كما النضال يخلق محترفيه والتعذيب وتحمله يخلق الصامدين والمعركة تخلق بطلها. (كل الجنود قبل المعركة شجعان وربما ابطال) حكمة روسية أعجبتة كثيرا حين قرأها في رواية- ملحمة "الاحياء والاموات" تمنع بها كثيرا، قاربها كثيرا مع تجربته وحياته. انخرط اكثر واكثر في تجربتك وفي حياتك، دعها تغسلك بمانها، تدعك جلدك بالفرشاه والصابون، تعجنك بخميرتها، تحميك بكورها وبعد ذلك، بعده فقط فلتقتل انا صاحب تجربة.

يتجاوز عامه الثالث في تجربته وفي ظروف المواجهة مع المحتلين، يكتشف كنعان حياة الجنون والمغامرة التي يحيا. وهل الثورة غير فعل جنون

ومغامرة؟ النضال بجدية وجذرية يتطلب عيش حياة النضال بجنون، عيش الثورة بجنون. يدفع الثوري ثمننا غاليا جدا ليدرك فكره، محض فكره، وقد دفع كنعان ودفع ليدرك فكرة الثورة. كان بيلور فكرته مرويته لفكرة الثورة ولتجربته كما رآها. أن نعيش الحياة بجنون يعني أن نقتحم تجاربها، صعوباتها، مغامراتها فالتجربة الحياتية تصقل وتعلم، تنفض البلادة والكسل والروتين البائس، تزودنا بالدراسة والتجربة لنحوض غمار تجربة اخرى لننصقل ونتعلم من جديد وهكذا دواليك، تعاش الحياة بجنون اقتحامها واخضاعها، بجنون الغوص في بحر الجديد من تجاربها. اذ نغوص بتجربة الحياة وجديدها وغريبها نكون قد منحناها تصريحاً بان تغيير جلدنا، تصقلنا نقول أنها قد اذنت لنا بان نركب بحرنا ونخضعها... كان يرى تجربته، حياته السرية هكذا: تجربة جنون تطحنه، تمزجه بمائها لتعجنه من جديد، يسبح فيها ويتعلم منها، فيحياها بجوارحه فالنضال يتطلب ذلك. وبذلك تكتسب الثورة معناها الحقيقي، فعل وجنون ومغامرة.

جنون الثورة ان نحترقها، نحترق في اتونها يوماً بيوم، نهبها حياتنا لا سويعات يوماً، ننتمي لصانعيها فكراً وسلوكاً. انتصارها او الموت دونه لا ثالث بينهما. ليست بثورة تلك التي نحياها ونصنفنا لها ونصنفنا لغيرها فالثورة لا تعيش داخل الثوري مع ضره لها. ليست بثورة تلك التي تقبل القسمة على اثنين. جنون الثورة احترافها كما احتراف الثورة عيشها بجنون. مصلحة الثورة كما بات يكشف تحتاج لاحتراف كهذا.

كان اذ بدأ يمتلك هذا الفهم وتلك القناعة للحياة والثورة، يشكل دينه الخاص- عقيدته في النظر للحياة السرية التي يعيش، للنضال الذي يخوض. من ثلاثة اقانيم كان دينه: الحياة-المرأة-الثورة يجمع ما بينهم الثلاثة قاسم مشترك واحد، حيل سري واحد، فعل الجنون والمغامرة، الحياة باقتحامها، الثورة باحترافها، والمرأة بعيشها. والمرأة يا كنعان؟ كيف تعيشها؟ (كانت ذاته تحاججه) حلماً، صورته، خيالات، غرائز مكبوتة تعيش المرأة؟! اي عيش هذا؟ أمخصي انت ام عنين؟! عندما تغدو المرأة لديك حقيقة، واقع، حياة يومية، تجربة مشتركة، رفقة وانتشاء ولذة، حينها فقط يمكنك القول اعيشها. عندما تنتشي وتلتذ بها ومعها، تنتشي وتلتذ هي بك ومعك، كمن تلعب الخمر برأسيكما، حينها فقط يمكنك القول: اعيشها بجنون! فهل وجدتتها لتعيشها وليكتمل دينك باقائمه الثلاثة؟ لم يكن دينه قد اكتمل، أقانيمه تبحث عن ثالثها، ذاته تسجل نقطة لصالحها في نزاله الطويل معها فينسحب وينكتم!.

وتمضي ايامه واسابيعه في بيت اللعينة سكينه والوحدة تصرعه. ايام وأيام
اشتهدى ان يحدث انسان أي انسان، كان يرى الانسان من نافذته الشرقية بعيدا اما
امام البيت المقابل او ابعد من ذلك، يعبر الشارع الذي يقود لمنزله ويفصله عنه ممر
ترابي بطول عشرات الامتار. بعيدا جدا كان الانسان! في مرحلة ما من اقامته لدى
اللعينة سكينه مر احد عشر يوما دون ان يحدث انسان ويجالسه، كان الانسان بعيدا
بعيدا وحتى لو اقترب لسبب ما ودق باب بيته لسبب ما فلن يتصرف بحماقة الهاوي
ليفتح له. كانت وحدته تلك ليست فقد وحدة الذات التي تفقد الاخر والتي بافتقادها له
تفقد انسانيتها، تحسها غائبة بل كانت حتى وحدة من لا يجد من يتحدث معه، كأنه
الكائن البشري الوحيد على الارض، كان مثل آدم قبل ان يخلق الخالق حواء من
ضلعه في الاسطورة الدينية، لكن ليس في جنة الخالق، بل لدى كائن غريب اسمه
اللعينة سكينه. كان مثل روبنسن كروزو في الادب الانجليزي، حتى هذا الاخير كان
لديه حيوانات يستأنس بها ان لم تتطرق مثله. لاول مرة منذ سنيته الثلاثة حدث
الجدار، كان يتمشى ويفكر بصوت مسموع فوجد نفسه يخاطب الجدار! قادته
محاورته مع نفسه، مع ذاته الى ان يحاور جدار غرفته ولكن انى له ان يجيب ذلك
الجدار الاسمنتي الاصم، الاخرس، كان بدأ يرى فيه صديقا منذ تصالح مع ذاته قبل
اكثر من سنتين ولكنه الان يفقده صوابه فلماذا لا يجيبه؟!

والرسالة من الحزب لم تشف غليله. يقتنع ان عليه ان يسكن حتى ينطلق
لاحقا ولكنه لا يتمكن من تسريب قناعته تلك لمزاجه المتوتر. أي بطالة كان يعيش
زمن الاشتباك؟ هل يستمر بالتمشي وسماع المذياع والقراءة والحزب في ساحات
الشبح، تحت التعذيب؟ يخاطب نفسه فيشتد توتره. احس وحدته وتوتره الناتج عن
عزله هائلا وفظيحا فظاعة شهوره الاولى من تجربته لا بل اكثر هولا وفضاعة.

اللعينة سكينه أبت الا ان يكون لها دورها في تنغيص ساعاته وايامه، ابت
الا ان تمارس هوايتها للتغصص عليه وتكدير ايامه اكثر. كانت تأتي يوميا مرة او
اثنتين واحيانا ثلاثة للتفقد والعناية اليومية. تأتي وتبدأ بالطرق على الباب الشرقي
بقوة كأنها تريد اقتلاعه.

- افتح افتح.

يحبس انفاسه ويتوقف عن اية حركة فيما تستمر بالطرق على الباب.

- لماذا لا يفتحون؟ افتحوا انا سكينه صاحبة البيت.

كل يوم تعرف على نفسها وكان هناك احد في الحي لا يميزها من صوتها.
يشتمها باقدع الشتائم التي يكتنرها ثم تبدأ جولتها المعتادة: تتوجه للباب الثاني
وتكرر طرقها وصيحاتها وهو مستمر يحبس انفاسه لا يصدر عنه أي حركة او
صوت. يحشر سعاله وحشرجة حلقه ثم تنتقل للمرحلة الثالثة، الدوران على النوافذ

نافذة نافذه، تنظر من خلف زجاجها وتتفر عليه محاولة أن ترى أن كان احد في البيت . ومع المرحلة الثالثة يبدأ كنعان بالتقافز من الغرفة للممر للمطبخ متداريا عن عينيه المتبحلقتين من خلال النوافذ . بعد الانتهاء من النوافذ تبدأ بممارسة هواية غريبه عجيبة: جمع والتقاط كل ما تقع عليه عيناها ولا يمكن أن يلتقطه احد الا هي ولا يمكن لأحد أن يفكر أهميته او لماذا يلتقط ؟ مسمار صدئ اعوج، قطعة من سلك مهترى، قطعة خشب او حديد، كيس نايلون، علبة فارغة رقيقة من الصفيح... أي شيء لم تكن لتهمله . في احدى المرات سألتها المرأة العجوز من البيت المقابل وقد رأتها في حديقة البيت تمارس هوايتها:

- ماذا تفعلين يا سكينه في هذا البرد؟

- جئت لتفقد البيت . لم اجد احدا . وتستمر بالتقاط تحفها!

- ماذا تجمعين، ماذا؟ بماذا تفيدك هذه العلبه؟

تسألها وقد تملكها العجب مما تلتقط بلهجة من ترى للمرة الاولى اللعينة تمارس هوايتها.

- كل شيء يلزم خسارة ان تبقى هذه الاشياء ملقاة هكذا .

وعادة يدوم طقسها هذا في تفقد "فيلتها" والتقاط تحفها ما بين ثلاثين وخمس واربعين دقيقة يضطر خلالها ان لا يصدر عنه أي صوت حتى لا يلتفت انتباهها . لم يكن يمنعها من القدوم سوى المطر الشديد فكان هذا امنية كنعان اليومية، لكم تمنى ايضا ان يراها امام عينيه جثة هامدة ليريح اعصابه وايامه منها .

قرأ الرسالة من الحزب مرة ثانية وثالثة واشعل النار فيها وهو يفكر: للنضال فانورته التي ينبغي دفعها عن طيب خاطر وللحياة السرية اشتراطات ينبغي مراعاتها، وللثورية طريقتها في غسل الذات وهامي تفلها بقسوة الوحدة . السكون لحين الانطلاق . يخاطب نفسه يعيد بناءها . بناء الذات لا ينتهي مدى الحياة . الذات كالثعبان تحتاج لتجديد جلدها (على المتقف ان يغير جلده باستمرار) مرة اخرى تذكر نصيحة المفكر الشهيد مهدي عامل . كان يلمس اكثر فأكثر تراجع الذات المهتاجة ، بقيت طالبه لكن دون اهتياجات، دون ان تطلق النار، فقط عجزه عن فعل شيء ثقيل، وحدته وعزلته عن الانسان تصرعه، يتفهم ضرورة ممارسة واتقان التوجيه (السكون لحين الانطلاق) لكن انى له ان يتفهم، ان يتصالح مع مطلب فيه، ان تنفك وحدته، عزلته عن الانسان .

تمضي ايامه، يتمشى ويأكل، يسمع المذياع ويغني للشيخ امام ولمارسيل خليفة، يقرأ وينام . الجدران تسمعه وتحاوره، لم تعد صماء خرساء، يناقش ذاته وينفهم احتياجاتها ورغباتها فهي تريد اقنومها الثالث فهل يملك ان يقول لها لا حق لك؟ كان يقول تحملي . لم تعد تطلق النار فقد هزمت وانزاحت جانبا، غدت ثورية

تدرك ما لها وما عليها، تجد نفسها ضمن النضال وحياته السرية لا مقابلها، عجنت هي الأخرى، غسل جلدها بالفرشاه والصابون، غدت ذاتا ثورية ولكنها لا تكف عن المطالبة.

ولن تكف. تستصرخك طالبة المرأة، تعبر عن حنينك لملاعبه طفل، تعكس توفك لسهرة ليل مع اصدقائك حيث الضحك والغناء يزعج حي باكمله. تجعلك تستشيط غضبا وحرقة لانك لست مع رفاقك في مسيراتهم واحتفالاتهم بذكرى تأسيس الحزب، لست بينهم تشد من من أزرهم في مواجهة الهجمة. حملتك ذاتك بعيدا فتصورت نفسك جالسا على عتبه بيت العائلة تدخن وتشرب الشاي وتلاعب الحلوة الصغيرة في حضنك. لن تكف ذاتك عن المطالبة، ان مطالبها بالذات تؤكد انسانيته، حرماناته، تنمي احساسك. الرجعيون فقط من ينشرون الافكار السخيفة الساقطة مثلهم عن تحجر الثوريين وبلادة مشاعرهم الانسانية. دع ذاتك تطلب ولا تقمعهما، هي مفتاحك الذي يفتح باب الخارج، خارج بيتك ولو في خيالك المتأمل الحال. مهما تأخر فتح الباب فهو قادم لا محالة فقط لا تدعها تركبك كما الفلاح يركب حماره، لتكن انت الفلاح وهي الحمار، اركبها عندما تطلب، حتى بعدما غدت ثورية فهي قدمت الآن مطالبها في بيت اللعينه سكينه، مطلب واحد فقط، ان تنفك عزلتها، عزلتك، وحدثها، ووحدتك عن الانسان!!.

اخيرا قدمت له السماء هديتها، الانسان بصورة الفتاة من البيت المقابل. من النافذة الشرقية في غرفة نومه رآها، بالكاد جاوزت العشرينين بقليل من عمرها، طويلة وهيفاء، شعرها اسود فاحم وطويل وفي وجهها ملامح تريح الناظر اليه لبراءة ينطق بها لا لجمال صارخ فيه، وجه طفولي وكذلك صوتها، ناعم، رقيق سمعه اذ كانت تتادي أمها، كأن وجهها وصوتها اجتمعا ليؤكد انتماءها للطفولة البريئة لا للأنوثة الناضجة، كان يتمشى بين النافذة والجدار المقابل لها، أصابع يده كعادتها تعبت بحبات سبخته الحمراء مفكرا. ما ان يصل النافذة حتى يقوده الفضول للبيت المقابل يشغل وقته ويلتزم بعباده رجل الحياة السرية الذي يظل يكتشف محيط وكره من نوافذه وشرفاته.

كان يوما صحوا بل ان الشمس ظهرت منذ الصباح تنتشر أشعتها على بقع المياه المتجمعة في حاكورة المنزل وعند مدخله وعلى حجارة المنزل المقابل فتلمع بقع المياه لتلمع الحجارة. كان فصل الشتاء يمخر عباب أو اخر شباط الذي يقول عنه التوصيف الشعبي [شباط الخباط يشبط ويخبط ورائحة الصيف فيه] كانت تلك الأشعة الصباحية هي رائحة الصيف ولدت من رحم الكأبة الشتوية القاتلة متحدية،

فتبعث السرور في قلب كنعان الذي طالما تمنى الشتاء في حياته السرية رجلا ليخنقه بيديه. تطلع من نافذته للحظة خاطفة هي اللحظة التي يستغرقها دورانها عاندا على اعقابه للجدار وهو يتمشى، في تلك اللحظة رآها خرجت من الباب الخلفي لمنزلها قاصدة المطبخ. توقفت قليلا لتتعم بأشعة الشمس الدافئة التي تسقط على مدخل البيت وانطبعت على وجهها ابتسامة فرحة، كانت ابتسامة حالمة بريئة تعتقدها للوهلة الأولى بلهاء. ابتسمت مثل طفل فرح لهدية يوم العيد لكنها لم تقفز مثله فرحا، فقط توقفت مبتسمة وهي تتطلع للشمس كأنها تشكرها!!

كنعان أيضا شكر الشمس على هديتها فهي مع الشمس ظهرت، فمن سيقتعه بعد ذلك بأنها ليست ابنة الشمس، وجهها ابيض مثلها، باسمة مثلها، تشع نورا مثلها، هي كانت الشمس ذاتها. تسمر مكانه دون ان يتزحزح، هي واقفة تتطلع وهو واقف يتطلع أيضا، هي للشمس وهو لها ولا فرق بين الشمس وبينها. كانت شمسها على مبعده أمتار قريبة جدا، تحركت متوجهة للمطبخ. تذكر نفسه التي نسيها للحظات، تذكر انه سيقف أمامها مكشوفًا تمامًا، فقد كانت ستارة النافذة مزاحة تمامًا فلو تطلعت للنافذة لرأته مسمرًا عندها، يلتهمها بنظراته. كان ينتظر خروجها من المطبخ والفرحة يادية في عينيه، شكرًا للسماء على هديتها، شكرًا للشمس على وليدها. العزلة عن الإنسان تنتهي، أمنيتي الآن ان تظل الشمس مشرقة فهي تأتي معها وتذكر سريعًا ان العينين سكينه تأتي مع الشمس أيضًا للتفقد. من يتمنى بعد اليوم، بعد هذا الصباح، المطر المنهمر ليرحبه من رؤية وجه العينين سكينه وصوتها القبيح! يتطلع الآن لأيام مشمسة تلد كل صباح الفتاه الشمس أمام نافذته الشرقية. انتبه فجأة لتتابع أمنياته فشعر بالامتعاض لمجرد المقارنة بين ظهورين مع الشمس. مجرد المقارنة المعنوية تزعج وتولم وتثير الاشمئزاز، فأين وحيد القرن من العزلة بل وأين الخفاش الليلي من الكناري الأصفر الجميل الرقيق!!

بعد عشر دقائق خرجت من المطبخ تحمل طبقًا من القش وعليه أطباق الطعام ودخلت منزلها. كان هذا طعام الإفطار فالساعة لم تتجاوز الثامنة صباحًا لذلك كانت تلبس منامتها الشتوية. ملابسها تشي بفقرها. أسعده ان تكون الفتاة - الشمس فقيرة من معسكره الطريقي [لماذا تأخرت أيتها الفتاة - الشمس حتى تظهرين؟ هل كان يجب ان تنتظري شباط بشمسه ورائحته الصيفية حتى تولدين؟ هل انتظرت ان تكمل (كوانين) البرد والرياح والمطر والكآبة حملها فتولدين؟ لماذا لم تولدين قبل شهر كي احديثك بدلا من الحائط الأخرس؟]

رسالة الحزب التي شرحت وقدمت بعض الإجابات، وظهور الفتاة - الشمس في يوم شباطي، بعث الراحة في نفسه والهدوء والسكينة في ساعات يومه.

غدا يعيش مع دينه القائم على اقانيمه رغم كل الصعوبات للأيام والشهور فالزمن كفيل بتوفير نهايات جميلة ان احسن الإنسان التصالح مع ضغوطاته واستيعاب توتراته. مع دخوله الشهر الثالث من اقامته في بيت سكينه كان بدأ يلحظ أيامه تنساب بروتينية ولم تعد تحمل احتقانا أو توترا في ساعاتها. جاءت رسالة ثانية من الحزب ، كانت هذه المرة تفيض باستنتاجات المجابهة. اعتبرتھا المواجهة الأشرس منذ الهجمة على الحزب سنة ١٩٧٦ وفي المحصلة النهائية استنتجت [فان المظهر الابرز هو صمود قيادات المنظمات وكادراتھا الرئيسة] مشيرة بالاسم لبعض نماذج الصمود البطولي (فنون) كأبرزهم، اما من حيث نتائجھا المباشرة فقد جرى تصفية بعض المنظمات وخرّب هیکل بعضها الآخر فيما السياج الحلقی والجماهيری المحيط وبقاء حفنة من الكادرات كفيل ليس فقط بإعادة بناء ما تهدم فقط بل الاستناد لما سبق للقفز للأمام خاصة ان التجربة الوليدة [منظمة حزبية موحدة] والتي صارت بشراسة وبالکاد كانت تقف على قدميها تقرر ان لا عودة عنها كبنية وكمحصلة نهائية كما جاء في الرسالة [فان التبجح الاحتلالي بتصفتينا سقط وهم يركون ذلك جيدا] من ناحية أخرى فقد أكدت الرسالة ان المواجهة الشاملة ككل المنعطفات الهامة في حياة الحركة الثورية تكون مثابة الغريال الذي يفرز القمح عن الزوان، فالحزب سيقوى بتساقط من امتحنته المواجهة وكان هشاً سريع الكسر فيما سيقولذ اكثر من كان قد قد من حديد. أخيراً أعادت الرسالة ذات الاستنتاج الذي جاء في الرسالة السابقة [العضو الذي يستمر معنا بعد هذه الهجمة سيستمر طويلاً].

ولتأكيد النهج الذي خطه الحزب بعد الهجمة وحوته الرسالة بان التجربة جرى التأكيد عليها وبيان لا تراجع عنها، قام الحزب مطلع سنة ١٩٨٦ أي في اوج المواجهة، بإصدار رسالة حملت عنوان [رسالة جيفارية]. كانت تلك محاولة اولية متروك للزمن وخبرة الممارسة ليلورتها نهائياً - لتحديد خط الحزب لبناء حركة عصابية سرية في الوطن. لقد قرأت الرسالة تجارب عسكرية ثورية عديدة، روسية، صينية، فيتنامية، بلغارية، وكوبية وبرزت ملامحها كما قرأت خصوصيات الوطن الديموغرافية والجغرافية فاستخلصت التكتيك القتالي الملائم للوطن القائم على بناء حركة عصابية سرية في المدن والأرياف، والحركة كما جاء في الرسالة قوتها الأساسية في سريتها فيما قائدها وحاضنها وسياجها بنية تنظيمية صلبة لها امتداداتها السياسية والجماهيرية، بنية تبلغ من التراكم بحيث تتمكن من إطلاق الحركة واستمرارها وحمايتها، وأخيراً فان الرسالة قد ركزت على النموذج الجيفاري الثوري وسماته الأساسية التي تخلق مقاتل ورجل العصابات.

كان الربيع قد بدأ يطرز حاكورة المنزل بحشائشه الربيعية الياضعة وحنونه الأحمر. ستارة النافذة المنزاحة قليلا أضحت جزءا من روتين أيامه ورسالة جديدة ثلاثة تشير لتوقف الهجمة. رفاقه يرسلون كميات كبيرة من الكتب والروايات ويضمنها الأعمال الكاملة لغسان كنفاني ورغم قراءته السابقة لروايات كنفاني وقصصه ودراساته النقدية فقد أعاد قراءتها جميعا في زمن قياسي، أربعة أيام. بين قراءة نهمه وسعاده بإيقاف الهجمة على الحزب والتمشي بين النافذة الشرقية والجدار وغرس نظراته بالفتاة - الشمس وسماع المذياع، جرت أيامه المشبعة بحلاوة الربيع وحشائشه الخضراء التي تبعث راحة وفرحا في النفس. أي معنى تتخذه النظرات عن بعد بين شاب وفتاه؟ أي قول تبثه الابتسامات السرية الخجولة غير المباشرة أحيانا بين شاب يرى في ابتسامه فتاه فكما لعزلته ووحدته عن عالم الإنسان وفتاه تنتظر طوال سني مراهقتها وعلى عتبة نضجها أن يبتسم لها شاب ما، يخترق بابتسامته جسدها الذي اكتملت انوثته؟ أي صداقة تنشأ دون حديث، مجالسة، رفقة مشتركة، يد تحتضن يد الآخر؟ كان في تمشية بين النافذة والجدار بدأ يرى الفتاة - الشمس يوميا منذ الصباح الباكر حتى الظهر تنتقل بين البيت والمطبخ. بعد الظهر كان لها عاداتها اليومية، تغير ملابسها وتتهندم قياسا بقرها، تخضب شفيتها بأحمر الشفاه وتجلس على كرسيها عند الباب الخلفي مقابل نافذته وتأخذ بالنظر لساعات حتى تبدأ شمس آذار بالمغيب. كان ينتظرها من خلال ستارة نافذته المنزاحة قليلا، بات ينتظرها كأنه على موعد معها، ما ان تظهر حتى يفرح ويبتسم ويتأملها عن بعد، مكثفيا بهذا الحد من المتعة التي تنتجها حياته دون ان يخرق ضوابطها، الا ما أكثر ما تقزم حياته متعته ورغباته؟ من نافذته كان يمكن معرفة ان خرجت من البيت ام لا، مدخل بيته وبيتها ذاته، الممر الترابي يقود للبيتين. لم تكن تبارح البيت حتى قيل ان تلدها شمس شباط، ما رآها مرة تسير في الممر الفرعي ذاهبة أو آتية، لقد اعتاد النظر للمارة منذ انتقاله للبيت إما إضاعة للوقت أو فضولا يستوطن حياة من يحيا حياته، لمراقبة المارة أو تدقيقا تتطلبه حياته السرية.

أضحت جزءا من حياته وداخل بيته تلك التي تقضي نهارها في المطبخ أو خارجه منه، داخلة اليه أو جالسة تطرز. أصبح يعرف نظام حياتها وهو ذاته نظام حياة الأغلبية الساحقة من فتيات شعب بأكملها. الآن تظهر ذاهبة للمطبخ لتعد طعام الإفطار، بعد قليل سترجع حاملة طبق القش للبيت. عند التاسعة تقريبا، تدخل مطبخها لتعد طعام الغذاء، يستغرق ذلك ساعتين تقريبا، الآن تسرع لتكنس وتنظف البيت. بعد الظهر اما وحيدة واما ضمن جلسة نسائية عجائزية تجلس أمام الباب تطرز على قطع القماش، الأشكال الجميلة الملونة. بل عرف أكثر من ذلك؟ اسمها عبير اسم الطفلة الصغيرة التي تلتصق بها اينما ذهبت روزان، عرف أن الصغيرة

الأقانيم الثلاثة - وسام الرفيدي ١١٣

ابنة شقيقها. عرف كل شيء عن عائلتها، أي عمل يمارسه والدها العجوز، ماذا يعمل اخواها الاثنان، عرف حتى بعض خصوصيات عائلتها وهمومها فالأحاديث الخصوصية عند عائلة تتجمع على مائدة الطعام باب البيت جريا على العادة الشعبية، يسمعها سكان البيوت المحيطة. اعتاد أن يغفر لنفسه التصنت على أحاديث جيرانه، كان يعزي نفسه برغبته بأن يكون جزءا من الحياة خارج البيت باهتمامه ويمتابعه لأحاديث من يحيون تلك الحياة، كان يفيد أن يعرف أن كان جيرانه يثيرون أسئلة ما أو يتناقلون أخبارا تتعلق بهـ جارهم الذي لا يرونه. لكنه الآن أضاف سببا آخر وجده وجيها: رغبته بالتعرف إلى الفتاة - الشمس عن قرب، عن طريق معرفة كل شيء عنها ومن بعيد طالما الاقتراب خطرا. كانت أنهت دراستها الثانوية وجلست شأنها شأن أترابها من الجنس اللطيف تنتظر الانتقال من بيت والدها إلى بيت زوجها على فرس بيضاء يحملها فوقها فارسها الرجل. كانت تنتظر تلك البانسة وتحلم وتعتقد أنها ستحقق حلمها وبالتالي السعادة، فيما اهلها ينتظرون على أحر من الجمر ذلك الفارس بلهفة توازي لهفتها وان لم تزد عنها. متى سأتخلص منك وازوجك، زوجك حينها يهتم بأمرك. هكذا خاطبتها امها العجوز يوما في مجادلة تتكرر يوميا حول امور المطبخ. كان الفتاة - الشمس عبئا على أكتاف عائلتها تنتظر بفارغ الصبر ان تزيحه عن ظهرها.

في يوم آذاري جميل مشمس، عند العاشرة صباحا حينما كانت عبير تتهمك باعداد طعام الغذاء كان كنعان يقف عند نافذة مطبخه يقضم تفاحه ويتطلع للحاكورة الخافية الممتلئة بالحشائش البرية الخضراء اليانعة ويورود الحنون الأحمر الجميل، كان يتطلع ساهيا، شارد الذهن لا متأملا الحشائش والورود ذاتها، ذهنه يسرح بعيدا. فجأة وكناما من وسط الورود الحمراء والحشائش الخضراء، ظهرت الفتاة - الشمس واقفة أمامه. كانت لا تبعد عنه سوى مترا واحدا، تنظر اليه دهشة من ذلك الوجه الغريب الملتحي الذي لم تره يوما، تنظر وعلامات وامارات التعجب بادية على وجهها ليس فقط لأنه لم يحس بوجودها الا اخيرا بل وعجبا من أنها لم تره يوما عن قرب خارجا أو داخلا. عجبه هو الآخر لم يقل عن عجبها هل ولدت من بين الحشائش والورود للمرة الثانية بعد ان ولدتها الشمس في المرة الأولى؟؟ عيناه قابلت عينيها، تسمرا لثوان ينظران لبعضهما مندهشين ومتعجبين، ابتسم لها والفرحة بادية على وجهه الذي غادرته ملامح التعجب، بادلته الايتسامة بايتسامة مرتبكة خجلة، فيما اصطبغ وجهها بالاحمرار حياء، فرحة، دهشة، وتعجب. لم يدم تلاقي العيون وتبادل الايتسامات سوى ثوان معدودة، اجمل ثوان مرت عليه منذ ثلاثة شهور، عيناه ووجهه اظهرا فرحة اما هي فايتسامتها الطفولية الخجلة والمرتبكة كانت تشي بأنها ما رأت شابا يبتسم لها من قبل، كانت ابتسامته حدثا غريبا يدهمها تلك التي تنتظر فارسها فشعرت بالارتباك والخجل، ولكن ذلك لم

يمنعها من ان تترك العنان لانوثتها بان تعبر عن نفسها، عن فرحها ولو بسرعة البرق، فلطبيعة منطقتها الذي لا يعمل الا وفقا لمتطلباته.

بنفس السرعة أدارت وجهها وانسحبت متوارية عنه. انتقل سريعا إلى نافذته الشرقية ليرقبها تخرج من مدخل بيته، أدارت وجهها عندما صارت عند المدخل ونظرت إلى النافذة وابتسمت ابتسامتها المرتبكة من جديد. كانت تدرك بكل جوارحها ان ابتسامته وعينه تلاحقانها من النافذة، أسرعت في مشيتها تقطع المسافة بين مدخل بيته ومطبخها الذي وصلته سريعا تحمل بيدها - لاحظ ذلك أخيرا!! - قطعة من نبات الخبيزه الذي ينتشر بكثرة في الحاكورة.

جلس على الكرسي في غرفته جميلة هي لكن ابتسامتها المرتبكة اجمل. احمرار وجهها خجلا أضفى عليها مسحة طفولية حين ضبطت متلبسة بالنظر اليه، حتما ستتساءل الفتاة - الشمس أسئلة مربكة لها اكثر من ارتباك ابتسامتها:- من أي ظهر هذا؟ انني في المطبخ منذ الصباح، ستقول، وبين مطبخنا ومدخل بيته ليس اكثر من ثلاثة أمتار، كنت سأسمع وقع خطواته وان لم اسمعها كنت سأسمع صوت الباب وضجيجه عندما يفتح ويغلق، متى جاء؟ ستسأل، البارحة؟ لكن الباب لم يفتح سوى منذ اسبوعين وفي الليل. من هو هذا؟ من يسكنون هنا، اعرفهم واعرف ما يعملون، كنت أراهم صباحا يخرجون ويعودون بعد الظهر، اما منذ ثلاثة شهور فلم أر واحدا منهم، الآن أرى هذا الغريب الملتحي وهو ليس واحدا منهم، واقفا أمامي شاردا الذهن فهل نبيز من الأرض ام هبط من السماء؟]

انتزعه من تأمله طرق شديد على الباب. كان يعرف تلك الطرقات ومنذ ثلاثة شهور. لن افتح ولتتردد الأسئلة المحيرة في رأسها، لتؤكد لها غرابية حياتي وسلوكي. لا خيار! بدأت اللعينة سكينه تمارس طقسها المعهود، طرقت على الباب الأول وصاحت بصوتها القبيح ولم يرد. كانت الفتاة-الشمس تراقب المشهد. انتقلت إلى الباب الثاني وكررت صيحاتها المجنونة ولم يرد. كأنه لم يسمع الطرق على الباب الأول لتنتقل إلى الباب الثاني!! توجهت للنوافذ تنقرها وتحاول فتحها، تلصق وجهها بزجاجها محاولة رؤية أحد ما. كان يداري نفسه خوفا من أن تراه. بذات الوقت لمح الفتاة - الشمس تقف عند باب مطبخها تنتظر وتضحك بمتعة واضحة، كانت فرحة للعذاب الذي تعانيه اللعينة سكينه! فهمت أن الغريب الملتحي لا يريد أن يفتح الباب فأسعفته:

- خالتي سكينه ليس من أحد في البيت، لقد خرجوا عند الصباح. قالت تؤكد وقوفها لجانبه في محنته مع الحيزبون.

- أين هم؟ ماذا يفعلون في البيت؟ لا افهم شيئا. منذ ثلاثة شهور لا أرى وجه أحد منهم.

كل يوم يأتون للبيت بغد الظهر ويخرجون صباحا. أنا أراهم. أنها تؤكد من جديد تضامنها العفوي معه فتستمر بالكذب على شرفه. كل أسبوع آتي مرتين وأحيانا ثلاثة ولا أحد يرد علي!

- عندما تأتئين يكونون هم خارج البيت صدفة. قالت ذلك ولم تستطع أن تكتم ضحككتها. كانت سعيدة سعادة طفولية إذ تساعده على تحقيق هدفه رغبتة بعدم فتح الباب ولأن اللعينة سكينه تتعذب هكذا. تعبيراً عن تدمرها وغضبها ثرثرت هذه الأخيرة بكلمات لا يفهمها كعادة العجائز في هكذا مواقف يتحدثون بتبرم فلا تفهم شيئا، ثم ذهبت.

[شكرا لك أيتها الجميلة يا ابنة الشمس والحشائش الربيعية و الحنون الأحمر! كنت وفيه للابتساماة التي تبادلناها فرحين، لقد أنقذتني من ورطة إذ أنكرت وجودي، لن انس ذلك، ولكن ماذا فهمت من كل ما جرى؟؟ أفهمت ان غريبا ملتحميا شاردا الذهن لم ترينه من قبل ولا يفتح الباب، لا يخرج ولا يدخل، هل أدركت حقيقة ذلك الإنسان - الذئب القابع في وكره؟ ام ان ضيق آفاق حياتك ومحدودية تجربتك بها لن تسعفك بالاستنتاج. لا شك تعتقدين ان كل ما جرى هو مجرد هروب من رؤية وجه اللعينة سكينه لا بأس بل جيد ان تعتقدين ذلك - فقد حافظت على سري. مرة أخرى شكرا لك أيتها الوفية لابتسامتنا الفرحة]

بعد ذلك كانت الفتاة - الشمس قد تعودت ان تتصدى هي لجولات التفقد بتأكيدات كاذبة [انهم ليسوا بالبيت! خرجوا قبل ان تأتي بنصف ساعة!]* حين تكون مؤكداة ان الغريب الملتحي خلف ستارته يبتسم لها شاكرا فرحا.

منذ لقاء نافذة المطبخ والحديقة غدت عيناها تتغرسان بنافذته الشرقية متى اتيح لها ذلك. أخذت تقضي اقصر مدة ممكنة في البيت أو المطبخ فيما ساعات تظل جالسة عند الباب أو تتمشى مع الصغيرة روزان لتقترب معها من السور الفاصل بين البيتين بحيث يمكنها رؤيته عن قرب، وهو خلف الستارة المنزاحة قليلا. كانت تجلس وتطرز وعيناها تنظران للنافذة اكثر مما تتابعان حركة يديها والإبرة. باتت تدرك الآن ان الغريب الملتحي لا يبارح بيته، الباب لا يفتح، لا يسمع ضجيجه، لا صوت أقدام تدوس الحصى المنتشرة عند مدخل البيت، باتت تدرك اللعبة وان لم تدرك سببها، ولكنها مثله لم يعد يعنيه سوى التطلع وامعان النظر، كانت ترى الستارة منزاحة قليلا فتحس بنظراته تتغرس فيها، بوجهها الطفولي، بشعرها الأسود الفاحم، بعينيها، بجسدها، كان يعلم أنها تعلم فاستمر بالوقوف خلف نافذته

يرقبها، يتأملها ومشاعر عديدة تتناوب كأنهما كانا يتواعدان. منذ الصباح ما ان تخرج متوجهة للمطبخ حتى تلتفت وهي تخطو نحو جهة النافذة وتبتسم لذلك الواقف خلف ستارها. ما ان تعود من المطبخ حتى تلتفت سريعا فتخطف نظره للنافذة وابتسامة سريعة تنطبع على شفثيها، زادت من تمشيها عند السور القريب من نافذته، غدت لا تفارق كرسيها عند الباب طوال ساعات بعد الظهر وحتى مغيب الشمس الا اذا ناداها احد أفراد الأسرة، تطرز وتنتظر وتبتسم، لم تعد ابتسامتها مرتبكة غدت منطلقة جريئة كأنها تقول:- من حقي ان ابتسم له وهانذا افعل.

لقد تصادقا دون ان يتحادثا، دون ان يتجالسا، الابتسامات والنظرات كانت جسر علاقتهما، أدركت سره وان لم تفهمه على حقيقته فكانت ابتسامتها له ابتسامة تعاطف وتضامن وصدافة. وقف على حياتها فاسف لها واشفق على فتاة نافذته، الفتاة - الشمس.

عند عصر يوم دافئ من أيام آذار نهضت عن كرسيها وأخذت الصغيرة معها وتوجهت نحو مدخل بيته، عبرت المدخل وهو يرقبها ويتابع سيرها ودخلت الحاكورة وأخذت تلتقط باقات من ورد الحنون الاحمر، انتقل للنافذة الثانية ليرقبها جيدا، كانت تلتقط الورود وتسير نحو الجهة الخلفية للبيت، سارع للذهاب للمطبخ وتوقف عند النافذة - فظهرت تواصل النقاطها للورود والصغيرة روزان تتقافز من حولها كالأرنبة فرحة بالشمس والورود الحمراء والرحلة حول البيت والفراشات الملونة الطائرة. لاحظ خط سيرها، كانت تسير باتجاه نافذة مطبخه تتحني تلتقط وردة وتسير، تطلعت في لحظة حين اقتربت من النافذة فرأته واقفا عندها يتأملها فابتسمت له فابتسم، استمرت بسيرها نحو النافذة واقتربت حتى أصبحت لا تبتعد سوى مسافة خطوة واحدة تفصلها عنه، عندها تناولت حنونه وأفتتها باتجاهه وأخذت بيد الطفلة تحمل باقتها وابتعدت عن النافذة مدبرة ظهرها له، التقط وردتها التي مرقت من بين قضبان النافذة فرحا وقال بعفوية يخاطب نفسه بصوت مسموع:-

- اجمل وردة من اجمل وردة.

سمعت جملته، أدارت رأسها نحوه، ابتسمت ابتسامة راغبة دون ان تفارق وجهها حمرة ومضت بطريقها بسرعة نحو المطبخ.

[إيه إيتها المسكينة، يا ذات الوجه الامغر خجلا مثل وردة الحنون! أيتها المولودة من الشمس وتظهرين من بين الحشائش الربيعية اليانعة الخضراء والحنون الاحمر، لا يمكن للغريب الملتحي ان يخطو نحوك خطوة واحدة! هذا افضل لك، ليس خوفا من ممارسة التجربة لا يقترب ولا يتنازل عن حق له بك ولا لك به لا يخطو، انما هي الحياة السرية وقواعدها، هل يمكن ان تفهمي قانوني

حياتي (إجراءات، تحوطات، تطلبات، قواعد) (لا تزر احدا، لا تستقبل احدا، لا تفتح شراعة الباب لعجوز بيراوية)؟؟ هل يمكنك ان تتخيلين، مجرد تتخيلين انسانا لا يزور احدا ولا يستقبل احدا؟! انى لك ان تفهمين ذلك انت الجميلة التي حشي رأسها بثقافة المطبخ واللغو الفارغ للثقافة المدرسية؟ لمن تتهدمين يوميا؟ للفارس الذي سيأتي على فرسه البيضاء ويأخذك للسعادة؟ مسكينة اذ تتمسكين بسعادة هي وهم. هل تتقنين دورك كعروس أمام النساء اللواتي يزرن بيتك؟ يأتيه بمئة حجة وحجة والهدف واحد، معاينة البضاعة! هل تستعدين جيدا للقيام بدور كنة عجوز خرفة في أواخر عمرها؟ إيه ايتها الجميلة ستخرجين من مطبخ وتذهبين إلى آخر - ولدت من الشمس ولا مكان لك تحتها فمكاتك خلف الجدران خضوعا مستكينا لعرف بال ونظام مقرر. شتان بين جدرانك وجدرانى، كلاهما يعتصم خلفها، انما انا تمردا وانت خضوعا، التمرد والخضوع لا يلتقيان يا فتاة الشمس والربيع! أنا امالك قراري ومصيري فيما أنت لا تملكين حتى الابتسام الا مرتبة وخجلة وربما خانقة. هذا الحد ارتبكت ابتسامتك الأولى، وعندما خطوت كانت خطوتك تخطيء اتجاهها [اعرف لقدمك قبل الخطو موضعها] ألم تقرأي لنجيب محفوظ؟ انني يا فتاتي لا املك حتى حمارا آتيك على (صهوته) فكيف بقرس بيضاء. الاقتراب منى اقتراب من جنون الثورة، جنون الحياة فتغدو المجنونة المقتربة مجنونة مثلي يركبها عفريت الثورة، أو عرفت طريقها للجنون قبلي فنحيا وناضل ونحب وقد ركبنا عفريت مشترك؟! هل سمعت عن عيش الحياة والنضال والحب والجنون؟ لا تصلحين اقتوما ثالثا لديني بل أيقونة جميلة تعلق على الحائط!، طموحي اقنوم وليس أيقونة! بانسة أنت. جميلة وبانسة. طيبة وبانسة، لا تدرين كيف تحبين ولا ماذا ينتظرك. تعيشين الاسحاق والدونية ولم تتعلمي بعد (ان تدقي على جدران الخزان). كل ما حولك يسحقك وأنت لا تدرين. الشرانع الرجعية، المدرسة، الرجل، الطبقة، العائلة، الاحتلال، كلها تسحقك. فمنذ قرون وقرون يضحكون على ذقنك اذ يقولون لك [أنت مصنع الرجال ومربية الأجيال] فيما دورك تحدد عندهم، من السرير للمطبخ وبالعكس، ارضاءا للفارس على فرسه البيضاء، ترضين معدته وشهوته الكامنة بين فخذيته! حملتك الأسطورة مسؤولية إغواء آدم، تدنيسه، تدنيس نفسك رغم انك باغوائه منحته المعرفة والمتعة والحياة! أجدادنا الأولون كانوا اكثر انصافا لك من كل الأساطير والتشريعات فالبابليون منحوك شرف تحويل الكائن نصف الحيوان - نصف الإنسان إلى إنسان كامل بعد ان اغويته، ضاجعته، املاكك وامتلكته، انتشى بك وانتشيت به فمنحته انسانيته ليعود ذلك الرجل فيسحق انسانيته!]

حادثها طويلا منفعلا وهو يتمشى وحيدا بين النافذة والجدار ويفكر. قدم لها باقة ورد احمر [خذي فلا اجمل من الورد الأحمر، انه كل شيء جميل، من الثورة

إلى المرأة وما بينهما] رآها تبتسم لياقته لكن دون ارتباك. غرست وردة في شعرها الأسود الفاحم، كان وجهها الطفولي يصطبغ بذات حمرة الوردة حتى ليصعب التمييز بينهما، أدهشه التشابه فابتسم فرحاً ومتعجباً!

في أواسط نيسان يتقرر الرحيل من بيت اللعينة سكينه. لقد أحدثت ضجة في الحي بتساؤلاتها حول غرابة مستأجريها الذين لا يظهرون. الهجمة انزاحت نهائياً والترتيبات الجديدة تحفر طريقها. كان متعطشاً للعمل، لاعادة بناء ما تهدم. سيعود وقد تركت مواجهات سنة ١٩٨٥ على نفسه تأثيرات عميقة في اتجاه تعزيز انتمائه أكثر، تعزيز قناعته بأهمية الحفاظ على ذاته خلف جدران وكره، سيعود وقد أسس دينه الثالوثي، شرّع لنفسه إقائمه الثلاثة، انتهى السكن وحان أوان الانطلاق. قرر ان يترك تذكراً للعينه سكينه قبل الرحيل وبعد ان أعاد لها ملكيتها الخاصة لداخل الغرفتين وأقلهما من جديد، أخذ رماد سجائره، مزجه بالماء وغمس إصبعه بالمخلوط الأسود، كتب على الباب الشرقي من الداخل [الموت للعينه سكينه - ك] فتح الباب وخرج يحمل معه ما جاء يحمله قبل أكثر من ثلاثة شهور، أوراقه، علب سجائره، سبخته الحمراء وحقيبة ملابسه، غير ذلك كان يحمل ذكرياته. كانت الساعة السابعة مساءً. شمسها دخلت بيتها لا تدري أنها صباحاً ستفتقد تلك الستارة المنزاحة والابتسامه خلفها، نظر جهة مطبخها عندما عبر المدخل المغطى بالحصى باتجاه الممر الفرعي الترابي المؤدي للشارع:

[من ستبتسمين بعد اليوم يا فتاة الشمس والربيع؟ الواقف خلف الستارة يرحل فالرحيل حياته ودائماً سأحمل ابتسامتك ووردتك الحمراء معي فأحملي صورة (الغريب الملتحي)، يقف عند نافذة مطبخه، مجرد صورة لا أكثر].

سار في الممر الترابي تاركاً خلفه بيت اللعينة سكينه وابتسامه فتاة الشمس والربيع. حدث نفسه مجدداً وهو يسير وبصوت يسمعه: إيه يا فياض أي تشابه بيني وبينك؟ لقد غدا لي فتاة نافذة مثلك! هل ستكون نهايتي كنهايتك أيضاً: الاعتقال مع مطبعة الحزب؟ وسار لا يتطلع للوراء. فقط للأمام! ■

الفصل السابع



الفصل السابع

رياضي أبيض يتوقف عند رأسه. من خلال عصابة العينين المنزاحة قليلاً، يرى كنعان مقدمة الحذاء باتجاه رأسه.
- الأرجح ينظر اليّ فليس هنا ما يبحث عنه.

حذاء

كان هذا من نوع (اديداس) الجيد. لم يكن الحذاء يتحدث بل ينظر فحسب، يبدو انه كان يُرضي ساديته بالاستمتاع ناظراً لكنعان ممدداً على بطنه. غابة البساطير والأحذية الرياضية والمطاطية تجوس عالمه - بيته، غرفة عُرفة، ركناً ركناً، كانوا يفتشون. لا زال يسمع أصوات العبث المنفلت: - خزائن تتحطم، طاولات تتكسر، أرائك وفرشات ووسائد تتمزق، جدران تهدم وبلاطات تخلع. يهدمون الحائط في غرفة نومه الذي يفصله عن بيت جيرانه، كان يسمع مهداتهم تذكه ويرى عدة بساطير من موقعه تتجمع عنده. ماذا يقول جيرانه الذين يحيون في عالم غير عالمه؟ عالمهم لا يعرف مفرداته؟ أوراق، جدران، أبواب، عمل سري، خلايا، منظمات، حزب، تكرر، مخابرات، حرمان وقسوة، تمشي بين جدار وباب، عالم لا يرى الاحتلال الا من بعيد عند حاجز تفتيش أو عند سماع الأمر بمنع التجوال أو من على شاشات التلفاز، لا يعيش الصراع معه ساعة بساعة، تمرداً عليه. كانوا شان الجميع يجمعون المال، ينامون، يتناسلون، وياكلون، يُزارون ويزورون، لا جامع بين عالمهم وعالمه. دائماً تأمل حياتهم التي يراها من نافذته، شرفته. العديدون يرونها طبيعية الا انه لم يكن يراها هكذا، أنها حياة استثنائية في ظل الاحتلال. حياته هي ما كان يراها طبيعية عندما يقارنها بحياتهم. ليس من الطبيعي ان يعيش شعب تحت الاحتلال عيشة طبيعية فذلك لا يناقض منطق الأمور فحسب بل ومع الزمن يتحول هذا لخطر على الشعب ذاته. كان جيرانه يمتازون بتلك اللباقة الاجتماعية المهذبة التي تنسم بها الأوساط البرجوازية المدنية في وسط الوطن، لا يعملون قصاصي اثر خلف من يجاورهم شأن من ينحدرون من أوساط شعبية. لا يدسّون أنفسهم في شؤون من يجاورهم ولا يرصدون الداخل والخارج، لا يتلصصون من النواقد. كانوا جيراناً نموذجيين لبيت سري لذلك سيظل طوال حياته مديناً لهم وللباقة تصرفهم.

- الشكر لكم على لباقتكم. اعتذاري للطفلتين الصغيرتين اللتين دبت البساطير الرعب في قلوبهما الصغيرين وانتزعتهما من أحلامهما الجميلة. حتماً ستعقد الدهشة السننهم عندما يفيقون من رعب هذه الليلة الفريدة في حياتهم، ماذا سيقولون عندما يعلمون أي سر كان بين الجدران الملاحقة لجدران بيوتهم؟

- غير معقول! كل هذه المدة بين الجدران بقرينا ولا نعرف كنعان اياه الذي اختفى منذ سنين يظهر الآن بجوارنا! هل هذا معقول؟ ما هذا؟ معقول؟ ما هذا الذي يجري؟

- بل معقول ومعقول! للخلاص من غابة البساطير التي أرعبت طفلتكما فكل شيء نفعله نحن الثوريين معقول. اذا كان ترحيل شعب ممكن فكل ما من شأنه ان يضع حدا لهذا المزاج السخيف من التاريخ بحقنا يغدو معقولا مهما بدا مجنوناً.

بل ماذا سيقول كل جيرانه؟ العمال خلف ماكيناتهم يصنعون طوب البناء. العربة الحديدية التي تحمل الحجارة الصغيرة من كل نوع في معمل البلاط الأرضي. عمال معمل الألبان، الكلاب المزعجة في مطحنة الشعير، البيت غير المكتمل أمام بيته، عمال وعاملات مصنع الشوكولاته الذين كانوا يقضون ساعة غذائهم يتمشون في الباحة الخلفية للمصنع وهو يرمقهم. ماذا سيقول كل من عرفه، اهله، معارفه، زملاء الدراسة، رفاقه، رفيقاته، أصدقائه، سكان مدينته، بل ماذا سنقول أمه؟؟

زارته قبل أسبوع تحمل صررها، اشتياقها، قلبها، سيل من أسئلتها الاستجوابية وزجرياتها!!

- لماذا لم تنظف الثلجة؟ يا بتي منفضدات السجائر مزابل، تنظيفها لا يستغرق دقائق، لماذا ليس لديك لحمه؟ احسب حساب أي طارئ! منذ متى لم تنظف زجاج النوافذ؟ كيف ستدخل الشمس عليك؟ اسبكت وناولني (القرفة) لاصنع لك (هيطلية)!

خذ وانظر لكنعان الصغير ما أحلاه. تعلم ان يقول (انا مثل عمو كنعان).

نقلته لعالمها، فرح لذلك باستسلام لذيذ خدر لامومتها. تغذيا ورحلت بعد ان أكدت على حفنة توجيهات عند الباب. ماذا سنقول أمه؟ ستخاف وتفرح لاعتقاله! تخاف عليه بين أيديهم وتفرح لانه سيظهر وقد تفرح أخيراً به اباً لأطفال، لا فرحها سيزيح خوفها جانباً ولا خوفها سيطغى على فرحها، ستعيش هي الأخرى تناقضاتها.

[انكشف السر الآن ونزع الحجاب، ستارة المسرح رفعت والنظارة سيشاهدون الممثل الذي تساءلوا طويلاً عن مصيره!]

- قبل ذلك ليتذكر كل واحد ماذا قال حينها قبل تسع سنين حين أدت ظهرك للحياة واخترت النضال ولم تظهر. أتذكر ما كنت تسمع وكيف رددت؟

الأقنيم الثلاثة - وسام الرفيدي

- هذا مجنون، انه مجنون.
- الثورة هي الجنون. دون جنون الثورة ومغامرتها لن تتحرروا!
- يترك امه، خطيبته، وجامعته، هل تستحق المسالة كل ذلك.
- تستحق وتستحق. الوطن قبل نفسي وضعته، أفلا أضعه قبل أمي وخطيبتي والجامعة؟
- سنة، سنتان، ثلاث، يقضيها في السجن ويخرج وينتهي كل شيء فما الداعي لكل ذلك؟
- انتم لا تدركون الجوهر، لا تتقنون سوى القبض على القشور. تعلموا الغوص عميقاً وستفهمون، تعلموا النظر حيث يشير الاصبع لا إلى وسخ الظفر! انظروا ابعد من أرنيات انوفكم!
- لا شك الآن دبر لنفسه منحة دراسية ما في دولة اشتراكية.
- الصغير لا يرى غيره الا صغيراً مثله. القزم يصعب عليه ان يتخيل مشروعاً كبيراً!
- لا شك انه في لبنان عند الفدائيين أو في موسكو عند الشيوعيين.
- خيالكم أوسع من رحمة الله!
- ظهر على حقيقته محرّض الثانويين ومسيرّ التظاهرات. ادار ظهره للنضال وفر للخارج!
- أغبياء ومحدودو التفكير، مقاييسكم ضيقة، سجن أو فرار اليس هنا غير ذلك؟
- هل هذا صنع رجال، يخطب بنات الناس ثم يتركهن ويهرب؟ اراد السياسة فلا يورط بنات الناس معه اذن. أما سياسة وأما زواج!
- لم يبق علي الا هذا! ان اسير حياتي، احدد خياراتي بناء على تحليلات واستنتاجات وتوجيهات العجائز!! لو اتبع الثوريون الرأي العام الساذج والأحمق - في كثير من الأحيان - لما سار التاريخ ملامتاً واحداً للامام.
- الطالب عليه ان يهتم بدراسته، المرأة بمطبخها ومتعة زوجها، الأب بقوت أبنائه، الام بضم أبنائها تحت جناحها، كل حدد له الرأي العام وظيفته. من سيصنع الثورة اذن؟ من سيدفع التاريخ للامام؟ سكان المريخ مثلاً؟!

كنت هزمت ذاتك حينها اذ رددت هكذا على تقولات من عرفك. قليلون أولئك الذين ربما، ربما فحسب فهموا لعبتك ولعبة حزبك فكتموا فهمهم في قلوبهم] اشد ما ازعجه حينها سلوك العجائز والثرثرات الذي لم يتوقف طوال السنين الخمس الأولى، لم يظهر فلاكوا اسمه وهذا كان مفهوماً. فسخت منى خطبته لها رسمياً فعادوا لاسمه بعد ان كادوا ينسوه. ما ان توقفوا عن الثثرة حتى بدأوا من جديد منى خطبت (صاحب المركز) فتذكروا قصته معها وعادوا يلوكون اسمه. تزوجت فكرروا ما اعتادوا عليه حتى كتموا اخيراً. لم تزعجه

تقييماتهم لما جرى بقدر ما أزعجه إن يظل اسمه ينطرح في مجالس القيل والقال. كانت امه تنقل له ما يقال وفي داخلها تقول بنفس ما يقولون اما أمامه فتنقل بحيادية مصطنعة فحسب. قاعدته السرية كانت شطب اسمه من التداول نهائياً كعملة قررت الدولة سحبها من السوق. الحزب عمل بذات القاعدة، من يسأل عنه من الأعضاء شفاهة أو كتابة كان يأتيه الرد [هذا الاسم لا نعلم عنه شيئاً] ابلغه الحزب بذلك فسر له.

الآن اعتقاله يغير، يكشف ويكشف، يزرع موقفاً ظل (شئله) بين يدي الحزب، يرسخ مفهوماً ظل مكتوماً، يربي بتجربة ظلت سرية، [ربما تلك وتلك فقط فائدة اعتقالي الوحيدة].

منذ ترك كنعان بيت اللعينة سكينه انتقل إلى بيت عند الطرف الجنوبي لمدينة البيره متاخماً لاراضي قرية ومخيم قلنديا. كان بيتاً في حي جديد شوارعه لم تُعبد بعد، فيما البناء يغزوه حديثاً، حديثاً. اتخذ لنفسه شقة في الطبقة الثانية في مبنى مكون من طبقتين يملكه رجل كان وعائلته نموذجاً مناسباً لصاحب البيت الذي يريد لمواعمه المواصفات التي تتطلبها الحياة السرية. فصاحب البيت اهم من مواصفات البيت نفسه فام عيسى واللعينة سكينه مثلاً تحولاً حياة المتخفي لجحيم مما يؤثر على استقراره وهدونه النفسي، فيما رجل كصاحب كرم التين أو كصاحب الشقة التي انتقل اليها حديثاً فهما من النوعية التي يخيل لرجل التخفي ان الحياة فصلتهما بالضبط ليناسيا التجربة، يساهمان بنجاحها اذ يخلقان بسلوكهما ما يريح صاحبها. كان صاحب البيت عجوزاً جاوز الستين يستعمل نظارة طبية سميكة سمك قاع كوب الشاي، يسير محدودباً نتيجة كبر سنه على الأرجح فيما الكوفية البيضاء التي يرتديها صيف شتاء تغطي جبهته لتصل نظارته. كان بالكاد يميز من سيستأجر منه بيته، من يقف أمامه، يمر بحذائه، وهو يجلس أمام بيته، يصعد أو ينزل درجاته. ان نجاح ان يرفع رأسه فعينيه لا تسعفانه. زوجه فيها من الطيبة الفلاحية ما لا يمكن في يوم من الأيام ان تتلوث بوضعية "الملكية الخاصة" علماً ان تلك الملكية كانت عبارة عن أربعة شقق مؤجرة هي بمقاييس مدينة البيره جيدة نوعاً ما.

كانت العجوز تعامل ساكني شققها كما تعامل ابناءها اذ لا يكاد يمر اسبوع الا وتضع أمام كل شقة ما تيسر من إنتاج حقلها الصغير الواقع خلف البيت: - نعناع، بقونس، فجل، بصل اخضر. كان كلما سمع صوت جلبتها عند باب الشقة نظر من العين السحرية فرأها تضع هديتها فينذكر أمه وصررها، اذ كانت هي الأخرى تجلب بين فترة وأخرى صررها: - بعضاً من نعناعها البلدي نافذ الرائحة الذي لا يئذ الشاي الا معه.

عندما دخل بيته الجديد سنة ١٩٨٦ كانت العجوز الطيبة قد نظفته جيدا، ابوابه، ارضيته، حمامه، زجاج شرفته، ما ان اكتشف سجايا العجوز من اليوم الأول حتى اكتشف حقيقة غابت عنه في شهوره الاربعة الماضية:- ان في العالم نوعية من العجائز غير صنف اللعينة سكينه. سارع يطوف الغرف ليتعرف على بيته محيطه، في الجهة الشرقية بيتان واحد مؤلف من ثلاث طبقات والآخر من طبقة واحدة، على الجهة الشمالية تظهر من نافذة المطبخ الشرفة الصغيرة للشقة المجاورة.

صباح اليوم التالي وما ان تطلع صدفة من نافذة مطبخه وهو يعد افطاره حتى هاله ما رأى، وجه نسائي يتميز بقبح لا نظير له، بدا وجهه من رأى كأنه مكون من كتل من اللحم الصقت على عجل دونما مهارة وصنعه فجاء دون تقاطيع تميز بين اجزائه، المنخار، الانف، الفم والذقن كلها متداخلة دون فواصل تميزها، وجهها كان لا اكثر من رطل لحم! الا ما افطع ما تصنعه الطبيعة أحيانا؟ أي وجه هذا؟ كأنه تعرض لتفجير نووي. سارع الوجه اللحمي للابتعاد عن الشرفة، ربما خشية من الحسد!! شعر بالأسف تركت وجه فتاة النافذة، فتاة الشمس والربيع فيكون صباحي مع هذا الوجه النووي؟ منذ ذلك الحين اصبح اسم جارته في الوكر [ذات الوجه النووي] فلا تذكر في وكره الا بلقبها هذا! رآها للمرة الثانية أيضا صباحا، كانت هذه المرة وعند الثامنة صباحا قد طلت وجهها بكمية هائلة من المساحيق. كان الوجه اللحمي قد اصبح كحائط تلهت حفنة من الأطفال المشاغبين برشقه بالوان الدهانات كيفما اتفق. ما ان رآته حتى توارت استحياء. تبسم كنعان لن تكوني فتاة نافذتي حتى لو كنت كحواء لا ثانية لك!

بعد هذين اللقاعين اصر كنعان على عدم سلوك طريق اللباقة معها فقد قرر ان يُبقي نافذته مشرعة دون ستارة ولتمتع هي عن الخروج لشرقتها استحياء فلن يحرم نفسه من الشمس مراعاة لاستحيائها. اما الشقة الثانية بجانب شقته فكان يقطنها شقيقان متزوجان من شقيقتين مع أبنائهما. ما تصادف ان رأى ايا من العائلتين حتى كانت ليلة شتوية عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وبينما كان يشاهد فيلماً سينمائياً عربياً اذ بقرع شديد على باب الشقة وصوت يعلن مكرراً:-
- افتح جيش، افتح، افتح.

ما هي الا ثوان حتى كانت نيران المدفأة قد التهمت أوراقه القليلة حينئذ. توتره بلغ أشده وفي رأسه تصحن الأسنان خلايا دماغه: ماذا جاء بهم؟ لم اسمع صوت سياراتهم وشاحناتهم. أن كانوا جاعوا راجلين فلا صوت حول البيت. الطرقات على الباب تتكرر وكذلك الدعوة لفتح الباب. تسمّر مكانه برهة ثم انتقل

الأقائيم الثلاثة - وسام الرفيدي ١٢٤

للشرفة الزجاجية ونظر خلف البيت فلم ير لهم اثر. توقف الطرق والنداء : ماذا يجري؟ ما قصتهم؟ هل ذهبوا؟ ما ان توقف الطرق حتى سمع جلبة ما، أصوات لم يفهم منها شيئاً، باب يفتح ويغلق، ازدادت حيرته وان خف توتره، انتقل يسير على رؤوس أصابعه نحو باب الشقة والصق اذنه للباب فما سمع أي صوت، نظر من العين السحرية فكان المصباح الكهربائي مضاء وما رأى أثراً لهم. أموت الآن واعلم ما يجري!، ما هذه الألاعيب؟ يأتون، يطرقون الباب، يصيحون ثم يرحلون هكذا في أقل من خمس دقائق؟ هل اخذ الاحتلال يلعب مع الشعب؟.

قتلته أسئلة لا يملك الإجابة عنها. لا أقسى من تسلل المجاهيل إلى راس الثوري، يشعر كأنه لعبة في قدر سخييف يتلاعب به دون ان يدري ما يجري. عاد وقعد أمام التلفاز، كان الشهر شهر رمضان فيستمر البث التلفزيوني حتى الفجر وكعادته ما نام قبل ان ينتهي البث بل كان ينتظر رمضان سنوياً ليتابع مسلسلاته، أفلامه، وبرامجه بفرحة طفل. ما عاد يتابع أحداث الفلم وان نظر للتلفزيون تفكيره قلق مضطرب ويتجه اتجاهات شتى دون ان يستقر. عند الخامسة صباحاً غفا قلقاً، ونهض عند السابعة والنصف يجب ان أتقصي حقيقة ما جرى البارحة، لا بد من طريقة للحديث مع إحدى الشقيقتين. كان يسمع وتقريباً كل يوم مشمس صوت إحدى الشقيقتين وهي تصعد لسطح البيت لنشر غسيل العائلة. اخذ قطعاً نظيفة من ملابسها وبللها بالماء وجعلها في طست الغسيل. عند الثامنة سمع صوت باب شقة الشقيقتين يفتح. كان صباحاً يبشر بيوم مشمس فتطلع من العين السحرية فاذا بإحدهن تصعد للسطح فتحرك سريعاً، لحقها فاذا بها تنشر ملابس الأطفال.

- صباح الخير جارتنا. أنا اسكن بجاتكم.

- صباح النور.

- ردت ومفاجأة رؤيتها لجارها لأول مرة منذ شهور تظهر على محياها. لم ترتبك حياءً وهذا ما سره اذ يمكنه استجوابها.

- لنرجو فقط ان يظل النهار مشمساً حتى يجف الغسيل في الأخبار قالوا ان اليوم سيكون الطقس صافياً. العائلة التي فيها أطفال مثلنا تحتاج يومياً لان تغسل. ماذا نفعل؟ هذا حال الدنيا.

كانت منفتحة بالحديث على غير عادة المرأة التقليدية التي تقابل رجلاً لا تعرفه.

- بالأمس ليلاً صحوت على أصوات صياح لم أفهم منها شيئاً، أرجو ان يكون خيراً هل الصوت كان عندكم ام في الشقة الأخرى.

كانت لحسن حظه مخلصاً للعادة المتأصلة في المرأة التقليدية، عادة الثرثرة. أفرغت ما في جعبتها سريعاً وهي تضحك محاولة ان تعتذر عما ستكشفه.

- آه أنت سمعت الصوت. حقا علينا يا جار، الله يلعبه الشقيق الصغير لزوجي، جاء لايقاظنا من النوم كي نتناول السحور معاً، احب ان يمازحنا بان يقلد

الأقائيم الثلاثة - وسام الرفيدي ١٢٥

صوت قدوم الجيش. آه أنت سمعت، ححك علينا يا جارنا (وضحكت) نحن لا نهتم بالسياسة ونعرف انه سيأتي عند الواحدة تقريباً. الحق علينا يا جار. كان الولد يصيح (افتح جيش افتح) حتى ازعج العمارة كلها، ضحكنا كثيراً، طيب نحن أيقظناك على السحور معنا!! لازم تفطر عندنا يوم. ححك علينا.
وضحكت من جديد فيما كنعان يسحق في داخله رغبة جامحة بان يحملها ويرمي بها من أعلى البيت فيهشم عظامها! تصنع ابئسامة بصعوبة وقال:
- بسيطة يا جارتنا كل ما هنالك أنني أردت الاطمئنان عليكم فالجار للجار.
- يخلف عليك، ححك علينا، احنا ما خفنا. كانت تتابع نشرتها الإخبارية فقاطعتها:
- بسيطة يا جارتنا، ما صار شيء.

أدار ظهره سريعاً وهبط الدرجات لشقته. الآن يمكنه فهم ما جرى فشقته كبيرة وفقيرة الأثاث، الغرفة التي يستخدمها لعمله ونومه يشترى لها أثاثاً وغيرها تبقى فارغة. من الطبيعي ان طرقتاً شديداً على باب الشقة الملاصقة لباب شقته سيجد صداه في بيته كأنه طرق على بابيه. هو أضاع اوراقه واستقرار ليله وهدوء أعصابه، كل ذلك لان الشقيق الصغير يحب ان يمازح اشقائه، عبثهم ومزاحهم كلفه الكثير، مرة أخرى يتذكر دعاء امه الذي يحمله منذ سنة ١٩٨٢ ويسمعها تكرر كل يوم [رح يا بني الله يرضى عليك!]. للجيران، للناس حياتهم، لهوهم، عبثهم، وهو له حياته وما فيها لهو أو عبث!

ظلت الهجمة على الحزب ومنظماته متواصلة حتى نيسان سنة ١٩٨٦ حيث اختتمت بنهش المنظمة الحزبية في جامعة بيرزيت، تلك المنظمة التي احتلت مكانة اثيرة لدى الحزب. حتى ذلك الحين لصلاية بنائها وانتاجيتها وحسن تربيتها لحفنة من الكادرات الثورية واحتلالها مع منظماتها الديمقراطية الصديقة موقعا مؤثراً في العمل السياسي والنقابي الطلابي، وقد كان تأثير تلك المنظمة بارزاً خارج الجامعة ان كان على صعيد التحريض والدعاية باصدارها لاكثر من ثلاث سنوات جريدة "التقدم" كجريدة شهرية طلابية متخصصة توزع على المؤسسات التعليمية أو بتشكيلها لفروع وامتدادات جماهيرية وسياسية للحزب في مواقع عديدة في الوطن وليجري فيما بعد الاستفادة من تلك الامتدادات من قبل المنظمات الحزبية لمزيد من بناء الخلايا والتوسع الحزبي.

أما الحزب فقد شرع بضخ الدماء من جديد في شرايين العمل الحزبي. كانت سنة من الاشتباك اليومي مع الاحتلال وجهاز مخابراته قد صلبت عود العديد من الكادرات والأعضاء فكان هؤلاء التربة الخصبة لاعادة بناء ما تهدم. اعيد تشكيل اللجان التي اعتقل اعضاؤها وأفرزت كادرات جديدة لبناء المنظمات التي

صُنِّيت. لم يتضرر سياج الحلقات الصديقة ولا المنظمات الديمقراطية للعمال والطلاب فشرع الحزب في حملة توسع جديدة لاعادة بناء المنظمات الحزبية فينهل مادتها الأساسية من الأصدقاء في الحلقات والمنظمات الديمقراطية فيما قدمت المنظمات الديمقراطية فائدة أخرى للحزب، ففي المواقع التي صُنِّيت فيها المنظمات الحزبية تماماً أو بشكل يشل دورها السياسي والجماهيري، أخذت المنظمات الديمقراطية على عاتقها هذا الدور بحيث تحولت لاداة الحزب في نشاطه والناطق باسمه بين الجماهير.

كان التوسع يستند لتوجيه ينص على ان الرد على الاعتقال يكون بمزيد من التوسع الحزبي! كما ورد في العديد من الرسائل والتعميمات الصادرة والموجهة للجنان ومنظمات وأفراد، وقد استهل الحزب مرحلة ما بعد الهجمة بإصدار أربع رسائل ستلعب منذ ذلك الحين دور البوصلة في مجمل النشاط الحزبي، وتلك كانت الرسائل السياسية والتنظيمية والأمنية والجماهيرية. لقد عالجت الرسائل بالتحليل المسهب ظروف العمل في المجالات الأربعة المشار إليها ووحدت المهام الملموسة لكل مجال بحيث ستصب كل جهود منظمات الحزب نحوها.

من الطبيعي ان تفاوت تطور تجربة وبنية ونضج كل منظمة قد عكس نفسه على أدائها لمهامها في المرحلة الجديدة ناهيك عن مدى استجابتها الذي يعكس إلى حد ما تلك التجربة والبنية ومستوى النضج. كانت منظمة غزة لم تحسن الوقوف على قدميها بعد، فكل محاولة شجاعة وجريئة كانت أجهزة المخابرات تتجح بتصفيتها سريعاً، فيما منظمة رام الله فقد كانت في المقدمة كتجربة وبنية ونضج. انتهت الهجمة وسقطت معها صيحات محققي جهاز المخابرات داخل غرفة التحقيق بان عام ١٩٨٥ سيشهد تصفية الحزب، اما زئيف شيف- المعلق العسكري الإسرائيلي البارز- فقد اعترف بأوهام الاحتلال الذي كان هو ذاته يأخذ بها مع بداية الهجمة، فقد ذهب للقول [اعتقدنا ان ضربة ١٩٨٥ ستصقي الجبهة الشعبية لكننا الآن نكتشف ان نفوذها يزداد].

كانت تقديرات الحزب في أوج الهجمة ان الضرر الواقع قد أعاد تجربة الحزب لعامين للوراء، لكن ما ان انتهى عام ١٩٨٦ حتى اتضح ان البنية أعيد بناؤها بسرعة أكثر من التقدير الأول بل وتمتلك من عناصر القوة والديناميكية ما جعلها تدخل معارك سنة ٨٧ بفاعلية واضحة على مستوى الوطن. ففي موسم انتخابات المؤسسات المحلية لعام ١٩٨٧، حافظ الحزب على نفوذه كقوة مهمة وفي بعض المؤسسات حقق الحزب مكاسب هامة :- عاد ليؤكد كونه القوى الثانية في جامعة بيت لحم فيما انتزع لقب القوة الأولى في انتخابات شركة الكهرباء، أمّا في

انتخابات الهلال الأحمر الفلسطيني في الخليل فقد حصد الحزب ١٧٠٠ صوت انتخابي أي بما يعادل ٣٧% من عدد الأصوات التي تعد بالآلاف. اما المعركة الأبرز على صعيد جماهيري فقد كانت انتخابات مجلس الطلبة في جامعة بيرزيت والتي جرت مطلع ١٩٨٧ .

للمرة الأولى في تاريخ تواجد الحزب في الجامعة يضطر أمام تكتل موحد ضده، التقدم للانتخابات بكتلة منفردة امام تكتل موحد من ثلاث كتل وطنية، وكتلة إسلامية منفردة. كان القرار الحزبي بالعمل على إثبات هبة ونفوذ المنظمة وكتلتها وهي لم تلحق بعد أن ترمم نفسها بعد الضربة الموجهة لها منذ حوالي ثماني شهور. كان واضحاً ان لا إمكانية لفوز كتلة الحزب ولكن هناك إمكانية لإثبات نفوذه وهيبته لما لذلك من تأثير معنوي كبير على نفسية القاعدة الحزبية والصديقة بعد هجمة احتلالية طويلة ومريرة. دائماً كانت انتخابات الجامعة تملك من التأثيرات ما يجعلها تتجاوز حدود الجامعة. لقد جرى اعتبارها دائماً باروميتر لقياس مزاج الشارع رغم عدم دقة المقياس بالعموم، وكذا مدخل لتحديد التحالفات والتكتيكات في مؤسسات أخرى كما للصدى الإعلامي الذي تحوزه هذه الانتخابات نظراً لمرآة الجامعة في المجتمع الفلسطيني، لدورها الوطني البارز وللمكانة التي تمتلئها في شبكة واسعة من العلاقات مع مؤسسات دولية لذلك رمى الحزب بنقله منظمات وافراد وكنعان واحد منهم.

اعتبر المعركة معركة فترات الحزب في الجامعة جزء أساسي منه. أحس ان الرد الانجح على الهجمة على المنظمة ينبغي ان يكون برسالة صريحة للمخبرات عنوانها: لم تؤثر علينا هجمتكم! كتب باسم الحزب العديد من الرسائل والتعميمات للجان والأعضاء، للقاعدة الصديقة. قال لرفاقه في رسالة يمازحهم ويظهر مدى جدية المعركة: وعدتم الحزب بأن يتجاوز ما تحصدونه ٤٠٠ صوت انتخابي فلا اقل من ذلك صوت واحد وإلا فارحلوا للأردن ولا تعودوا للوطن!! كتب وكتب دون أن يمل. صاغ عشرات التوجيهات والإرشادات والنصائح، عصر كل تجربة احتكاكه بالعمل الطلابي لسنوات وسنوات ووضعها امامهم. ناقشهم في التكتيك، التعبئة، التحريض والمغزى السياسي- الحزبي وحتى في المسائل الفنية للمعركة الانتخابية، وفي شعاراتها وملصقاتها ومهرجاناتها ودعايتها، كان يدرك أن شعور "الأقلية" يخلق طاقة ونشاط وديناميكية هائلة لمن أحسن تعبئة تلك "الأقلية". قبل رفاقه التحدي وخاطبوا الحزب فزادوا على التحدي تحدياً: بل ٤٣٠ صوتاً وإلا سنقدم استقالتنا من الحزب. وكنعان يوم المعركة لا يستقر على حال. لم يستطع عمل شيء في وكره. يتمشى ويقعد، يسعى ليشغل وقته بأي شيء ولكن ذهنه هناك في الجامعة. طلب من رفاقه أن يرتبوا أمرهم بحيث تصله النتيجة ساعة

الأقائيم الثلاثة - وسام الرفيدي

صدورها وهو يعلم بأنها لا تصبر إلا بعد الحادي عشرة ليلا ! كان ينتظر والقلق يصرعه.

عند الساعة الثانية عشر ليلا جاءه الخبر: حصدت كتلة الحزب ٤٨٠ صوتا فيما خسرت ٢٠ أخرى لأسباب فنية وهذا شكل ما نسبته ٢٤% من مجموع الأصوات. كان نتيجة ساحقة هزل لها الحزب في الوطن. ما ان انتهت معركة الجامعة وانتخاباتها حتى وجدت المنظمات الحزبية نفسها في معركة من نمط آخر، معركة إسناد نضال الأسرى في سجون الضفة الغربية الذين أعلنوا الإضراب عن الطعام لتحسين شروط اعتقالهم في آذار سنة ١٩٨٧.

لنضال الأسرى وقع خاص. انه نضال يكلف دماء من أجل ابسط ما يتمتع به الإنسان العادي، الهواء، الماء، الغذاء، الدواء.... يسقط الشهيد من أجل نصف ساعة زيادة عن الفترة المخصصة لنزهة الساحة، تتلوى أمعاؤه من ألم الجوع أياما وأياما من أجل زيادة دقائق على فترة زيارة الأسير لأمه، لزوجته، لابنه.... تفتك أمراض الإضراب بالأسرى الهزل، ضعف العظام، تساقط الشعر والأسنان... من أجل ضمان الماء الساخن للاستحمام، من أجل ان يتمكن الأسير من تقبيل طفله واحتضانه في الزيارة نصف الشهرية، من أجل ادخال الزيت أو الصابون أو الدخان، من أجل ان يحتفظ بكراريسه الثقافية، من أجل ان يحصل على الكتب، من أجل ان لا يُعزل لمطالبته بحقوقه الانسانية. كل ما هو تافه، حقير، اعتيادي جدا بحيث لا يلحظه من هو خارج الاسر، يتحول في الاسر لأمنية وهدف ينبغي ان تستحصله بنضال يتطلب البطولة، التضحية، والشهداء. الأسر والتخفي يلتقيان هنا بأنهما يحولان ما هو اعتيادي لمطمح عزيز المنال، في الحالة الأولى باكرام السجن وقمعه، وما على الأسير إلا ان يسلك الطريق المجرب لانتزاع مطمحه. النضال. أمّا في الحالة الثانية فيأكراه ضرورات السرية "متطلباتها، قواعدها، إجراءاتها وتحولاتها". وما على المناضل إلا ان يسلك أيضا ذات الطريق المجرب "إخراص الذات واحتياجاتها ورغباتها".

ما ان أعلن الإضراب حتى انهمكت الحركة الوطنية مجتمعة ومنها الحزب بتفرعاته وامتداداته في الجامعات والمدن والأرياف والمخيمات بحملة تضامن واسناد للأسرى، وهي تدرك كحركة وطنية وكحزب أنها ومهما قدمت لن تفي للأسرى حقهم ولن تنهي التقصير التاريخي الذي طالهم. فعاليات نضالية ضد الاحتلال واعتصامات في مقار الصليب الأحمر، مظاهرات، مسيرات، اجتماعات عامة ومهرجانات، مناشدات لمنظمات حقوقية تعمل في مجال حقوق الإنسان... كل ذلك تواصل على مدى أيام الإضراب (٣٠ يوماً) حتى حقق بعضاً من مطالبه.

كانت المنظمات تتقوى في معارك الشارع عبر النشاط اليومي - النضالي والسياسي والجماهيري، تتوسع وتكسب أعضاء جدد فتتسنى خلايا جديدة لتتوسع تلك وتبني كادراتها فتغدو منظمة حزبية. وعلى جبهة أخرى كانت المنظمات الديمقراطية تنمو وتفتتح مواقع جديدة، تطور من بنائها وتعدّد مؤتمراتها حتى غدت شبكة هي بمثابة ذراع للحزب الذي رمى بثقله في معركة هامة استمرت تقريباً عام ١٩٨٧ فيما كانت بدأت منذ مطلع عام ١٩٨٦، نعني الحركة الشعبية ضد حصار حركة أمل المذهبية ضد الشعب والمقاتلين في لبنان.

الأرض المحتلة كانت تغلي سنة ١٩٨٧! ما ان تخرج من معركة حتى تدخل في أخرى. المعارك مع الاحتلال يومية والثورة تستعيد وحدتها بعدما هتك اتفاق "شباط/ ١٩٨٤ تلك الوحدة فينعقد المجلس الوطني التوحيدي لينتعش المزاج الجماهيري اكثر فتشتد المعارك اكثر فيما يستشعر هذا المزاج الإهمال العربي والدولي للموضوع الفلسطيني الذي تجسّد في مؤتمر القمة العربي في عمّان "مؤتمر الوفاق والاتفاق" وفي لقاء العملاقين السوفييتي - الأمريكي في سيدني باستراليا. لكل ذلك فقد كان التعميم السياسي الصادر في شهر تموز ١٩٨٧ عن فرع الحزب في الوطن يرى بان الوطن "بات يجلس على مرجل يغلي يمكن ان ينفجر في اية لحظة".

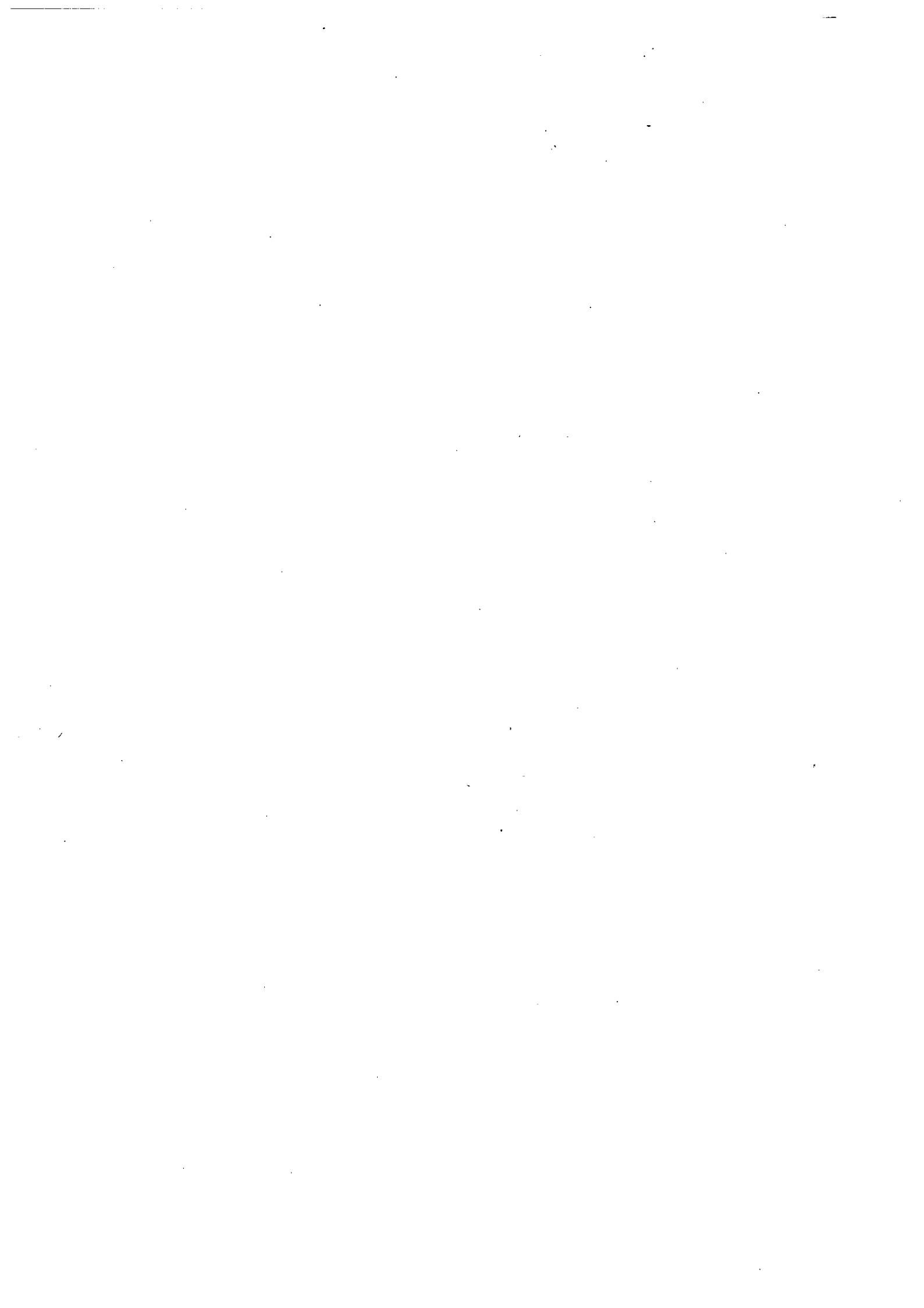
وكنعان وسط هذا الغليان وتلك المتغيرات تتوسع مهامه وتتشعب ويناضل وينتقل من هنا إلى هناك، يجتمع، يتصل، دون ان يعكّر صفو عامه الا ما صادفه ذلك اليوم من ايام تشرين الثاني سنة ١٩٨٧. في ليلة ماطرة كان ينتقل من بيت سري لآخر وبعد انتهائه من عقد اجتماع خرج لاجله. كان ينتقل بسيارة تضطر للسير بطيئة في الشارع الرئيسي رام الله - القدس عند حي "الشرقة" بسبب ازدحام السير والأمطار الغزيرة. عند تقاطع الشارع الرئيسي مع شارع فرعي يؤدي إلى بيت عائلة منى، رآها!! كانت جالسة بجانب "صاحب المركز" الذي يقود سيارته منتظراً دوره للعبور للشارع الرئيسي. اوقف زوجها سيارته ينتظر دوره لعبور الشارع. كنعان كان يمعن النظر بالمارة، بالراكبين، بمن يقف أمام محله يمعن ويمعن عله يرى من يعرفه فيفرح برويته. في تلك اللحظة رآها بجانب "صاحب المركز" في سيارته المتوقفة، كانت ترتدي معطفاً شتوياً، ثقيلًا وتمسح انفسها بورقة تنظيف ونظر للأمام. نظر إليها لثوان ونفسه منقطع فاغراً فاهه. غرس نظراته فيها كأنه يلتهمها، توقفت يدها التي تمسح انفسها عن العمل وتطلع إليها [هل ميزت مَنْ

تنظر اليه؟ ميزتني، عرفنتي؟] تساعل لاهتاً، فرحاً بينه وبين نفسه وهو لا يشيح بوجهه عنها ولو للحظة من ثانية!! كان ملتحياً ويرتدي نظارة طبية غير التي عرفته بها، فهل ميزته؟ لا يعرف. كانا يتطلعان لبعضهما البعض فيما "صاحب المركز" يتطلع جهة اليسار عله ينجح بالتسرب للشارع الرئيسي. نظر إليها وقلبه يكاد ينخلع، رغب ان يفتح باب السيارة، يقفز منها يتوجه للسيارة التي نقلها، يهشم راس "صاحب المركز" ويخطفها لبيته السري، لعالمه! تنهد اذ لا يستطيع تنفيذ رغبته الحمقاء تلك. سارت السيارة التي نقله فانقطع المشهد.

لأيام بعد تلك الليلة وشعور بالغضب يلزمه يتمشى بين جدار وجدار لا ليفكر بقضية تشغله بهدوء وروية كما اعتاد منذ سنين بل متألماً ومقهوراً يشتم كل ما يواجهه، الجدران، الأبواب، الكراسي، والكتب... شتم كل مفردات عالمه! أخرجها عن أترانه لأيام. أية صدفة تلك! لماذا تأمرت عليه كي لا يراها المرة الوحيدة منذ خمس سنين الا وزوجها بجانبها؟ كي لا يراها حبيبة بل زوجة آخر. لماذا لم تقدمها الصدفة تسير وحيدة امام بيته، ربما يكون خرق حينها كافة قواعد حياته... من يدري؟ ربما يكون وضع قانون "لا تستقبل احداً" على الزف واستقبلها لساعات، فهي بالنهاية ليست "احداً"، أنها منى! من يدري؟ اخر مرة رآها قالت له: انا لا أستطيع، لا أستطيع. والان عندما يراها معه كان يتساعل هل هذا ما استطاعته؟؟ وماذا استطاعت بالنهاية، زوجة فلان، ملحقة به بالتعبية الرسمية لعقد الزواج ولحدودية دورها في الحياة. لا مكانة خاصة بها بل أضحت مثل كل زوجة تعرف برجلاً لا بما هي عليه، حرم فلان الفلاني حسب التعبير المصري. تذكر جملتها التي كادت تخرجه عن طوره: يجب ان تقرر اما انا أو الحزب. هل كان يمكنه ان يرد عليها بغير رده، رداً حازماً: لك خيارك ولي خيارى. قطعاً لا. أجاب مستمراً بإعادة شريط الذاكرة لخمس سنين خلت. ولكن الا يمكن تأجيل الرد القطعي؟ ربما امنح نفسي امنحها فرصة أخرى للتجاوز؟ أليست قطيعتي تلك خبرة ما تعكس حدودية نضجي آنذاك؟ لو يدور الحوار اليوم، لو عدت للخلف بوعي اليوم هل سأعالج كما عالجت؟ هل كان يمكن افضل مما كان؟ هل منحت حبي لها فرصة ليستمر، ليحيا ام عاجلته بالضربة القاضية، برصاصة الرحمة، رحمة بي وبها؟.

أسئلة كثيرة كانت تطن في رأسه كخلية نحل وهو يتمشى بين جدار واخر وهو مستلق على السرير وهو يأكل... متذكراً وجهها، ملامحها، كل ما فيها في آخر لقاء، كلماتها قبل سنين وسنين. شتم مراراً ظروفه وتعقيدات نضاله وحاول جاهداً ان ينسى ذلك اللقاء ان كان يمكن ان ينساه!

بعد عام وجب الرحيل. توسع البناء في الحي الذي بات معروفاً باسم حي
"عين ام الشرايط" للدرجة التي اصبحت فيها الحي ملاصقاً لتخوم مخيم "الامعري"
فانتقلت له عدوى شبان المخيم الكادحين؟ كمائن للدوريات تنهال عليها بالحجارة،
والزجاجات الحارقة، شعارات جدارية، تجمعات هائفة، اطارات مشتعلة، فاضحى
الحي من انشط احياء المدينة فغدت الدوريات العسكرية لا تفارقه ليلا نهارا، لكل
ذلك قرر ان لا يمنح الصدقة فرصة الإيقاع به. ■



الفصل الثامن



الفصل الثامن

الحذاء الذي يتحرك أمام وجهه من منى ولقائهما الأخير. دار الحذاء يميناً. أصبحت عيناه الآن تلمحان خلسة حذاء القديم اليسرى [أين يتطلع؟ ماذا يفعل؟ ليس على الجدار سوى طبق قش صنعته فلاحاً ماهرة من بقايا موسم حصاد القمح، فهل يتامله؟ ليس من اثاث في هذا الركن ليمزقه، يحطمه، فماذا يريد الحذاء من وقفته هذه عند رأسي؟]

انتزعه

اعلن صوت صدر من فوق راسه عن هدف الحذاء الابيض؟ انه يعبث بشرائطه الموسيقية والغنائية التي رافقته طوال سنينه. لم يكن ليحيا دون موسيقى وغناء اذ لا معنى للحياة بدونهما، حتى الانسان البدائي ما ان دب على قائمين حتى اخذ يقرع الطبول ويحاكي الطبيعة غناء. شرائط لموسيقى هادئة واخرى صاخبة، شرائط للشيخ امام، لمارسيل خليفة، لفيروز، ماجدة الرومي، صباح فخري، وعبد الحليم حافظ، سمعها وغنى معها وهو يتمشى بين جدار وباب، وهو يستلقي على الاريقة في الشرفة وهو يتمشى على سطح المنزل ليلاً، وهو يطهو، يقرأ، يكتب، وهو يجلس على الاريقة، يسمع ويسمع فيسترخي فيتردد تعب الجسد والاعصاب. ما انقطعت الموسيقى والغناء في وكره وما تصور نفسه يحيا بدونها. الحذاء يفتح الشرائط ويخلقها: هل يقرأ العربية؟ مستبعد. اذن ماذا يريد؟ هل يفتش هناك؟ هل يتوقع مثلاً ان يجد مخزناً للسلاح داخل غلاف شريط؟ ام تراه سيجد رزمة من الصحف والمطبوعات السرية؟ ام لعل ثالثاً يختبئ في شريط بين عجلته والشريط الملتف حولها؟؟]

فتح الحذاء الموضع المخصص للشريط في المسجلة. سمع كنعان صوت مفتاح التشغيل:

بين ريتا وعيوني بندقية، والذي يعرف ريتا...
ينحني ويصلي لاله في العيون العسلية

آه آه يا مارسيل - آه آه يا درويش يا هوميروس فلسطين

وانا قبلت ريتا عندما كانت صغيرة
وانا اذكر كيف التصقت بي وغطت ساعدي احلى ظفيرة
وانا اذكر ريتا مثلما يذكر عصفور غديره!

للمرة الأولى- والاخيرة حتما- شكر كنعان ضابط المخابرات، ذلك الذي لا يعرفه بوجهه بل بحدائه!! شكره اذ حملته للعالم الشعري الساحر. اوقف الحذاء المسجلة، فشتمه. عبث الحذاء من جديد بالمسجلة. كنعان ينتظر انطلاق الصوت، ضغط الحذاء على مفتاح التشغيل:

كل قلوب الناس جنسيتي فلتسقطوا عني جواز السفر.

تهلل كنعان فرحاً ونقلته تلك الاغنية الى يوم اخر وزمان اخر وظرف اخر، متناسياً الالم الناتج عن ضغط الحذاء الذي يتمترس عند وجهه والدماء تنزف من حاجبه الايسر فتقع بقعة البلاط.

كانت الساعة العاشرة والنصف عندما انتهى رياضته الصباحية وتناول افطاره؟ باذنجاناً مقلياً بالزيت البلدي ومغطى بطبقة من السماق ذي اللون النييدي. جلس في الغرفة التي بحذاء الباب الحديدي، ماداً ساقيه على الطاولة الصغيرة، تناول رواية "الدون الهادي" لشولوخوف باجزائها الثلاثة المتوفرة لديه وغرق في عالم ابطالها، (غريغوري) ذلك المتمرّد، المتنقل بين البلشفية والمنشفية ذي السجايا النبيلة، ولكن المتمسك بملكيتة الخاصة الصغيرة، الفلاحية. اكسينيا المتزوجة من جار غريغوري والمتمسكة بحبها له لا لزوجها والمنقادة وراء جموح غلمتها. بيوتر وداريا المعاديان للبلشفية حتى النخاع دفاعاً عن قطعة الارض، ملكيتهما الخاصة. والد غريغوري وبيوتر، الفلاح الرجعي الذي يسري في عروقه الدم التركي والذي قاده فحولته الى ان يراود كنته داريا على نفسها. دينا التي يعمر قلبها بحب جارف للشباب الشيوعي العامل والفقير فيكتور!

غرق في الرواية ومارسيل يغني بقربه اشعار محمود درويش، بصوته العميق الاخاذ. كان شرع يقرأ الرواية للمرة الثانية مستمتعاً ومتألماً، الممه نابع من انه لم يعثر بعد على الجزء الرابع والاخير من الرواية، رغم انه ينتظره منذ سنين وسال عنه دائماً رفاقه. كان يشغله سؤال: اين وصل غريغوري في تخطئه بين الثورة واعدائها؟ كان كنعان اذ يجوب في سهوب الدون الواسعة مع شولوخوف يقاوم كانون، أمطاره وبرده، وريحه العاتية. كاتون هو هو بطقسه المعهود الذي كانت تكتفه امه بقولها [سقعة كوانين بنقص الحرادين غطي حالك مليح، دارك واسعة وباردة]. رغم جهوده الحثيثة ما نجح يوماً بالتصالح مع كانون، مع الشتاء عموماً في حياته السرية. كان يمقته اذ يحل. انهى ذلك المقطع حين سعد غريغوري واكسينيا بلحظات اللذة السرية فوق تبن العريشة متحدين سيف الفوزاق الذي لا يتلم.

وضع الكتاب جانباً متاملاً وصوت حبيبات المطر المنهمر ينقر زجاج النافذة وتأخذه رغماً عنه لذكريات كانون.

[أه لكانون وما له من تأثيرات في حياتي. فيه سحبت القابلة الفرنسية راسي من رحم امي لتعلن ميلاد حياة جديدة - هل اصف هذا باعتباره حدثاً جيداً!!!؟ أي سؤال سخيف وغير ذي معنى هذا! في كانون ولدت مرة ثانية حين عرفت طريقى للعمل السياسي الثوري - السري فبدأ مجرى حياتي يغير اتجاهه! فيه تاسس الحزب الذي وهبته شبابي! حياتي في كانون اعيد انجابها للمرة الثالثة حين دخلت الحياة السرية - حياة التخفي! فتغير مجرى حياتي مجدداً! فيه أيضاً سنة ١٩٨٥ وضعت مجدداً في امتحان القسوة والتحدي في شهور الهجمة الشاملة- شهور الإقامة في فيلا اللعينة سكنية فوضعت ديني الثالثي - الأنايمي الثلاثة! هل أنا ابن امي وابي، ام ابن كانون؟ أكون ابن المطر والريح والغيوم والثلوج فأكون "هندياً احمر" اسمى باسمائهم؟ كان "اللوح المحفوظ" سجل اسمي وحياتي في راس صفحاته تحت عنوان "كنعان صبحي - تغييرات هامة في كوانين!" فهل سجلت وفاتي أيضاً في اللوح المحفوظ في كانون أيضاً؟ كان كانون رحماً وضعه القدر في طريق حياتي، في ولادتي الأولى قدمني كانون نطفه، في الثانية علقه وفي الثالثة مضغه، وستكفل كوانين المقبلة بأن تكسو عظامي لحماً. سيظل كانون يلدني. إلى متى يستمر في تشكيلني؟ متى يكسو عظامي لحماً؟ هل الحزب وكانون على اتفاق الأول يوجه والثاني يتولى التنفيذ؟]

رغم ذلك كان كنعان الدم واللحم المهندس بين الجدران يمقت كانون وفصل الشتاء وله كرجل حياة سرية ما يبرر مقته هذا. ما أن يصحو من النوم عند التاسعة أو التاسعة والنصف مغالباً رغبة جامحة بان يظل متدثراً يتلذذ بالدفع، يتناول افطاره بعد أن يكون مارس بعض التمارين الرياضية على دراجته الثابتة. بعد الافطار يعمل لساعتين أو ثلاثة، يتناول غذاءه ثم يمارس عاداته المتأصلة، النوم لساعة بعد الغذاء. ما أن يصحو مما يسميه "تسيله" بعد الظهر حتى يعود للعمل فيكون النهار المزيف قد شرع بالانسحاب بعد أن يكون ليل كانون المبكر قد ركله بعجزته. الشمس التي ما أن تظهر على استحياء في ساعة ما في يوم ما سرعان ما تحجبها الغيوم من جديد فتختبئ كلس كأنها عنصر غريب شاذ على عائلة الشتاء. نوافذ مغلقة ومدفنه، كاز، سجانر استوطنتها الرطوبة، ملابس ثقيلة مقيدة للحركة، أغطية صوفية ثقيلة، بيت واسع قليل الاثاث تعربد البرودة في جنباته، عذاب اعداد الطعام وغسل الاواني والملابس، عدم رؤية مارة يمشون، أمحاء اللون الأخضر من دائرة نظره، كل ذلك كان يشعره انه سجيناً مرتين مرة في حياته السرية ومرة في شتائها. كان يتلذذ لعادتين مستخبتين على قلبه شتاء؟ ان يندس مبكراً تحت

الأقنيم الثلاثة - وسام الرفيدي ١٣٥

أعطيته الصوفية ويقرأ لساعات في رواية ممتعة فينسى عندها انه يحيا في الشتاء. اما العادة الثانية فهي تناول كاس من النبيذ اللطروني مع طعام الغداء. الشتاء عنده ارتبط بالنبيذ، يتلازم الاثنان حتى يستحيل تصور أحدهما دون الآخر، كما ثديا المرأة يسبقانها ليعلنا قدمها وظهورها. ما ان يحل الشتاء حتى يعلن له [آن اوان النبيذ اللطروني] وما ان يتناول كاساً حتى يتذكر امه. يعود من الجامعة بين الخامسة والسادسة مساءً ليحدها وقد وضعت طنجرة الطعام على مدفأة الكاز ليظل الطعام ساخناً كما يحبه، يتغديا معاً ويتناول النبيذ في كاس من الخزف كما في القرون الوسطى. كان تحدث دون قصد عن امتعاضه من ان يتغدى وحيداً فغيرت امه عاداتها المتأصلة لعشرات السنين، توقفت عن الغداء عند الظهر واخذت تنتظر قدومه من الجامعة اول الليل. ما هي الام؟ انسان يصعب وصفه أو الحديث عنه مهما تسلحنا بكنوز اللغة والصياغات الادبية، انسان يحب دوماً دون مقابل، مجاناً، ما انقطع عن نبيذها شتاءً فحصته منه محفوظة كلما زارته كانت تزوده به.

يتأمل كانون وهو جالس والكتاب مغلق في يده، يتذكر امه فيشتاق للثم تجاعيد خدها والعيث بشعرها، باستثناء هاتين العادتين ما احب الشتاء يوماً. [لماذا لم تنظم الطبيعة قوانينها ونظام عملها بحيث تكون السنة كلها مثل نيسان وايار، هل كان لزاماً عليها أن تحول حياتي إلى سجن في سجن. كان يحتج في لحظات نغمته على الشتاء ويبتدع "حسابات فلكية" خاصة به، يعزي بها نفسه. حساباته غريبة غرابة حياته.

[تشرين الأول رائحة الصيف فيه وهو غير منزعج، تشرين الثاني لا يحتسب من فصل الشتاء فلا امطاره كثيرة ولا رياح عاتية ويظل يحمل من رائحة الصيف اعقابها، حتى ان العديد من الفلاحين يقطفون زيتونهم فيه اما كانون الأول فهو شهر العمل والفرح بمناسبة انطلاق الحزب، تمضي ايامه دون ان يشعر به، بقى كانون الثاني بضعة ايام تمضي منه حتى تحل نهايته اذ هو بالنهاية شهر لا يكاد يبدأ حتى ينتهي. اما شباط فصحيح انه "خباط" ولكن رائحة الصيف فيه، وما ان ينتهي حتى يحل آذار الربيع بشمسسه وتفتح ورده وحنونه الاحمر، وبالمحصلة ينتهي الشتاء سريعاً!!]

كانت تلك حساباته الفلكية المضحكة يتقوى بها ضد الشتاء يدافع بها ضد نفسه الكئيبة شتاءً. [يعني لا شتاء في بلادنا حسب حساباتك الفلكية!] يعلق على حساباته تلك من يسمعاها. [ان لم احسبها هكذا قتلتني ابن العاهرة المسمى شتاءاً، الذي ما ان يقترب حتى يبدأ الاكتئاب يغزو مزاجي]. تبدأ ايام الشتاء بالزحف فتطرد حساباته، تحيها جانباً، تركها "المربعنيات" ومصائبها وشباط فيه رائحة صيف ولكنه بالاساس خباط يخاطب ابن عمه آذار: آذار يا بن عمي ثلاثة منك الأقاليم الثلاثة - وسام الرفيدي ١٣٦

واربعة مني، تتخلي العجوز وغنماتها في الواد تغني. كناية عن كثرة الامطار حتى في ايام اذار الاولى، اما هذا الاخير "بشمسه وتفتح ورده وحنونه الاحمر" فهو "اذار أبو سبع ثلجات كبار".

لكن كانوا ذلك العام قرر ان يبعث الفرع لا الكأبة في نفسه، واعدته بالفرح منذ ايامه الاولى. كانوا الأول هذا العام كان بدأ في سجل شعب في اللوح المحفوظ، في مكان ما لدى من يرقب البشر منذ الازل. اشاح بنظره عن زجاج النافذة الذي يتلقى حبيبات المطر، وترك غريغوري واكسينيا يفكران بحل لمشكلة حب بين قوزاق تعودوا مسح شفاههم بظبة السيف المغموسة بالدم، ادار مفتاح المذياع ليرسم الانباء من اذاعة مونت كارلو عند الساعة الثانية عشرة ظهراً... [مظاهرة ومسيرات حاشدة تضم الالاف من الفلسطينيين في قطاع غزة وتحديد في مخيم جباليا مندة بالاحتلال، والقوات الاسرائيلية ترد على المتظاهرين بالرصاص وسقوط عدد من الضحايا لم يعرف عددهم بعد] هكذا اعلن المذيع بنبرته المعهودة التي يميزها من يتابع اذاعة مونت كارلو. [بالالاف، ماذا يجري؟ صحيح الوضع يغلي منذ بداية العام ولكن تظاهرات بالالاف وفي مخيم واحد فذلك شيء نوعي، تطور جدي]! علق على الخبر دون ان يفهم حقيقة ما يجري.

كانت الانتفاضة الشعبية قد اندلعت جبارة. المرجل الذي لمحسه الحزب في تموز يغلي انفجر. كان ولد من جديد حدث بارز ليس في حياته فحسب بل في حياة شعب وهو يعيش تلك الولادة. بعد اسبوعين على اندلاعها تقرر الانتقال إلى وكر اخر. صعد للسيارة المعدة لنقله بعد الغروب بقليل، اغلق باب السيارة، تناول رفيقه السائق مفتاح التشغيل في يده وقال:

- قل ربك يسترهما فالشوارع الفرعية مغلقة تماماً لا تستطيع السيارة عبورها والجيش لا يهتم كثيراً بفتحها. سنضطر لعبور الشوارع الرئيسية، فهي الوحيدة السالكة تقريباً، سترى الآن ما يجري في البلد.

ورأى ما يجري وهاله ما رأى!! المدينة خاوية كأنها مدينة اشباح. سيارات قليلة تمرق في الشوارع بسرعة وباضطراب، تخيلها كلص يهرب مثلاً حواليه خشية ان يقبض عليه. الحجارة الكبيرة والصغيرة فرشت ارض الشوارع، سوى مسارب في وسطها، فتحها الجيش ليسهل على آلياته التحرك وملاحقة المتظاهرين، ولكنها مسارب ليست نظيفة تماماً فكان على رفيقه ان يفقد السيارة بمهارة البهلوان ليتمكن من تجاوز ذلك الحجر والالتفاف حول ذلك، مرة يصعد فوق حجر صغير واخرى يدوس عجل السيارة طرف حجر اخر. فينطلق هذا كالفدقة، كان رفيقه يشارك في مباراة غريبة لتخطي العوائق امام سائق اخر - متبار معه. ارضية

الشوارع اينما توجهت ملطخة بالسخام وبقايا اطازات السيارات المشتعلة والتي كان بعضها في رمقة الاخير، لم تات عليه النيران، جدران شرعت ايدي الشبان تخط عليها الشعارات السياسية والتحريرية. كان كل شيء رآه يشهد بتمرد احياء المدينة التي عاش شبابه فيها؟ دوار المنازه، سرية رام الله، الحارة القديمة، شارع ركب، محل أبو اسكندر للشاورما، دوار الساعة، سينما الجميل، مخيم قدورة، حي الشرفة، طريق رام الله - القدس. كلها كانت تنطق بمظهر شوارعها وحيائها وجدرانها برفضها للاحتلال.

كان صامتاً والسيارة تنتقل من حي لآخر محاولة ايجاد مسربها بين الحجارة. لم ينطق طوال الطريق بكلمة، صيحة تعجب أو تعليق كما تعود عندما كان يطلب من رفيق له كل بضعة اسابيع ان يطوف به بالمدينة في جولة في السيارة، جولة تسعده بقدر ما تثير لديه ذكرى الايام الخوالي، يغير ملامحه وينطلق لشارع بيت عائلته ليلمح والدته جالسة على الشرفة أو تعنتي بورودها قبل مغيب الشمس. إلى مخيم قدورة يقف على اطلال الحب القديم، إلى مركز المدينة ليدور كما كان يفعل مع اترابه او اسط السبعينيات من الشارع الخلفي لبوظة ركب ثم يساراً لمحلات كرم الصوصو ثم يساراً ايضاً لشارع بوظة ركب فتكتمل الدائرة. كل ما يمكن ان يقال في عهد الشباب كان يقال في التمشي حول الدائرة تلك؟ يشتركون الكعك بالسهم من الخليي عند دوار الساعة ويبدأون المسير، هذا يعقد لقاءً تنظيمياً سريعاً - اخر يتمشى مع صديقه، اخرون يتناقشون، يتصايحون، يتضحكون ... كانت المدينة تعج عادة بعد السادسة مساءً نتيجة شغب الطوافين في الدائرة المشهورة في رام الله.

ما خرج في حياته السرية في جولة طواف وعرف الصمت طريقاً للسانه! كان كطفل يرى البحر اول مرة فيأخذ بالتفافز والصياح مشيراً باصبعه لكل ما يكتشفه:-

- هنا في هذا الشارع كانت لنا لقاءات سرية قبل سنين!
- هذا الحلاق (الحن) حطمت زجاج محله سنة ١٩٧٦ عندما اخطأ حجري الدورية، رفع شكواه لوادي الذي صاح بي دون نتيجة!
- انظر، انظر، انه فلان. كان في الحزب، سقط قبل ان نبدأ! مُسِح الشعر عن رأسه تماماً. ويضحك بصخب.
- عرّج على شارع المستشفى لاقف على الاطلال. [يطلب وابتسامة اسف تتطبع على شفثيه!
- ها هي امي. انظر أنها تعمل في الحديقة. اين الصغيرة لماذا لا تظهر فجأة!

- الله الله هي رام الله! يقول اذ يرى شاب وفتاه يتمشيان في شارع المكتبة المشجر الذي يصلح لكل علاقة سرية.
- يا الهي كيف أصبحت بعد الزواج، هل تذكرها؟ كانت في الجامعة محط مطاردة الشبان. هل هكذا يفعل الزواج بهن؟ أنها جرافة ناطقة!
ولا ينسى اذ ينسى جولاته تلك مداعبة رفيق له مرة وهو يطوف به:
- انظر هناك هذا الصنف البشري يسمى "نساء"! هل تذكره ام نسيته يا مسكين؟
صتفت وهو صنف ينتشر في الصيف!
يتطلع فاذا فتاة هيفاء تسير بثقة من تملكها قناعة ان لا غيرها على وجه البسيطة!
يضحك ويضحك حتى تؤلمه خاصرتيه.
- الشكر للحزب يا رفيق، التفاضل يقدم ما يكفي من هذه العينة حتى لا تتدنر في
الذاكرة!

لكنه اليوم ما تكلم وما صاح. فقط كان ينظر صامتاً للحجارة، للجدران، لبقايا الاطارات. فقط علق بينه وبين نفسه عندما التفت السيارة حول دوار الساعة. هذا الطبيعي في مدينة تحت الاحتلال، غير ذلك مزيف لا يليق بنا كشعب.

وصل بيته المطل على الشارع الرئيسي والقريب من مخيم الامعري في حي جديد عموماً اسمه "سطح مرحبا"
- هنا البيت ليس مئة بالمئة ولكننا سريعاً سنجهز لك اخر. قال رفيقه يصف البيت وقد اوقف المحرك.

بدأت الانتفاضة تترك تأثيراتها على حياته اليومية ونضاله بفعل المهام والقرارات والاليات الجديدة التي اقتضتها، واستجاب الحزب لها. مُسّ نظام حياته بالكامل كإنسان ومناضل كما كل الشعب. كان الحزب اصدر اول تعميم توجيهي له في اواسط كانون الأول سنة ١٩٨٨ واعتبر فيه ان المهمة السريعة لمنظمات الحزب هي تطوير مشاركة المدينة وزج الريف في الانتفاضة، اذ حتى ذلك التاريخ كانت المخيمات تبدو وكأنها المعقل الانتفاضي الوحيد فيما مساهمة المدينة غير مؤثرة والريف رابض كالاسد يحوي كل الطاقة الجبارة، العمال.

اما المهمة السياسية الاساسية فقد حددها الحزب بوضع برنامج مطّلي للانتفاضة كسياج يحميها وبوصلة لنشاطها ومدخل لتعبئة كافة الطبقات وفئات الشعب في فعاليتها. وقد حوى البرنامج فيما حوى [انتخابات للبلديات، وقف مصادر الاراضي، الغاء ضريبة القيمة المضافة، ارجاع الاموال المقتطعة من اجور العمال داخل اسرائيل، وقف التدخل في التعليم كسياسة ومنهاج وتوظيف، وقف اغلاق مؤسسات التعليم، الغاء القيود المفروضة على الاستيراد والتصدير،

اطلاق سراح المعتقلين ... [وغيرها العديد من المطالب، جرى طرحها كمطالب للانتفاضة ... اما الفكر السياسي فلم يكن قد استشراف افاق الانتفاضة وإمكانياتها ولم يطرح امامها مطالب سياسية عالية السقف من نوع الحماية الدولية، المؤتمر الدولي، تطبيق كافة قرارات الامم المتحدة، المتعلقة بقضية فلسطين وصولاً لطرح مطلب وشعار الدولة الفلسطينية المستقلة باعتبارها الشعار الناظم لنضال الشعب علماً ان اول بيان موحد بتوقيع القوى الوطنية وردت فيه عبارة [الحرية- والاستقلال] كعبارة مكثفة للهدف الاستقلالي وهذه العبارة سعى الحزب لتضمينها البيان مستفيداً من تجربة الثورة الجزائرية التي رفقت ذات الشعار في وجه ما تقدم به المستعمرون الفرنسيون - الحكم الذاتي.

اما المهمة التنظيمية التي رسمها الحزب فكانت الحفاظ على سريران وجريان الآلية الحزبية باتصالاتها وتعويض الخسارة في النقطعات سريعاً مع رمي النقل الحزبي في الشارع دون اعتبار المعركة اخر المعارك، والاهم التوسع السريع ببناء الاشكال التنظيمية التي تكفل تعبئة الجماهير المقبلة على الانتظام السياسي بشكل مندفع اشبه بالسنوات الأولى لانطلاقة المقاومة المسلحة في غزة والاردن بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ واخيراً جرى التاكيد على ان يصار لتقييم الكادر بمدى استجابته السريعة للمهام التي تطرحها الانتفاضة.

كل مفردات مهامه وحياته اليومية مسها التغيير بفعل الانتفاضة مقاطعة البضائع الاسرائيلية، تشكيل لجان المقاومة الشعبية ولجان الاحياء واللجان الشعبية، بناء منظمات وخلايا جديدة، تنظيم الاقتحام التنظيمي والجماهيري لمواقع جديدة، برنامج فعاليات القيادة الوطنية الموحدة الذي حددت التوجيهات اعتباره موجهاً فعاليات المنظمات، تنظيم المسيرات والتظاهرات وكافة أنشطة المقاومة كلها تحولت ومنذ الاسبوع الثالث لمهام واليات وقرارات جديدة تتحول إلى واقع سياسي - تنظيمي - جماهيري وكفاحي جديد يطبع عمل المنظمات والاعضاء وكنعان منهم.

ما تهلل ولا فرح كما تهلل في شهور الانتفاضة الاولى، لقد كان وجهاً لوجه امام حقيقة ان جهد سنوات وسنوات من العمل التنظيمي والجماهيري والسياسي والنضالي المنمنم بين الشعب، سنوات وسنوات من التعبئة والتنظيم وبناء المنظمات باشكالها كل ذلك افرز قدره سياسة على قيادة الشارع. ما يزرع يحصد ولو بعد سنين اما [الحجر الذي رفضه البناعون فقد تحول ليصبح هو راس الزاوية] حسب التعبير البليغ للسيد المسيح، فالاختفاء والمطاردة كانت فعل جنون غير مفهوم عند انصاف الثوريين نهاية السبعينيات واول الثمانينيات تحولت لتصبح فعل جنون

الأفانيم الثلاثة - وسام الرفيدي ١٤٠

شعب بأكمله. شعب يفر من الأحياء والأرياف للجبال والأزقة حالما تدهم البيوت رافضاً تسليم نفسه!! اضحى خيار التمرد خياراً شعبياً لا خياراً لهذا الطليعي أو ذلك.

كان كنعان يعيش أحداث الانتفاضة في صفوفها الخلفية من حيث جسده القابع بين جدران وكره، لكن مهامه ونشاطه والقرارات التي ساهم بها وضعت في مواقع متقدمة في فعلها. أصبح يدرك في الانتفاضة أكثر من أي وقت مضى جدوى دوره وتأثيره المباشر بحيث تتحول القرارات والتوجيهات إلى فعل في الشارع يضاف لفعل الشعب ضد الاحتلال. في أحيان كثيرة كانت الانتفاضة تدخل وكرهه أذ لقربه من مخيم الأمعري لم يكن يسمع صوت المتظاهرين فقط ولا رصاص المحتلين يطاردهم لقتلهم بل ويشتم رائحة الغاز المسيل للدموع يغزو رئتيه ويحرق عينيه فيدمعهما. كان يقف عند الشباك يسمع الهتافات ويرى دخان الاطارات المشتعلة الأسود واللون الأبيض للغاز وما هي الا لحظات حتى يشعر بالحرقة في حلقه وتدمع عينيه فيفرح: الرائحة أفضل من العدم. بالنهاية هي مشاركة في الانتفاضة.

في الموعد المحدد ظهرت. تطلعت عبر الشارع بحذقة كانت اتقنتها كروتين بفعل سنوات الحياة السرية. تأكدت ان لا احد يعرفها فولجت مدخل البيت وما كادت تشرع بقرع الباب حتى كان فتحه لها. كل مرة تأتي اليه كان يتلذذ وهو يراقبها تمارس (العمل السري) تدقق قبل ان تدخل، تلبس نظارات شمسية، تلبس رأسها بمنديل يغطي معظم اجزاء وجهها، استقبلها وهو يضحك:-
- بعد تجربتك لسنين مع بيوت السرية، تصلحين عضو سري في الحزب!
- الله يلعنك ويلعن حزبك! اين كان هذا مخبأ لي آخر عمري!

وضحكت وعانقته بحرارة وشبعت منه ثقيلاً. تدمراتها في اللقاءات الأولى—وهي تدمرات خجولة على اية حال— ما عادت تعبر عنها الا عندما يشرع كعادته يمازحها ويداعبها.
- ليست كل الامهات مثلك. انت ام مناضل في الجبهة الشعبية!
- الله يقطع الجبهة ويومها، حبش ما اسسها الا ليتعب بالي.

كان يضحك وتضحك هي لضحكه ومزاحه، تخيل ان قرار تأسيس الحزب حسب وجهة نظرها قد اقترن بسبب رئيسي "نكاية بام كنعان ولارهاق حياتها معه فقد قررت حركة القوميين العرب تأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين!!".

بدأت تتفنن تعاملها مع حياته، مع بيوته عندما تأتي مع من يتكفل باحضانها. ما تحضره من صررها، ما يحتاجه وما لا يحتاجه... وضعت كيس صررها وبادرت تلثث:-

- كيف تعيش في الانتفاضة، لم يبق بيت الا ودخلوه.
- بيتي لن يدخلوه فدعائك سنة ١٩٨٢ [رح يا بني الله يرضى عليك] يعمي عيونهم عن بيتي. هل ستستمرين بترديده كما اتفقنا؟
- دائماً ادعي لك، ليل مع نهار. قالت ذلك وكادت دمعة تفلت من قيدها.
- بيتك هذا غير مناسب، الامعري بجانبك يلزمك بيت اخر. انت لا ترى ما يجري الشارع؟
- اعرف تفاصيل التفاصيل، الرفاق يروون لي. قاطعها.
- الحكى ليس مثل الشوف. الشباب شبيوا الجيش. المحلات عند الحادية عشرة تماماً تغلق، الجيش يفتحها والشباب يغلقونها ثم يعودوا لفتحها، تبقى مفتوحة ولا احد يقترب منها. المصيبة في غزة، وما يجري في غزة لا يجري في أي مكان. الضفة جيدة ولكن غزة حوصمت برهة- غزة مصيبة.
- هو الفقر والمعاناة يخلق التمرد وهذا ينتج شعباً شديد البأس انظري من يناضل ويضحى في الشارع، ليس ابناء الذوات المدللين بل العمال في المخيمات والقرى، في رام الله انشط الاحياء، البلدة القديمة، الامعري، قدورة، في البيره الحارة الشرقية .. هؤلاء العمال هم جماعتنا.

علق على "تقريرها الاخباري" فهزت راسها موافقة. كانت الانتفاضة علمتها بعض الاشياء، شأن الشعب باسره، فالناس تتعلم بتجربتها الخاصة اكثر بكثير مما تتعلمه من الدعاية و التحريض. ذلك اليوم ما طغى على حديثها كعادتها، اخبار العائلة، الجيران، الذين ما اهتم كثيراً باخبارهم، الذين من الطبيعي ان تهتم هي بهم [قلانه خطبت فلان، الجارة العلانية سافرت، القريب الفلاني اختلف مع العلاني]. ذلك اليوم كان حديثها سياسياً وهذا اراحه إلى حد ما من الاسئلة حول شؤون حياته، من استجواباتها، ملاحظاتها التوجيهية والزجرية، لكن حظه العاثر ابي الا ان يبعث التكدر في مزاجها ليتكدر هو الاخر ليخرج من دنيا السياسة والانتفاضة فيعود لعالمها، عالم اهتماماتها الامومية التفصيلية. كان اتفق معها في الزيارة السابقة ان تصنع له "كبه". طلبت منه ان يحضر لها موادها واهمها البرغل وينقعه بالليمون من الليل.

- يا الله هات البرغل. هل نقعته بالليمون كما قلت لك؟ صمت خجلاً ثم قال أسفاً:
 - نسيت ان انقعه. امس كنت مشغولاً وسهرت ولم اصح الا منذ نصف ساعة.
- النقع الآن سيؤخرك، لنؤجل المشروع للزيارة القادمة.

- لن نؤجل، هناك وقت. هات البرغل بسرعة. مثلما تتذكر الحزب وشغلك تذكر حالك واكلك.
- وقررت ما هو متوقع! فحتى لو اضطرت ان تؤخر نفسها لساعات فيثار حول تاخرها أسئلة في البيت، فلن تترك وكره حتى تصنع له ما طلب. تتاول كيساً من الخزانة وناولها لها؟
- خذي! ماذا الان؟ اللحم والصنوبر جاهز. هل افرم البصل؟
- ضع اللحم على النار مع البصل المفروم وقلبها بالزيت. لا تكثر من الزيت فسنقلبه به هكذا اخف على معدتك.
- قالت وهي تفتح كيس البرغل. فجأة وضعته بحدة على الطاولة ووجهها يتفجر بلامح الغضب؟
- هذا سميد وليس برغل. سميد الكبة تحتاج لبرغل نسييت؟ شغلنا طوال عمرنا في القمح، نسييت؟
- ماذا ظل له ليقول، الغباء ركبته. لقد صنع برغل الكبة على ماكينة الجرش مئات المرات في حياته. أي ورطة وضع نفسه بها؟ ضحك من الموقف ولم يجد سوى المزاح للتغطية على خيبته امامها
- وهل انا طباخ في "شارع الحمراء" حتى اعرف ان "الكبة اللبنانية" تحتاج لبرغل وليس سميد؟ كله قمع والسلام.
- برغل، برغل، يا بني برغل. وضربت كفاً بكف!
- لن اموت قريباً، على الاقل حتى زيارتك القادمة بعد اسبوعين، ساحضر برغل. تطلعت غاضبة لذكره الموت. ما ضيعت زيارتها سدى. اخذت السميد وصنعت منه "حلاوه بالسميد"، لم ياكلها منذ عشرين عاماً، فقد كان نسيها تماماً ونسي كيف كان وهو طفل يظل يلح على امه كلما رأى البائع ينادي عليها وهو يحمل طبقها الكبير فوق راسه، يلح طالباً قرش ليشترى قطعاً منها. اكل بلذة وعلمته كيف يصنعها فاضاف لخبرته خبرة جديدة.
- سهلة ولا تستغرق اكثر من ربع ساعة، دسمة وتملى المعدة.
- تغديا معاً مما كان يحتفظ في ثلاجته سمكاً مجمداً محشياً باللوز والثوم ... تحدثنا عن الانتفاضة وسره حين قالت:
- والله انتم نشيطون، مسيراتكم كثيرة وشعاراتكم على كل الجدران. عبت شعرها بيديه مداعباً كما ايام زمان حين لم يكن يطيب لها الا ان يعيثر شعرها، ذكرته عند الباب وهو يودعها معانقاً:
- برغل وليس سميد. سجل على ورقة ولا تنسى. مثلما تذكر قضايا الحزب وتسجلها على قصاصات ورقك سجل معها برغل كي يحضروه لك.
- طيب ساسجل مع قضايا الحزب على ورقة برغل. اعتقدته يسايرها ولن يفعل.
- تضحك علي ها؟ قالت معاتبية.

- بشر في الحزبي ساسجل مع قضايا الحزب على ورقة برغل، هذا وعد رجل!
فرحت وخرجت مثلما انت! دقت قبل ان تدلف من الباب ترتدي نظاراتها
الشمسية وتلف راسها بالمنديل الغريب. راقبها وهي تعبر الشارع وتتهجد.
أه يا حجة - تسحبيني سحباً لعالمك، لعالمي قبل ٦ سنوات!

اغلق الباب وتوجه سريعاً ليبر بوعدده لها. اخذ قصاصة ورق من
قصاصاته العديدة، كان كتب عليها رؤوس اقلام تتعلق بعمله وتحت بند "قضايا
لجان المقاومة الشعبية ل.م.ش" كتب: "ك برغل بلدي. فرضت باصرارها الذي
يعكس رجاؤها منطقتها. البرغل كقضية هامة مثلها مثل الانتفاضة، الحزب، العمل
الثوري، بل لو تسلل احد إلى راسها ليقرأ تفكيرها الاكثر صراحة وبدون رتوش
ليقة، صراحة لا تصدر الا عن حنان ام طالما تعلق الامر بابنها لقرأ ان البرغل اهم
من العالم حينها! للحياة منطقتها وللام منطقتها، اذ كان منطقتي الأولى يدوس من يقف
امامه دون رحمه أو مراعاة، لكن في لحظة ما هناك من يعاند ولا يتزحزح ولا
ينزاح من طريقة ذلك هو منطقتي الام الذي يبدو وكأنه يعاند منطقتي الحياة، لكن
بالنهاية تكتشف انه هو بالذات منطقتي الحياة.

بعد شهور على اندلاع الانتفاضة وعند التاسعة والنصف في يوم ما فيما
كنعان يتابع التلفاز رن الجرس الكهربائي، تطلع لساعته بقلق. لم يعتد ان يستقبل
احداً في الليل الا اذا كان قد رتب له موعداً سابقاً، اما غير ذلك فانه وضع طارئ:
الله يستر. ماذا يكون جرى حتى يأتوا بهذه الساعة. فتح الباب فدخل رفيقه.
- مساء الخير. ازعجك رنين الجرس في هذه الساعة ها. اطمئن، القضية ليست
خطيرة ولكن الاحسن رحيلك الليلة قبل الصباح.
- خير ماذا جرى حتى نضطر للتحرك في الليل وفي ظرف كهذا.
- هذا الحي كما تلحظ نشط ومعلوماتنا ان هناك معتقلين لتنظيمات تمتلك بيوتاً
سرية قد ينكشف هذا في التحقيقات وبالتالي يزداد الخطر من حولك. لدينا بيت
جيد لك في حي لن يعرف الانتفاضة حتى لو استمرت مائة عام.

كان فعلاً حياً نشطاً وما سكنه الا مؤقتاً لحين تجهيز بيت جديد. تكثر في
الحي الحواجز الحجرية واشعال الاطارات وكتابة الشعارات كما تتكرر فيه
الاجراءات الاحتلالية التي كانت تقترب منه ليفلت منها كل مرة بالصدفة وبالتأثير
غير المرئي لدعاء امه سنة ١٩٨٢ كما كان يقول في كل مرة ينسل فيها من صدفة
سيئة. في احدى الليالي وفي الاسابيع الأولى للانتفاضة التقطت اذناه الاصوات
المألوفة المستفزة للاعصاب، اصوات السيارات العسكرية، كانت قريبة جداً من
وكره لدرجة سمع فيها الطرق على الابواب ومناداة السكان بالزعيق والصياح

للخروج السريع من بيوتهم. كان الجيش يقوم بحملة مسح للشعارات من على الجدران وهي حملات اعتاد القيام بها اسبوعياً واحياناً يومياً. الصدفة وحدها جعلتهم لا يفتربون من وكرهه والا كانت ورطة حقيقية فهو لن يفتح بمطبيعة الحال وهم نادراً ما يبلمون لحقيقة عدم فتح الباب، الا انه لم يكن يملك مخبأ داخل وكرهه. بعد ساعتين نفذ الجنود مهمتهم ورحلوا. انسل من وكرهه ليرى جدراناه وقد مسحت شعارات عليها باللون الابيض فظهرت الشعارات باللون الاحمر تقريباً واضحة وتحتها الاحرف الأولى لتوقيع (ج.ن.ش.ف) أي جبهة النضال الشعبي الفلسطيني [هل ضاق الوطن وجدراناه حتى تكتب جبهة النضال على جدران بيتي؟! من اين جاءت جبهة النضال هنا؟!] كان غريباً حقاً ان يكون الشعار موقعاً باسم جبهة النضال فهي من الناحية الفعلية والرسمية غير موجودة كقوة في الوطن سوى أفراد مبعثرين هنا وهناك لا امل لهم بأن يشكوا قوة سياسية نتيجة ثقل التنظيمات العريقة. بعد ذلك اشترى دهاناً ابيضاً وكان كل ليلة ينسل فيتطلع لجدار وكرهه؟ ما ان يكتب عليه شعاراً يمسحه وما رده عن سلوكه هذا (المعادي) الشعار التحذيري الذي كتب مرة [الويل لمن يمسح الشعار الوطني]!!

خلال ربيع ساعة وصل وكرهه الجديد. وفي اليوم التالي ليلاً كانت قوة عسكرية تدهم عدة بيوت في الحي لنشطاء في حركة فتح والحزب الشيوعي. من يقتعه بعد ذلك ان ليس دعاء امه سنة ١٩٨٢ مع "القواعد، الاجراءات، التطلبات، والتحوطات" هو الذي انقذه مما كان يمكن ان يقع به بل الصدفة!!؟

وكرهه الجديد كان يجمع مواصفات استجبت فيما يجب أن يتوفر في بيوت التخفي بعد الانتفاضة؟ غير قريب من خطوط المستوطنات التي تشكل هدفاً لمجموعات الشباب. بعيد عن الأنشطة الشبابية ما امكن. لا يقطن بقربه نشطاء لتنظيمات سياسية أو قريب من بيوت سرية لمطاردين بعيداً عن اماكن تصلح كمائن ينصيها الشباب للدوريات وسيارات المستوطنين. كانت الانتفاضة تضيف شروطها لقواعد الحياة السرية وعليه ان يستجيب سريعاً دون تباطؤ فالتطور لا يرحم بل يدوس من لا يتطبع وفق منطقته.

عند الساعة السادسة مساءً كان انهي عمله ذلك اليوم لقاءً سريعاً، عمل كتابي لساعتين أو اكثر قليلاً، قراءة بعض الاوراق والتعليق عليها بسرعة تمهيداً لمعالجتها لاحقاً. اتلاف ما يجب اتلافه من الاوراق حرقاً. سمع نشرة للانباء عند الخامسة مساءً، كان الحدث الأبرز هو النقاشات المستفيضة في اروقة المجلس الوطني المنعقد في الجزائر حول وثيقتين اساسيتين كانتا تشغلان تفكير واهتمام شعب الانتفاضة وتنظيماته منذ اسابيع. الأولى سميت [مبادرة السلام الفلسطينية]

والمتمضنة الاعتراف بالقرار ٢٤٢ والذي لا يعترف بقضية فلسطين كقضية سيادية بل كنزاع حدودي لا غير بين الدول العربية واسرائيل اما الثانية فهي وثيقة اعلان الاستقلال التي نظر لها باجماع شعبي كاستثمار للانتفاضة لتأكيد الحقوق السيادية للشعب فوق وطنه امام العالم وان خدمت كتحصيل حاصل ملء الفراغ القانوني والاداري الذي خلقه القرار الاردني المفاجئ دونما تنسيق مسبق مع م.ب.ف بفك الارتباط القانوني والاداري بالصفة الغربية. كان الحزب صوت ضد "مبادرة السلام" وسعى بالحد الأدنى لتشكيل اقلية كبيرة ضدها معتبراً اياها تتضمن تنازلات مجانية ومثابة استثمار سريع للانتفاضة فيما دعم اعلان وثيقة الاستقلال وان قبل على مضمض ان يكون قرار التقسيم ١٨١ الاساس القانوني لاعلانها اضافة للاسس الشرعية والتاريخية والوطنية. ادار مفتاح تشغيل التلفاز، بحث عن المحطات، المختلفة، لم يجد شيئاً يستحق المشاهدة في تلك الساعة من البث. ادار مفتاح المذياع فما عثر على ما يفرغ توتراً في داخله. استقر رايه على سماع مارسيل خليفة فوضع في المسجلة شريط واصغى:

منتصب القائمة امشي مرفوع الهامة امشي
في كفي قصفة زيتون وعلى كتفي نعشي!

صدق المغني بانشودة سميح القاسم الحماسية وهو عند النافذة يتأمل الحي الذي يقيم فيه. ما عرف ذلك الحي الذي يقطنه منذ خمسة شهور، الانتفاضة بالمعنى الحقيقي المباشر للكلمة. انه حي تقطنه عائلات ثرية، الانتفاضة بالنسبة لها كما اعتقد من مراقبة سلوكها هو اغتنام ايام الاضراب الشامل بعد ظهر كل يوم للالتقاء في حدائق منازلهم الفخمة، امام مواقد اللحم المشوي يكرعون الخمر. [حتماً يريدون وطناً!] كان يؤكد وهو يتطلع لهم من نوافذ منزله، [ولكنهم يريدون من غيرهم ان يناضل ويضحي لانتراعه ليستلموه هم، وان لم يستلموه سلباً سيمتشقون السلاح للتسيّد فيه]. نادراً ما كان شارع الحي يغلق أو يسده اطار مشتعل لذلك كانت الدوريات العسكرية لا تعبده لذا اعتبره كنعان حياً نموذجياً للحياة فيه لرجل التخفي فلا سكان يحشرون انفسهم ولا تحركات انتفاضية تخلق جواً من المصادمة. بجانب المبنى الذي يقطن شقة فيه على الطبقة الرابعة وسط الحي، كان هناك حقل واسع تعود فلاح بسيط ان يزرعه صيفاً وشتاءً. لم يكن نشيطاً فحسب بل عنيداً لا يقيم وزناً لتطلبات ملاصقة حقله لمنازل الاثرياء. في موسم الحصاد جمع سنابل قمحه حزماً حزماً ثم اخذ بمعاونة بغله الضخم "يدرس" القمح وسط مفترق الطرق المؤدي لمنازل الحي باكماله. بعد ان انهى "درس" ذراه واخذ يجمعه بالاكياس، كانت النتيجة انه قطع الطريق على السيارات الفاخرة التي تمتلكها تلك العائلات. راقبه كنعان حينها معجباً بتصرفه، متأملاً بتلك التركيبة الغربية، من جهة حي

بورجوازي يسكنه كبار الرأسماليين في المدينة ومن جهة ثانية فلاح وسط الحي يعمل كأنه على بيدر القرية.

في ذلك اليوم صبت السماء جام غضبها منذ الصباح امطاراً ويرداً مصحوباً بومضات برق يتبعها رعود، كان الشتاء ما يزال يحبو في اواسط تشرين الثاني سنة ١٩٨٨ ومع ذلك لم تبخل السماء على سكان فلسطين خيراً، الامر الذي ادى لاكتساء الحقل والمفترق والشوارع الفرعية بالبرد الابيض كطبقة جميلة فيما شجرة تين هرمة تنصب وسط الحقل وحيدة عارية من اوراقها تقاوم برد الشتاء ورياحه لكن جذعها الصلب كالطود يقف ولا يتحرك اذ ان شروشه تمتد عميقاً في الارض. [لو كنت رساماً لرسمت لوحة طبيعية للحقل الابيض وشجرة التين] حدث نفسه متاملاً جمال الطبيعة امامه مركزاً ناظره على الشجرة [حالتنا مثل حالك. تضربين جذورك في الارض، تمتصين الماء منذ الآن حتى الربيع فيحن اوان اوراقك لتظهر وثمارك لتطرح. يجب ان تنتظرين فعل الزمن كي ياخذ مداه ويفعل فعله. نحن كذلك منذ سنين وسنين نضرب جذورنا في تربة الشعب نمتص منه تجربته الثرية، ثوريته. ستنبت اوراقنا يوماً وسنطرح ثمارنا. كل شيء في اوانه جيد. حكمتنا الشعبية قالت هذا، سيأتي اوان قطف ثمار نضال شعبنا وها قد بدأت اوراقنا بالظهور. سيأتي اوان قطف ثمار عملنا الثوري، فيسود الكادحون والشغيلة فوق وطنهم. للزمن والتجربة منطقهما، ست سنين وانا في التجربة تتقاذفني من وكر لآخر كالخباز يلعب بقرص العجين بين يديه فذفاً يرققه ويدسه في بيت النار. سنين وسنين بشهورها واسابيعها وايامها، بدقائقها وثوانيتها، وتناقضاتي تحسم في داخلي لخيار النضال المحترف، خيار التخفي. يا لهذا الزمن، يا لهذه التجربة!! الا اشد ما يتحمل الانسان، الا ما اكثر ما تصنع منه التجربة بعدما يهبها نفسه دون تردد، يدير ظهره لما سبق ويصيح بملء فمه، هاك ذاتي وكياني وفكري ونفسي اعيدي التشكيل كيفما شئت فانا اهيك كل شيء ... انت رحم امي الثاني اطعميني، اسقيني، ضخي الدم لشرابي والهواء لرنتي ...]

تنبه للوقت فانقطع حبل تأمله، تطلع لساعته فاذا بها تشير إلى دقائق قبل السابعة، موعد نشرة الاخبار التفصيلية من اذاعة مونت كارلو. اوقف المسجلة وادار المذياع موجهاً المؤشر ناحية الرقم ١٢٠٠. انتهى المقطع المخصص للاعلانات فجاء الصوت المألوف لعرفات هادراً:-

[اعلن باسم شعب فلسطين قيام دولة فلسطين فوق ارض فلسطين] فجأة وكان الصوت يؤذن ببداية طقس الفرح الشعبي المجنون بسعاده، انطلقت في السماء مئات الالعب النارية، الزغاريد، الصيحات والهتافات وكل ما يمكن ان يصدر من حنجرة انسان. انطلق الشعب ذاك اليوم وما تخلف حي الاثرياء. احس بالبهجة

تغمره! لا يملك أن يصيح مثلهم، يهتف، ينادي بشعار، يهتاف، لا يملك العباباً نارياً يطلقها تعانق السماء، مشتعلة، فرحة، كل ما يملكه، أن يقول بينه وبين نفسه: [أنا معكم، فرحتي فرحتكم، أنا منذ سنين اندس هنا واناضل مع الحزب والشعب من أجل يوم كهذا من أجل أيام أخرى ننتظرها. كيف احتفل معكم؟]

دون كثير تفكير توجه للمسجلة ووضعها عند حافة النافذة. أعاد الشريط إلى حيث توقع الاغنية. رفع الصوت إلى أعلى مدى ممكن.

منتصب القامة امشي مرفوع الهامة امشي
في كفي قصفة زيتون وعلى كتفي نعشي!

شازك بطريقته في فرحة شعبه. برّد يتساقط، ارضية مكسوة بحلة بيضاء، العباب نارياً، ضجيج شعب فرح، مارسيل خليفة يغني وليلٌ تزيّن بشرارات ملتهبة وبرّدٌ شتاء اخلى مكانه لدفء السعادة المجنونة، وهو هناك عند نافذته لا يبارح تفكيره سوى حقيقة أن نضاله، تعب سنه بدأ يثمر، عمله المنمنم منذ سنين والاف المناضلين بدأ يؤتي ثماره. كان يحيا حقيقة أن خياره بالنضال المحترف من أجل الشعب كان صحيحاً بالمطلق. اتخذت الانتفاضة اندفاعاً جديدة باعلان الاستقلال. كان الشعب يرى في اعلان الاستقلال ليس فقط استثماراً لنضاله البطولي منذ احد عشر شهراً وهذا صحيح وليس فقط الرد الطبيعي على فك الارتباط القانوني والاداري الاردني بالصفة، وهذا صحيح ايضاً بل وايضاً رأى في اعلان الاستقلال كخطوة نحو قيام الدولة على الارض وعبر الانتفاضة بفاعلياتها وانشطتها انذاك دون تطلع كاف لاهمية تطويرها وتصعيدها جذرياً وهذا كان وهماً نشأ ليس بفعل التوق المشروع للتخلص من الاحتلال وجرائمه فقط بل وبالاساس نتيجة للتعبئة السياسية التي درجت عليها القوى التي اعتقدت ان انتفاضة بهذا المستوى وذلك المنسوب ستقود حتماً لدولة مستقلة فتقدمت بشعارها السياسي الخطابي، شعار [الدولة على مرمى حجر]! كان الفكر السياسي الفلسطيني يقع في اول منزلقاته ويعيد صياغة وعي الشعب بما يضعف استعداديته.

لم يكن الحزب في الوطن خارج النقاش الدائر حول هذه القضية. بادر منذ الشهر الثامن لرفع شعار [الحرية والاستقلال] كشعار - هدف ناظم لحركة الشعب كي لا يجري حرفها في منزلقات لا تقود الا لما تقدم به شامير "حكم ذاتي". وازداد الحزب للشعار فهمه بان الانتفاضة محطة نوعية حولت الدولة المستقلة من الامكانية التاريخية إلى الامكانية الواقعية ولكنه لم ير لا في تعبئة اعضائه ولا

في مخاطبته للشعب عبر بياناته أو صحيفته السرية ان الانتفاضة ضمن هكذا مستوى ستقود للدولة بل اشترط تصعيدها وتطويرها لايقاع الخسائر بكافة انواعها بالاحتلال ليتحول لمشروع خاسر، وحينها يصبح صحيحاً النظر للانتفاضة كرافعة لبناء الدولة. في نهاية سنة ١٩٨٨ اصدر المكتب السياسي تعميماً داخلياً حول ذات القضية "الانتفاضة والدولة" اثار خلافاً واسعاً معه بين كادرات الوطن الذين راوا انه لا يربط بشكل كاف وصريح بين الدولة والاشترطات المطلوبة لتطوير وتصعيد الانتفاضة لتقود اليها، فدعي لاجتماع اللجنة المركزية وقدم فرع الوطن ورقته للاجتماع مما صوب الموقف السياسي من القضية في اوائل سنة ١٩٨٩. وما زاد الطين بلة هو تقديم التنازلات كما اعتبرها الحزب عبر ما دعي "مبادرة السلام" والتي قدم فيها المجلس الوطني الاعتراف بقرار ٢٤٢ كاساس للحل دون كافة قرارات الامم المتحدة والتي تنص على حق الدولة والعودة وتفكيك المستوطنات والانسحاب من القدس والحماية الدولية. لم ينفع المبادرة الحاق جملة "تقرير المصير" بقرار ٢٤٢ فالقضية كانت في ان الانتفاضة لم تبلغ بعد مستوى تتطلب فيه استمرارها سياسياً بل كانت تتطلب معالجة مشكلاتها لتوفير مقومات تصعيدها اكثر. لقد وقعت القيادة الرسمية م.ت.ف اسيرة الدعاية الاسرائيلية من ان الفلسطينيين لا يتقدمون بمبادرات بل يرفضون دائماً ما يعرض عليهم، مع ان العقلية الاستعمارية الاسرائيلية ما كانت تطرح في اوج تعاطيها السياسي مع الانتفاضة سوى حكم ذاتي. كان على الضحية ان تبادر لتقديم مشاريع لاقناع القاتل-المجرم بعقلانيته، لا ان تجمع مقومات الرد على تعديه عليها ولانتزاع حقها من بين انيابه! هكذا رد الحزب على المبادرة.

كانت الانتفاضة في اوجها وفاق تطويرها وتصعيدها قائمة وبرنامج القيادة الموحدة للفعاليات يلتزم به حرفياً من الشعب. مقاطعة البضائع الاسرائيلية التي لها بديل محلي واستصلاح الارض والعودة للاقتصاد المنزلي النقشفي تسير على قدم وساق، امتداد شبكة اللجان الشعبية وكافة أشكال التنظيم الجديدة في كل مواقع الضفة والقطاع والقدس، ظاهرة المطاردين كظاهرة شعبية تتوسع اكثر فاكثر ومن رحمة تنشأ ظاهرة المطاردين المسلحين ومجموعاتهم [مجموعات الصقور، الفهد الاسود، النسر الاحمر، كتائب عز الدين القسام، النجم الاحمر] عدم دفع الضرائب شبه كامل واخيراً فالاشتبك يومي وشامل في كافة مواقع الوطن، كانت الانتفاضة في عنفوانها فيما الخلاف السياسي بدأ يضعف جبهتها الداخلية حتى كانت نهاية سنة ١٩٨٩ فاذا به يتهددها نتيجة عزم م.ت.ف على الحوار المباشر مع الاسرائيليين بوساطة مصرية في القاهرة دون ان تقدم اسرائيل شيئاً سوى الحكم الذاتي.

الحزب في الوطن انهمك بمنظماته واعضائه في الانتفاضة وعبر كافة الاشكال والادوات التنظيمية التي افرزتها ابتداء من لجنة الحي وصولاً للقيادة الموحدة. لقد بذل جهد اساسي سنة ١٩٨٨ على الصعيد التنظيمي على ثلاث جبهات، الأولى في سرعة تشكيل الادوات التنظيمية الجديدة التي تتناسب والوضع الانتفاضي [لجان المقاومة الشعبية، كتائب الشهيد غسان كنفاني، مجموعات النسر الاحمر] والاخيرة نشطت شمال الوطن وفي قطاع غزة فلمعت سريعاً اسماء شهدائها مثل [علم الدين شاهين، أبو عرب ومصطفى جوابره وعلي سوامه وايمن الرزه....] لقد بُنيت تلك الهياكل على حساب المنظمات الديمقراطية للعمال والطلاب التي لم تعد كمنظمات للعمل النقابي تلائم متطلبات الانتفاضة. حُسم النقاش الداخلي مع الذي كان يرى في بناء هياكل جديدة، اضعاف للمنظمات الديمقراطية التي بُدلت جهود سنين لبنائها، كان موقفاً جمودياً لا يدرك ضرورة تغيير الشكل التنظيمي تبعاً لتغير ظرف النضال والمهام، لا يدرك ان شكل التنظيم يتبع المهام. على الجبهة الثانية التحرك بسرعة لمعالجة النقطات في هيكل الحزب نتيجة اعتقال المئات من كادرات واعضاء الحزب ولجوء العشرات منهم للمطاردة. كان يجب ان لا يسمح الحزب بانقطاع الصلات الحزبية بما يؤثر سلباً على مهام الانتفاضة وبناء منظمات جديدة والتوسع الحزبي. اما على الجبهة الثالثة فهي التمدد في عشرات المواقع الجديدة التي لم يكن الحزب قد تواجد بها قبلاً، لا تنظيمياً ولا جماهيرياً.

لقد كان من الامة بمكان معالجة القضايا الثلاثة للشروع بحل مهام التوسع التنظيمي والجماهيري ولتوظيف امكانيات اكبر في الفعل الانتفاضي. ما ان انتهى عام ١٩٨٨ حتى كان الحزب قد حل بنجاحة مهامه الثلاث وحقق توسعاً في الوطن يناهز ٧٠% من العضوية الحزبية فيما دور الحزب غداً دوراً رئيساً في الانتفاضة وعلى كافة مستوياتها، وقيادياً في العديد من المواقع. لقد كانت الانتفاضة قد شرعت تحول منظمات الوطن إلى ثقل سياسي وجماهيري وكفاحي ليس على مستوى الحركة الوطنية بل داخل الحزب عموماً مما سيكون له اثره على ثقل الارض المحتلة على قرار الحزب العام لاحقاً.

سنة ١٩٨٩ يتدخل تاريخه الشخصي كإنسان باعتباره شهد حادثاً هاماً في حياته، سمع كنعان ان شقيقته الكبرى تزور البلاد، كان لمقدمها وقع خاص اذ لأول مرة منذ حوالي ثلاثين عاماً تطأ قدمها ارض الوطن. عمر هجرتها من عمره لذلك لم يرها ولم يعرفها مطلقاً فقط حفظ ملامحها من صورها. سمع عنها الكثير عن

طبيعتها وبساطتها، عن كونها اما ثانياة لاشقائه، عن مخططاتها سنوياً لزيارة الوطن والتي كانت تتعثر اخر لحظة في كل مرة نتيجة حظها العاثر.

اختي الكبرى هنا، لا اعرفها اصلاً، سالتقيها فما راىكم؟ لا يمكنني الجزم في أن المستقبل قد يوفر فرصة كاليوم. خاطب الحزب وهاجس يسيطر عليه، قد لا يرى احدهما الاخر لسبب ما، فهل يعقل رغم كل حساباته السرية أن لا يلتقي ويتعارف اثنان حملهما نفس البطن وارضعهما ذات الثدي؟ جاء رد الحزب كما توقع [حسناً. طبيعي ان تراها. رتب المسألة والاهم ان تفهمها جيداً حقيقة حياتك كي تصون سرها. دقق هنا فهي غريبة عن عالمنا، ليست مثل امك!]. امي تتكفل بترتيب ذلك وهي خير من يقوم بافهامها حقيقة وضعي من جهتي، لن اضيع بضع ساعات منفعة من اللقاء لشروحات حول السرية والتخفي وقواعدهما. علق كنعان ويعت لامه ان تحضرها.

عند التاسعة صباحاً رن الجرس حسب ما هو متفق عليه. عبلا وجيب قلبه وغزاه الاضطراب. منذ ايام لم يكف عن التفكير كيف سيكون اللقاء، كيف ستكون المشاعر. لم يفكر في حياته السرية حتى في تاملاته، في احلام يقظته انه سيلقاها في هكذا ظرف. تركته وهو ابن ٦ يتعلق بندي امه - يلتقيها الآن وهو رجل صاحب تجربة عاشها بطولها وعرضها، نضالا وتحدياً. كانت دائماً مهتمة باخيها - ابنها الصغير، تخصصه بهداياها التي جعلته يتعلق بها بشكل خاص. كان يلح عليه سؤال [كيف ينادي عليها؟]. توجه للباب وفتحه فتلقفته بين ذراعيها قبل امه تقبله وتبكي وهو ينصاع لرغبتها الامومية. كانت ترتجف وشفاتها تلتمان خديه ويداهما تتحسس راسه وكتفه وظهره وصدره كأنها ضريرة تكتشفه برؤوس اصابعها.

- آها هل تاكدت منه. انه هو بلحمه وشحمه. يكفيك اعطيني اياه؟

سالتها امه ساخرة وهي تلهث من اثر الصعود للطبقة الرابعة ثم وجهت حديثها اليه بعد ان مارست هي الاخرى رغبتها الامومية وبعد انتظار ثوان لتحقيقتها.

- منذ ان بعثت الي لاتي بها وهي تنقر براسي. يعني رجل بطول وعرض؟ اخيراً ساراه واقبله.

تبسم كنعان. هي الاخرى قالت ذلك بينها وبين نفسها حتماً قبل لقائهما الأول به، اما الآن فهي تظهر اعتياداً على حياته وتجربته بعد طول معاناه، اعتياداً للدرجة التي تسخر من اخته.

- الحياة التي اعيشها وقبلها تربيتك صنعت مني رجلاً بطوله وعرضه. خاطب امه ولف ذراعه حول اخته محتضناً.

- هل تاكدت من ذلك؟ طولي مثل ابي ووجهي مثل امي يعني ليس عندي شيء من خارج العائلة الكريمة، انما ليس فيها من اصيب بالجنون مثلي!

كانت شقيقته نسخة طبق الاصل عن ابيه يراه برويتها وبعد سبع سنوات من وفاته، وجهها، دموعها التي تنساب سريعا بمناسبة وبدون مناسبة، طبيعتها، جناها، بساطتها وانصياعها دون تبرم. سألته عنه كل شيء انما دون استجواب شأن امه، ربما لأنها لم تعد تمارس امومتها معه بعد أو لطبيعة غير مشاكسة فيها ولأنها اخيراً ما تمكنت من هدم حاجز الاخوة بينه وبينها. امه مارست استجوابها التقليدي عبر سلسلة لا تنتهي من الاسئلة حول تفاصيل التفاصيل في حياته، مأكله، مشربه، نومه. تسأل كل مرة تأتيه وكل مرة تنال نفس الاجوبة لتعود من جديد لنفس الاسئلة. الام هي الوحيدة في العالم التي لا يمكنها ان تشعر بملل تكرارها لذات الاسئلة والملاحظات، والزجريات والنصائح التي تتعلق عادة بحياة ابنها وان تخلت عن ذلك تتخلى عن امومتها وحينها يعادل هذا كما لو ان الشمس قررت فجأة ان لا تظهر صباحاً أو تتوقف مكانها عند الظهر.

اتخذت شقيقته موقعها بجانبه طوال ساعات زيارتها. تنازلت امه عن حقها هذا مع تبرم داخلي ظهر في ملامحها وان لم تقله. كان اعد لهما طعاماً للغداء لكنهما كانتا خططتا لشيء اخر، احضرتا معهما ورق العنب لحشيه بالارز اما شقيقته التي ما كان يحتمل ان تاخذ موقعها في العمل في زيارتها الأولى فقد شرعت هي الاخرى بالحمل منصاعة بفرح تحت قيادة امه. اغرب طريقة للف ورق العنب رأها انذاك؟ كانت شقيقته ترتب الورق على كل الطاولة ثم بسرعة ملحوظة تضع الحشية على كل ورقة ثم تاخذ يداها المدربتين الاثبه بماكينة تعبئة بلف الأوراق بسرعة قياسية يصعب متابعتها:

- في لف الورق تجمعين بين الاصالة الشعبية وتقنية العمل الصناعي. هل عندكم مصانع للورق في امريكا؟ قال وضحك وهو يرقبها، معجباً بالماكنة البشرية. بعد ساعات من مكوثهما رحلا بعد توديع اكثر حرارة من حرارة اللقاء وعقب حفنة توجيهات - ما انتبه لاكثرها - اعتيادية من امه على عتبة الباب.

كان شهر مضي على اعلان الاستقلال والنضال يشدد اكثر والفرحة لا زالت عارمة. عند الخامسة والنصف صباحاً في احد الايام الكانونية، نهض من النوم على غير عادته في هكذا وقت، حاول ثم حاول فما استطاع ان ينام جفونه لم تطاوعه. تناول قطعة من الخبز المغموس بالزيت والزعتر ثم حمل كاس الشاي والسيجارة ووقف عند النافذة يتأمل الفجر ويدخن فيما المذيع يتحدث دون ان يعيره انتباه. كانت فعاليات الحزب حينها في اوجها على شرف ذكرى انطلاقته. بذلت جهود تنظيمية هائلة لجعل المناسبة مناسبة نضال متنوع الاشكال، وما ساعد على ذلك هو الظرف الموضوعي الذي تمثل بان الانتفاضة كانت تعيش اوج فعاليتها

الأقائيم الثلاثة - وسام الرفيدي ١٥٢

وأن بدت بعض مظاهرها تخبو قليلاً [تراجع الحشد الجماهيري في الميدان، توقفت مقاطعة مكاتب السير، تراجع العصيان على دفع الضرائب] فيما من جهة أخرى تصاعدت بشكل خاص ظواهر المجموعات المسلحة، وخاصة مجموعات الفهود السود والصقور، والنسور الحمر.

حوالي السادسة لمح طفلاً صغيراً يعبر الشارع وتحت ابطه لفة جرائد موضوعة بكيس من النايلون انقاع من المطر الذي يهطل رذاذاً. فتح النافذة وصفر، تطلع الطفل فأوماً له بالصعود. كان يقف عند الرصيف بهيئته البائسة.

- ادخل تشرب الشاي وتدفي معدتك ثم تنزل.

كان يريد شراء جريدة "القدس" فحسب ولكن منظر الطفل بعث الشفقة في نفسه. يرتدي معطفاً رثاً لا يقيه من برد ولا من مطر وعلى رأسه كيساً من النايلون هو حمايته الوحيدة من طقس كانون الأول. يدس إحدى يديه في جيبه والآخرى تحمل اللفة. ملابسه ميّلة من كيس رأسه حتى حدائه المهترئ فيما ارتعاشه البرد متأصلة في اطرافه كما لو كانت طبيعية فيه. أما نشاطه الباكر فما طرد بعد بقية من نعاس تظهر حول عينيه الصغيرتين.

- سأتأخر عن البيع. رد متردداً. فيما لاحظ كنعان في لهجته خشية من أن يخسر المنافسة على بيع بضعة جرائد في الصباح الباكر.

- لن أؤخرك تشرب الشاي وتخرج ثم اتني اريد ان اتفق معك على صفقة ستفعلك، انا اريد الجريدة كل يوم. ادخل. ادخل.

كان رفاقه يؤمنون له الجريدة ولكن ليس يوم صدورها بل عندما يمر احدهم. كان يذكرهم غاضباً باهمية الجريدة له عندما ينسون احضارها ولكن دون اسهابات زائدة في الحديث. الآن اتاحت له فرصة ان ينهض من النوم ليبدأ بمطالعتها وذلك اعتبره مكسباً حقيقياً.

- ما اسمك؟

بادره كنعان اذ جلس لطاولة المطبخ بعدما وضع ابريق الشاي على الطباخ واشعل المدفأة ووضعها بالقرب منه.

- محمود!

- من أين؟

- من الامعري.

- كم عمرك؟

- ٨ سنوات وثلاثة اشهر.

رد كعادة الاطفال! تطلع اليه كنعان اسفاً على طفولته التي تجوب الشوارع في السادسة صباحاً وتلعب دور الرجولة!

- اتریح كثيراً من بیع الجراند؟
- یعنی لیس دائماً نفس المبلغ.
كان تحفظ البائع وخجله قد حول الحوار لاستجواب اشبه باستجواب متهم امام شرطي.

- یعنی كم؟
- حسب البیع، لیس دائماً نفس المبلغ.
- لا تخاف فانا لن ابیع الجراند لازاحمك، كم تریح تقریباً؟
- ٣٥ شاقلاً، مرات ٤٠. لما اعلن أبو. عمار الاستقلال الشهر الماضي ربحت ٥٠ شاقلاً في ساعتين، من الخامسة حتى السابعة ورجعت للبيت.
- یعنی اعلان الاستقلال افادك مالياً؟
- علق كنعان فيما بدا على البائع وقد تنازل عن تحفظه وان احتفظ ببعض خجله.
- نعم.

نهض كنعان ليضع له الشاي.
- الا تذهب للمدرسة.
- تركتها من يوم ما صارت الانتفاضة.
ناوله الشاي. اعد فطوراً ليفطرنا معاً، خبزاً وجبناً ايضاً وزيتاً وزعتراً ومرية ولبنه.

- كل!
- انا افطرت. لست جائعاً. نطق ببعض خجله.
- ستفطر، انا لم افطر، نفطر معاً، كل.
رد عليه وناوله الخبز دون ان يترك له مجالاً للمناقشة.
- قل لي؟ لماذا تركت المدرسة؟

اخذ يأكل ويحكي قصته. كان جائعاً بل حسبه كنعان لم يأكل منذ اسبوع أو ربما هو جوع الفقر تحول عنده لجوع مزمن فلا يشبع حتى لو ملاً معدته. أكل من طبق الجبن الابيض اكثر من الاطباق الاخرى. كانت قصته تعكس ظواهر عديدة سمع عنها كنتاج للانتفاضة، انما الآن يرى تجسيدها في قصة هذا الطفل البائس؟ اغلاقات متكررة للمدرسة، ابوه كان ترك العمل في اسرائيل ظناً منه ان قرار الموحدة بمقاطعة العمل في المستوطنات الاسرائيلية يسري خارج نطاق الضفة والقطاع لعله خشي من شيان الانتفاضة يقررون سحب الحظر على العمل في اسرائيل فبادر للتوقف عنه. لما اوضح له جيرانه حقيقة قرار الموحدة قال:
- عند اليهود لن اعمل. يوم وعشرة لا. ان هربنا من حاجز الجيش نصطدم بحاجز المثلثين فنسمع كلاماً يقلل قيمتنا.

وهكذا اضجى عاطلاً عن العمل. الاخ اكبر (١٧ عاماً) والذي كان يساعد اباه في نفقات البيت يقبع الآن في السجن بعدما القي القبض عليه متلبساً بالقاء زجاجة حارقة على دورية عسكرية وهو مصاب برصاصة في قدمه مكنتهم من اعتقاله. ثلاثة اخوة اصغر منه واخت عمرها ١٤ عاماً والنتيجة المنطقية ترك محمود للمدرسة وانقطع للعمل ليعيل العائلة. طفل في الثامنة يعيل عائلة! كانت تلك ظاهرة انتفاضية بارزة حين تحولت الطفولة لرجولة مبكرة.

- هناك مدارس للتعليم الشعبي، اليس عندكم في المخيم واحدة - هز راسه بالايجاب - طيب داوم على حضور دروسها بعد ان تبيع الجرائد.
- كانت واحدة ولكنهم اعتقلوا الاستاذ.
- اعتقلوه لانه يعلمكم فالاحتلال لا يريدكم ان تدرسوا وتتعلموا لانكم ان تعلمتم تستطيعون النضال ضده احسن. جرب مخيم قدورة هناك مدرسة ايضاً.
هز راسه موافقاً واكمل طعامه، طعام الافطار والشاي الساخن ودفء المطبخ والحديث جعله ينسى نفسه. سأل
- كم الساعة؟

- الساعة والرابع. نهض سريعاً.
- تاخرت. الاولاد الآن يسبقونني على البيع.
- طيب لنتفق قبل ان تذهب. انا لا اصحو باكراً مثل هذا اليوم، طالما انك تمر من الشارع فاصعد ومرر الجريدة من تحت الباب، وكل يوم خميس ادفع لك عن اسبوع، الجريدة ٨٠ اغورة، اعطيك شاقل. في الاسبوع ٦ شواقل ساعطيك عشرة. ما رايك؟ هذا لانيك سنتعب، يعني اجر لك. اتفقنا.
- اتفقنا. نبدأ من الغد.

لم يستمر الاتفاق لاكثر من شهرين، ففي احدى المرات لم يجد كنعان شواقلاً معه، فاعطاه ٥ دنانير اردنية كانت تعادل ١٨ شاقلاً.
- بدل الاردني باسرائيلي وخذ العشرة شواقل والخميس القادم نتفاهم.
ذهب ولم يعد. اعتبرها غنيمة؟ بضعة شواقل (اقتنصها) فخر ذلك الطفل -التاجر الفاشل- زبوناً دائماً؟ ام يكون اعتقل وهو يلقي بالحجارة على الجيش كهواية طفولية لا كنضال فحسب، ادمن اطفال فلسطين ممارستها؟ ربما. بل ربما يكون وجد عملاً ثابتاً في كراج تصليح سيارات أو في سوق الخضار حمالاً يخدم العجائز، أو خادماً في مطعم يمسح الطاولات ...

كان سمع مراراً عن "النكتيكات الحربية" لبائعي الجرائد الصغار مع الجيش عند دوار المنارة، العديد منهم يتزاحمون على تصريح نسخ جرائدهم في فترة ازدحام السير في الصباح يتصايحون ويتقافزون بين الناس والسيارات ينادون على جريدة "القدس"؟ وما ان تظهر دورية للجيش حتى يبدؤون برشقها بوابل من الأقاتيم الثلاثة - وسام الرفيدي ١٥٥

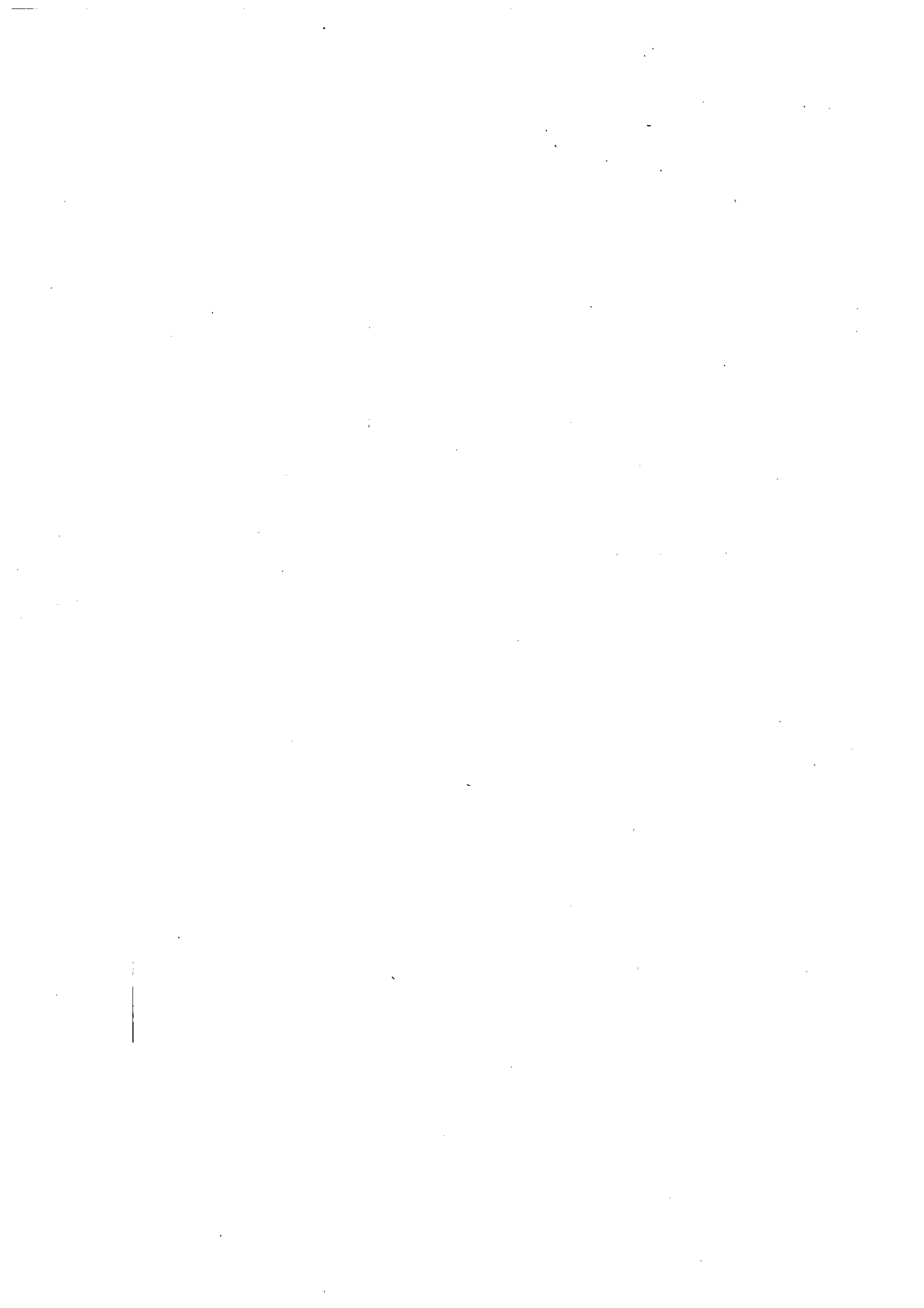
حجارتهم الصغيرة المخبأة في اكياس جرائدهم، فيسارع الجنود لاطلاق زخات من رصاص بنادقهم الآلية فيثار الهرج والمرج بين الناس المتراكضين إلى غير اتجاه محدد فيما تتعالى اصوات ابواق السيارات والمحلات التجارية تغلق ابوابها فيبدأ الجنود باعتقال من تطاله ايديهم من الشبان. اما اولئك المنتفضين الصغار من بانعي الجرائد فينسحبون بهدوء يتصنعون الهلع والخوف، يضحكون على ذقون جنود الاحتلال المخدوعين! ام تراه اعتقل مضبوطاً بتوزيع بيان للحزب أو جريدته السرية مثلاً؟ فكر كنعان قلماً وقد تذكر ما سمعه من ان احد اعضاء الحزب اتفق مع اولئك البانعين ان يدسوا بياناً للحزب بين صفحات جرائدهم التي يبيعونها كاحدى الابداعات الغربية والتوريطية لتوزيع بيان سري!!

١٩٨٩ شهد نقطة تحول جدية في العمل الحزبي فعلى ضوء معطيات التوسع والتي بلغت ١٠٠% نهاية ٨٩-والامتداد ودخول العشرات من المواقع الجديدة وبناء العدد الجديد من الكادرات التي تجمدت في ميدان العمل في الشارع والابداعات العديدة لمنظمات حزبية عديدة ورفع منسوب توزيع نشراته (البيان - الجريدة) كل ذلك دفع الحزب إلى رفع شعار التحول إلى قوة أولى، عبر وثيقة خصصت لشرح الشعار ومستنداته السياسية والجماهيرية والكفاحية والتنظيمية. كان الطموح كبيراً وتاريخياً اذ ان التحول لقوة أولى يعني بداية الطريق لاحداث تغيير نوعي في ميزان القوى السياسي-الطبيقي في الساحة بما يؤسس لانجاز هدف تاريخي بان يمثل اليسار الثوري موقع القائد للنضال. كان واضحاً للجميع كما سجلت الوثيقة ان العامل الاكثر اهمية - الرافعة الاكثر اساسية لانجاح المشروع- الشعار يكمن في النجاح بانطلاق الحركة العصائية السرية المسلحة التي جرى شرحها في الرسالة الجيفارية في ك٢ سنة ١٩٨٦ اذ بدون هذا الشكل الاكثر تطوراً للنضال السياسي يصعب مجرد تصور التقاف الشعب باغلييته حول اليسار خاصة في ظل مزاج نضالي عال في ظروف الانتفاضة.

الاف الاعضاء والانصار عرفوا طريقهم للاسر، مئات منهم اصيبوا بجراح واكثر من ١٢٠ شهيد قدموا على مذبح الانتفاضة. كان الحزب يبرى تضحياته تلك وقدرته ونفوذه المتنامي فيطرح التصورات التي تسعى بارادة ثورية لمعانقة السماء [حتى وان بدت المعانقة تلك بعيدة المنال أو حتى مستحيلة] في ذكرى استشهاد غسان كنفاني (٨/٧/٨٩) والمنظمات تنشط إحياء للذكرى سقط ياسر أبو غوش عضو الحزب، صاحب المكانة الاثيرة عند الحزب والشعب في رام الله.

صباحاً كان كنعان يكتب، رن الجرس بغير مواعده، دخلت رفيقته
وسارعت بالارتقاء على الازيكة وهي تجهش بالبكاء الذي هو للنحيب اقرب.
- ماذا هناك؟ تحدثي ماذا هناك؟ اعصابي لا تحتمل.
سأل كنعان يستحثها والتوتر يتملكه متحسباً كارثة وقعت.
- استشهد الرفيق ياسر، ياسر أبو غوش قبل ساعة، قتلوه عند المنارة.

القت بالنبا كالصاعقة وعلا صوتها بالنحيب، كان واقفاً فقعد منهداً. لم ينطق
بكلمة. رفيقته تبكي وهو صامت، ياسر الذي اتخذ قراراً استثنائياً بضمه للحزب قبل
بلوغه السن المحددة في النظام الداخلي (٦ سنة)، ما أن بلغ ١٥ عاماً حتى كان
عضواً في خلية مرشحة تابعة للمنظمة الحزبية للطلبة الثانويين، كان ابرز نشاطه
المنظمة الديمقراطية للثانويين "اتحاد اللجان" ووقف لاحقاً على رأس فرعها في
رام الله، منظمة تشرفت بانها قدمت أول شهيد في الانتفاضة حاتم السيسي في قطاع
غزة، فيما بعد لمع اسمه بين رفاقه في المنظمة الحزبية للمدينة وما ان اندلعت
الانتفاضة حتى غدا محور احاديث المدينة، ليس هناك كمين الا كان فيه، ليس من
تظاهرة للثانويين الا وقادها. ياسر ذاك الشاب الطويل، الأشقر، الجريء سرق
اعجاب الطالبات قبل الطلاب لجرأته وصداميته. بكته المدينة باكملها وما ان انتشر
الخبر ان المخابرات اعدته في الشارع حتى قامت المدينة ولم تقعد، سائقو
السيارات اوقفوا سياراتهم واخذوا يكون. فتيات اخذن ينحبن في الشوارع والمحال
اغلقت سريعاً واندلعت الصدمات عنيفة جداً وبعد الظهر عند بيت الشهيد سقط
رفيقه رجا محمد صالح في تظاهرات الاحتجاج. لقد فجعت المدينة مرتين! ■



الفصل التاسع



الفصل التاسع

أصواتهم

آتية من الغرفة المجاورة التي فيها ماكينات الطباعة. قيد يديه يؤلمه فالدم انحشر وكلما حرك يديه لسبب ما أو لقتل الرتابة والملل انعقد الحبل المطاطي الذي يقيد يديه فازداد الألم. [اكتمل التشابه يا فياض يا رفيق التجربة! بماذا تفكر يا هشام، بماذا تتأمل، أيؤلمه القيد مثلي؟] تذكر والقيد يؤلمه صيحة محمود درويش والتي غناها مارسيل خليفة بصوت ملحمي فريد "أنا من تحفر الاغلال في جلدي شكلاً للوطن!" ما سمع هذا الشعر الا وشعر بحافزه المعنوي ينمو بداخله [اين ستقودني اغلالي بعد الآن؟] أصوات كثيرة تبعثر الكلام في غرفة المكائن، أصوات أقدام تتحرك، صوت أمر من الغرفة التي بحذاء الباب؟

- هشام! لمن الماكينات هذه؟ لك ام لكنعان؟

عربيته ركيكة. انه ضابط مخابرات. فهم الذين يسألون - فقط رجال الأحدثية الرياضية تسال، انما البساطير فلا تملك الا إطلاق الرصاص والضرب بأكعابها على الأبواب وبمقدمتها على كافة أنحاء الجسم.

- لا اعرف. لا شأن لي بأية ماكينات.

تضامني معك يا رفيق وأنت تواجه بارادة فولاذية. يحس بتضامنه ومحبتة لرفيقة الأقرب في تجربته وتحضره بداياته.

- صحيح، صحيح، مطلبك مشروع. ينبغي فرز رفيق ثابت كمساعد لك للقضايا الاجتماعية والحزبية، يكون سنذك. لدينا اسم هشام ما رأيك؟ تعرفه اليس كذلك؟

كان انتقل مع بداية سنة ١٩٩٠ إلى بيته-وكره في المنطقة الصناعية في رام الله ومهامه باتت تتطلب رفيقاً مرافقاً له.

- لا يمكن القول أنني اعرفه. كنت أراه في الجامعة ولكنني لم أتحدث اليه. اذ كنت أتعمد حصر علاقاتي في حينها بحكم مهامي. لكني سمعت عنه وعن عمله في الانتفاضة - لديه روح عملية وذلك أهم ما اعوزه في مرافق.

فعلاً اكثر ما يميزه روحه العملية، الانتفاضة أظهرت طاقة هشام المحجوزة كما أظهرت طاقة غيره فالميدان كان وسيبقى التربة التي لا تثبت المناضلين فحسب بل وتكشف سجاياهم وتفجر طاقاتهم المخترنة وما على الحزب الا التقاطها سريعاً. عمل هشام مع وفود الصحافة الأجنبية التي كانت تزور الوطن

لتغطية أحداث الانتفاضة، ومن غير هشام الجريء والماهر في السياقة يستطيع
ايصال طاقم صحافة إلى قرية نائية عبر العديد من حواجز التفتيش والطرق
الخاضعة للرقابة وأحياناً في ظل منع التجوال؟ ثم عمل في مجال العمل التعاوني
فاتصل بالمزارعين في الأرياف يزودهم بالأشتال والبذور في الوقت الذي عمل فيه
مع اللجان الشعبية في المدينة.

كان مر وقت طويل على صلته بالحزب كصديق وكرفيق منذ التحق
بجامعة بيرزيت مطلع الثمانينيات وعمل مع المنظمات الديمقراطية للطلبة لسنتين
مرواً بالانتفاضة وحتى عام ١٩٩٠ عندما اقترح رفاق كنعان اسمه كمراقب له.
روح عملية عالية، جرأة وشجاعة خاصة في المواقف واللحظات الحرجة وما
أكثرها في حياة رجل التخفي، انتماء راسخ للحزب واعتقال سابق اضاف لشخصيته
ابعاد جديدة واخيراً قدرة ومهارة عالية على سياقة السيارة تقرر على ضوء ذلك ان
يدخل هشام عالم التجربة المخفية الا عن نفر محدد وهيئات محددة في الحزب.

بعد اسبوع على الفرار كان كنعان واقفاً ما بعد العصر عند نافذة غرفة
نومه ينظر للشارع منتظراً وصول هشام، كل قادم لوكره يشكل بالنسبة له حادثاً
هاماً في حياته السرية، اشبه بقدوم المولود الأول لزوجين، ينتظر عادة عند نافذة
البيت يعد طعاماً دسماً لضيفه اذ كان دائماً يهتم بطعام من يأتي اليه جديداً كان ام
قديماً، يخلق ذقنه ان كان لا يطلقها، يعتني بلباسه، وان تمكن يرتب بيته. كان
يتصرف كمن يستقبل عروسه في بيته، كان يحتفي بتصرفاته تلك، بدخول "الجديد"
على حياته الفقيرة بالجديد كقاعدة، فكيف به اذ ينتظر اليوم من يعول عليه ان يكون
يديه ولسانه وقدميه - مرافقه الحزبي.

في الموعد المحدد ظهر هشام في الشارع المؤدي إلى بيته، كان يتلقت
بذكاء دون ارتباك مدققاً ان كان مراقباً أو ملاحقاً، ملايسه على عداء مع الهندام
والعناية الحسنة، بنطال من الجينز اهترى من كثرة ما لبس فاكتسب ملمحاً أمريكياً
أصيلاً! بلوز صيفي خفيف وحذاء رياضي، شاب أمريكي على الطراز العصري -
لباسه يعكس روحه العملية، كانت تلك من سمات هشام البارزة التي لاحظها كنعان.
عندما اضطر لاعتبارات العمل ان يغير هندامه فلبس بنطالاً قماشياً وقميصاً وحذاء
جلدياً بدا لكنعان مضحكاً بزيه التكري. اما هشام فلم يتأخر كثيراً بعد إنجاز مهمته،
سارع للتخلي عن زيه التكري وعاد لطبيعته. لحظة ان دلف هشام للبيت تعانقاً
طويلاً عناقاً حاراً طويلاً، جلسا وتحدثا مطولاً عن الذكريات والجامعة وما آلت اليه
الانتفاضة واوضاع الاتحاد السوفييتي. تناولوا طعام الغداء "مقلوبة الدجاج" مع لبن

النعاج وجلسا على الشرفة الشرقية يسمعان للشيخ أمام، يشربان الشاي، يتحدثان، ويتذكران. كان هشام مثله مصاباً بجنون الشيخ يلاحق أية أغنية له تتسرب للوطن كما كلب الأثر.

- أتدري؟ مشكلة تورقني، ايهما الأفضل لدي الشيخ إمام أم مارسيل خليفة؟ يصعب علي حتى اللحظة بعد عشرة استمرت خمسة عشر عاماً ان احسم موقفي.

كانا بدءاً يتمشيان ويسمعان حينها أغنية "بلح ابريل يا سماره".

- ارح رأسك الاثنان معاً بنفس المستوى هما المفضلان معاً.

حسماً هشام ببساطة لا تدرك معاناته!

- لا يمكن يجب ان احدد موقفاً واضحاً.

- المسألة ليست حزبية وليست مثار خلاف مع القوى والتنظيمات!

قال هشام ساخراً، فضحك كنعان.

- المسألة مرتبطة بمزاجي وذوقي الفني، يجب ان اعرف اين اقف. هكذا انا

والسلام. على اية حال بعد معاناة طويلة اعتقدني وجدت الحل في القول

الإنجليزي The First Between Equals الاثنان متساويان والاول هو الشيخ

امام، اعتقده حل معقول.

قرر كنعان واستمر ا يتمشيان. كان الشيخ يغني:

مواكب مواكب رجال الطريقة الله

بيجوبوا الكواكب بنور الحقيقة الله

الشمس بدأت مسيرتها غاربة. لاحظ هشام غرابة التمشي هكذا على الشرفة فتلك لا يدرك أهميتها الا المتخفي وحده. التمشي هكذا عادة المتخفي، يتأمل، يفكر، يفرغ احتقانه وينتظر. يمرن قدميه وظهره كي لا يتصلب مع الجلوس الطويل. منذ الصباح وحتى العصر وانا اجلس الى ان اهترأت عجيزتي، هذا ان وجد عليها ما يهترئ اصلاً. وضحك!

- هناك آخر يشاركك عادة التمشي هذه؟

- مَنْ؟

- القابع في زنزانته فأنت وهو تتفقان من هذه الزاوية.

- صحيح. صحيح. والان حدثني عن حياتك، عملك، زوجتك، صفها لي، أي نوع

من النساء هي، كيف ارتبطتما قبل الزواج؟

كان كنعان يرشق هشام بأسئلته. يريد ان يقترب من عالمه، يتعرف عليه،

يسعى لان يصبح جزء منه. لم يتردد هشام بالانفتاح في الحديث، حدثه مطولاً عن

زوجته، عائلته، عن عمله بما يكفي ليشعر كنعان معه انه يعرف عالمه معرفة جيدة بل وبحياء.

- والان - قال كنعان بلهجة لم يشأ لها ان تكون رسمية- دعني اوضح لك طبيعة مهامك الحزبية معي، وضعك الحزبي، ضوابط التعامل مع البيت، بعض قضايا حياتي السرية التي يجب ان تعرفها.

تحدث كنعان لساعة ونيف وهما يتمشيان احياناً كان يتوقف عن السير ليؤكد فكرة ما، يركز على توجيه ما، يحرك يديه كعادته، لم يُغرق حديثه بالتفاصيل فنتك راى من الافضل ان يتكلما حولها مع تتالي العمل اليومي بدلاً من تكرارها كالمدرس يلقن تلميذه. كان يتحدث وهشام ينصت جيداً، يقاطع ليسال عما يحتاج للاستفسار، أو يعلق ليؤكد ادراكه لفكرة ما.

- والان يا رفيق بعد كل ما سمعته عن مهامك، وضعك، ظروفك، السرية في العمل، هل تقبل العمل ضمن ما حدّد؟

- مجنون منّ تسنح له فرصة العمل في تجربة من هذا النمط ويفوتها. قال هشام دون تردد.

- جيد هذا يسعدني، توقعنا ان تقول ما قلت والا ما اخترناك. الاعتبار الرسمية والصراحة الحزبية اوجبت ان أسأل. والان لصراحة اخرى، تعودت ان أسأل من يعمل معي سؤالاً صريحاً. نظراً لخطورة الحياة التي اعيش، انت سجين سابق ومنذ سنين وأنت على صلة بالحزب لذا اتوقع ان تفهم سؤالى وتتقبله دونما تحسس وان تجيبني عنه بصراحة.

- اسأل. لا حساسيات لدي فيما يتعلق بالحزب.

- اذا حدث واعتقلت لأي سبب كان فهل اترك بيتي ام لا؟ يهمني ان اعرف موقفك بصراحة حتى اعرف اين اقف. لا تتحرج، اتفهم اجابتك بغض النظر عنها.

- لا تتركه.

لم يزد على كلمته كلمة. "لا تتركه" قالها بحسم ووضوح لا يقبل القسمة على اثنين. لم يشرح أو يعلل أو يبرر كما يفعل العديد لاقناع الآخرين بموقفهم، يتحدثون كثيراً ويكررون جملهم، يلوكونها لدرجة تجعلك تشك انهم بحديثهم على هذه الشاكلة انما يخفون عدم الثقة بذواتهم كمن يهرب للأمام مغطياً نفسه بضجيج الحديث. هشام لم يفعل ذلك، قال كلمته بطريقة أشعرت كنعان انه أمام رفيق يحترم كلمته، تسمعها منه ولا تناقشه بعدها، تثق به وانتهى. كانا ما يزالان يتمشيان والساعة قاربت التاسعة ليلاً.

- حان دوري لاسأل.

- اسأل ما تريد؟
 - كيف يمكن احتمال حياة كهذه وطوال كل تلك السنين الطويلة؟
 - البداية صعبة وصعبة جداً، فيما بعد مع توالي الشهور والسنين تصبح هذه الحياة اعتيادية جداً بحكم التعود والقناعة لا بحكم اعتبارها جيدة فالتخفي خيار نضال لا خيار حياة، ليكن موقفك هذا واضحاً. ينبغي توفر عوامل تجعلها ناجحة ومستقرة، القناعة الأيديولوجية بأهميتها لعملنا الحزبي مسألة هامة للغاية فبدونها تنزع التجربة ليتزعزع إيمان صاحبها بها، تتغلب عناصر الضعف على عناصر القوة لدى من يخوضها. هناك أيضاً الانحياز الكامل للنضال أي التمسك بخيار الاحتراف الثوري ووضع كل ما يعيق ذلك على الرف - أخيراً هناك رعاية الحزب وتضامنه واسناده للتجربة لمن يخوضها وفوق ذلك دعاء امي "رخ يا بني الله يرضى عليك" ان توفر كل ذلك لا يبقى مجالاً لتساؤل استهجاني!

الحبل المطاطي لا زال يؤلم يده. البسطار الذي يحمل كتلة من اللحم الخنازيري - فوقه يروح ويجيء بقرب كنعان فيلكزه بقدمه في خاصرته، في فخذه، في قدمه اينما شاء. الحقد ينمو وينمو حتى ليكاد يطوق العالم ويحرقه!. من ابتدع الأغنية الدارجة في الانتفاضة والتي تقول في إحدى مقاطعها، السجن لي مرتبة والقيد لي خلخال؟ لم ترق له الاغنية عندما سمعها: تلك أغنية تصلح لتحشيد معنوي لمعتقل يعيش وطأة الأسر وتحشى ضعفه في لحظة ان يتحول لانهب وسقوط، انما ان يفتخر المعتقل بقيده واسره ويتغنى به فرحاً فذلك غريب، شاذ بل وسخيف لا يجب ان تكون مفاهيم كهذه مدخلاً لتربية ثوري متمرّد، فالثوري يجب ان يخلع قيده لا ان يتغنى به كخلخال يتزين به، القيد إذلال ومهانة فهل نتغنى باذلالنا ومهانتنا؟ اما اذا اعتقل فيجب ان يقوم تنظيمه بمحاسبته بتخفيض مرتبته لا ان يعتبر سجنه مرتبة جديدة؟ أنها ذات الذهنية التي تحول الهزيمة إلى نصر بالصياح والضجيج والهروب إلى الامام! يحدث تنفسه ويداه تؤلمانه ويتحفز لقدم بسطار اللحم الخنازيري ليكزه [أي خلخال هذا؟ ها هو ذا انسان مناضل من أجل شعبه قلبه يعمر بالتعاطف مع كل قضية عادلة في العالم، حلقي على الأرض مقيد اليدين والقدمين فهل عليه ان يشعر بالفخر؟! ما بين الفخر في هكذا حالة وبين الحقد فرّق، الأول يزيّف الحقيقة المرة، يزينها فيما الثاني يرى ما في الحقيقة من إذلال ومهانة فيحول كل ذلك إلى حقد على المضطهدين والظالمين]. كان الحقد في داخله يتصاعد على البساطير - الأحذية الرياضية والمطاطية، على كل أنواع الأحذية والنعال في العالم.

صيف سنة ١٩٩٠ انذر بتطورات خطيرة على مستوى المنطقة العربية لم يستطع أحد ان يدرك بداياتها حينئذ. ففي الثاني من آب اجتاحت القوات العراقية الكويت لتسقط دون مقاومة جدية، وعلنان العراق بعدئذ ان الكويت ارض عراقية ويحتسبها المحافظة التاسعة عشرة الأمريكية واتباعهم في العالم يحشدون قوة تناهز اكثر من نصف مليون جندي في السعودية منذرين العراق بالانسحاب حتى الخامس عشر من كانون الثاني سنة ١٩٩١ والا فالهجوم العسكري والسحق. لقد هب الرأسماليون في العالم قاطبة عندما أحسوا ان بحر البترول في منطقة الخليج سيكف عن ان يكون نهياً لشركاتهم، يشترونه بثمن بخس ليدير عجلة صناعاتهم التي يروجون منتجاتها السلعية في العالم الثالث ومنه العالم العربي، وما يدفعه الرأسماليون ثمناً للبترول يعودون فيستردونه اما ثمناً لبضائعهم او على شكل ودائع نقدية يضعها العرب في بنوك الرأسماليين في لندن، طوكيو، نيويورك... حتى بلغت حين الاجتياح العراقي ٧٥٠ مليار دولار يستثمرها الرأسماليون لذلك فلا عجب ان تحوز خطوة العراق على تأييد شعبي لدى العرب. ما اهتم أحد حينها بمصير الكويت التي جرى بلعها في اقل من ٢٤ ساعة ولا برأي الكويتيين أنفسهم بطريقة تحويلهم إلى عراقيين أيضاً في ٢٤ ساعة، بل تصدر الوعي الشعبي آنذاك حقيقتين فقط، الأولى ان العراق سيعيد البترول للعرب من جهة والنقمة على الدول الغربية التي تحشد جيوشها في السعودية لحماية عروش شيوخ القبائل الخليجية المسماة دولاً على سبيل المجاز السياسي لقد جاء البيان السياسي الذي أصدره الحزب في الوطن ليعكس هذا المزاج بغض النظر عن صوابية أو عدم صوابية خطوة العراق في اجتياح الكويت. كما أشار، فالجهود كلها، كما أكد البيان، يجب صبها لمواجهة الغزو الإمبريالي للمنطقة العربية، اما "الثورة مستمرة" جريدة الحزب السرية في الوطن فركزت تحريضها وتعبئتها على جملة عناوين أساسية لعل أهمها الدعوة لان تكون المجابهة في الخليج لا تعتمد فقط على الحرب التقليدية بل والمتحركة والعصائية لمواجهة الآلة العسكرية الهائلة المحتشدة ضد العراق، كما دعت شعبنا لضرورة ان يتمسك بسياسة الاعتماد على نفسه دون رهانات أخرى، فالعراق سند للانتفاضة لا بديل عنها، كما أكدت مراراً.

كانت التطورات في الخليج لا تهيمن فقط على التفكير الشعبي اليومي واهتماماته ورهاناته بل ايضاً على وسائل الإعلام العالمي فأضحت تلك التطورات هي محور اهتمام العالم وشعب فلسطين منه، لا الانتفاضة التي كانت اصلاً قد فقدت كثيرًا من طابعها الشعبي الذي ميزها في سنتي ١٩٨٨-١٩٨٩ فيما نشطت اكثر فاكثراً المجموعات المسلحة التابعة لفصائل فتح، الشعبية وحركة حماس والمشكلة أساساً من مطاردي الانتفاضة وتحديداً في قطاع غزة. اما العراقيون وفي

لفتة سياسية وطنية فقد ربطوا قضية الخليج وقضية فلسطين ودعوا لحل الاثنتين وعلى قاعدة الشرعية الدولية التي لا يجب تجزئتها اذ ان النفاق الأمريكي الإسرائيلي كان فاضحاً:- في الخليج يذرفون دموع التماسيح على حق تقرير المصير للكويتهين وحقوق الإنسان وهتك الشرعية الدولية فيما القضية برمتها عربية، اما في فلسطين فيدللون إسرائيل التي تدوس حقوق الإنسان ولا تعترف بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني ولا تعترف بقرارات الشرعية الدولية والتي منحته حقه في الدولة والعودة لوطنه. لقد اكتسب ربط العراقيين بين القضيتين مغزاه الصريح الحازم عندما اكد طارق عزيز وزير الخارجية عليه بطريقة لا تقبل القسمة على اثنين ففي معرض رده على سؤال لاحد الصحفيين في مؤتمر صحفي عن جدية العراق في حديثه عن ضرب إسرائيل ان هوجمت قواته في الكويت فجاؤ رد عزيز صاعقاً اسر كل من سمعه من مؤيدي العراق [Absolutely Yes] - قطعاً نعم! هل الفلسطينيون لهذا الرد- التاكيد القطعي وان وجد بينهم الكثيرون ممن تشككوا بان هذا سيقع اذ كثيراً ما سمعوا تهديدات عربية ذهبت ادراج الرياح ولم يبق منها سوى الطنين الاعلامي يطن في الاذن العربية لا اكثر. اما السؤال التحدي الاكبر فقد بقي قائماً: كيف سيرد الفلسطينيون على ربط العراقيين لقضيته بقضيتهم؟ هل سيؤكدون الربط بين القضيتين بالقتال على الأرض؟؟

- لازلت اعتقد ان الأمور لم تصل لطريق مسدود من الناحية العقلانية الصرف، يجب ان يكون هناك مخرج ما، حل ما، لا أتصور حرباً بهذه الفخامة من الحشود، ان ما يجري محض جنون أو بصورة أدق مخطط أمريكي - امبريالي.

- لم يبق الا ساعات على انتهاء الإنذار الأمريكي الأطلسي للعراق، فالحرب والحال هكذا تبدو واقعة انما السؤال هل يضر بونه منذ غد صباحاً ام متى؟ لماذا لا يعلن عن الانسحاب؟ أكد بالاجتياح حقه بالكويت فليانسحب ويستثمر الحالة التي نشأت للمطالبة بالكويت ويستمر بتقوية وتعزيز قوته الاقتصادية والعسكرية.

كان كنعان يتحدث مؤملاً بان تتخذ القيادة العراقية قراراً بالانسحاب وتتجنب مواجهة عسكرية كان يراها مدمرة للعراق.

- اعتقد ان العراق يراهن على خيارات عسكرية غير معروفة لنا، ربما أسلحة ما فبالنهاية للدول أسرارها الحربية. وربما يفكر بما يكون عليه موقف السوفييت خاصة وان له معهم معاهدة دفاع مع انني اعتقد ان هذا المرتد غورباتشوف لن يفعل سوى ان يطعنه من الخلف لصالح أمريكا.

- في رأس صدام "موال" وهذا ما يجب فهمه ومن ثم تفهم تكتيكاته، الانسحاب أو عدمه يبقى تكتيك. المهم ما حقيقة هذا الموال، موال إقليمي خليجي لبلع نبط محميات المشايخ وهذا بالمناسبة جيد في المنظور الاقتصادي التاريخي، ام موال قومي نهضوي تحرري ووحدي؟ هل يمكن اعتباره اذن ان كان الموال قومي ببسمارك العرب؟ محمد علي باشا وقد ارتدى البدلة العسكرية نهاية القرن العشرين؟

- ان كان مواله هكذا فهو حقاً ببسمارك، يطرح شعارات قومية نهضوية ووحديّة، يبني بشكل جدي ومركز صناعة جيدة حسب مقاييس الصناعة في العالم الثالث. يبدو لي انه يسعى لتحقيق ما عجزت عنه البورجوازية العربية أي التصنيع وفك التبعية مع الغرب وان لم يفكها بالمطلق، فيحسن موقعه، يشاركها بعض الشيء، كما يسعى لنهضة شاملة في التعليم وجلب التقنية وتطويرها....

- اما ان تكون حركته باتجاه الكويت مدخل مشروع قومي شامل، ان يكون ببسمارك، فانا أتمنى ذلك وهل افضل من زعيم يوحد العرب ولو بالدم؟ في التاريخ هذا افضل من النشردم إلى ٢٢ دولة معظمها لا يملك حتى مقومات مدن عصرية. ولكن اعتقد أن هناك سيناريو آخر كان يمكن أن تتخذه حركته القومية: يدخل قواته للاردن والملك يرحب بذلك اذ إنه يخشى أكثر ما يخشاه الوطن البديل وله الحق بالحماية والعراق كفيل بذلك بحكم المعاهدة التي تجيز له، وبعدها ليفتح جبهة حرب مع إسرائيل، عسكرياً وبشرياً يستطيع أن يخوض حرباً طويلة مع إسرائيل، حرباً لا يحتملها جيش مثل إسرائيل تعود على الحرب الخاطفة، ومجتمع مثل إسرائيل قليل السكان ومحاصر لا يحتمل الاستنزاف، ناهيك أن التقنية العسكرية للعراق بالنسبة لإسرائيل لا بأس بها، المهم لا يستطيع شيخ قبيلة في الخليج أن يطالبه بديونه عن فترة الحرب مع ايران ولا يستطيع جيبوتي أن تتناول فترسل جيشها ليشارك في حرب ضد العراق. كما أن الموقف الدولي سيتغير فالعرب في حالة حرب اصلا مع إسرائيل.

- هذا السيناريو كفيل بتحويل العراق كقائد للامة العربية دون منازع وسيتمكن من فرض منطقه عليها، فالموقع القيادي للعرب كان وسيبقى مدخله الصراع العربي الإسرائيلي قبل كل شيء. تلك كانت تجربة عبد الناصر حين احتل مكانته المرموقة، وتلك هي سبب مكانة الثورة الفلسطينية ايام عزها. السؤال الملح هو هو. ما آفاق الاجتياح العراقي للكويت في التفكير الاستراتيجي العراقي، اضافة للسؤال السابق، متى سيضرب العراق؟ اسئلة كثيرة تنتظر تطورات الاحداث لتجيب عنها.

لم يكن رفيقه وهو قيادياً وصاحب تجربة طويلة في النضال ويمتلك القدرة على التحليل، لم يكن غافلاً عن حقيقة ان الحرب قادمة لا محالة، ولكنه لم يكن ليتقبل اخلاقياً ان مئات الالوف من الجنود المزودين بتكنولوجيا عسكرية متقدمة للابادة وصلت مرحلة الليزر والاشعة تحت الحمراء والكمبيوتر.

- سيشتكون بحمله تقتيل باحدث الوسائل العصرية، انه الجنون البشري الذي تخلقه وتغذيه نزعة الاستعباد والاستئثار المستشرية. على العراقيين ان يحسبوا جيداً. لا يمكن لشعب في العالم الثالث ان يهزم دولة عظمى في حرب تقليدية بل في حرب عصابات، حرب شعبية وعصائية فهي وحدها القادرة على لجم التكنولوجيا العسكرية ووقف استخدامها. الانتفاضة ايضاً قدمت درس فالطائرة الحربية والدبابة والمدفعية لا تصلح مع الحجارة وزجاجات المولوتوف والمسدس.

علق رفيقه وهما يتناقشان منذ الصباح دون توقف، يفطران ويتناقشان، يسمعان نشرات الاخبار فيعلقان قبل ان ينهي المذيع من قراءة الخبر، يعدان طعام الغداء والموضوع الحاضر هو ذاته.

- ولكن لدى العراق اسلحة متطورة كيميائية ونووية كما يقال وهذا يعدل الميزان وقد يردع مهاجميه. قال كنعان

- تلك اسلحة ان وجدت فاستخدامها ليس من السهولة بمكان، فالعراق يعلم انه ان اخرجها من مخازنها فيمكن ان تمسحه امريكا عن وجه الارض. تلك اسلحة للمقاومة، للضغط لكن لا يسهل استخدامها، الوضع الدولي لا يحتمل السلاح النووي.

لم يكونا وحدهما اللذان يخوضان هذا النوع من النقاش، بل العالم باكملة وشعب الوطن ايضاً، وكالعادة الكل اصبح محلاً سياسياً ومعلقاً عسكرياً ولم تكن التطورات ليتوقف تأثيرها على استثارة النقاش بل اثرت على حياة شعب باكملة. الشعب ومحتلوه تعاملوا مع الوطن كساحة حرب محتملة، الناس منهكة بشراء المواد التموينية للتخزين والمواد اللازمة لتجهيز غرف حماية من هجوم كيميائي عراقي محتمل. اما التجار هذا الصنف من البشر المخلصين لدورهم التقليدي كاصوص الظرف الصعب، رفعوا اسعار كل شيء ابتداءً من كيس الطحين حتى الشريط اللاصق لغرف الحماية، فطحن الكادح المطحون اصلاً واعتصر جيبه لآخر قطرة. عربات الباعة تنتشر اينما توجهت، تباع كل شيء باسعار خيالية. البلدية توزع الكمادات الواقية من الغاز ومن نظر لقضيتها باستخفاف في البداية، فما ان اقترب موعد الانذار الامريكي حتى بدأ يفكر ان ليس بنفسه فباطفاله.

في الايام الاولى من العام الجديد، سنة ١٩٩١، وزع الحزب تعميماً توجيهاً داعياً اعضاءه للعمل باتجاهين أساسيين، الأول تصعيد النضال في الشارع ضد الاحتلال والثاني تقديم الخدمات للناس كل في موقعه، ولتسهيل العمل في ظروف الحرب فقد تقرر وبغض النظر عن التركيب الحزبي ان يعمل جميع الاعضاء في مواقعهم معاً كآلية استثنائية في زمن الحرب بحيث يتحول الجميع للميدان!

يتحول الجميع للميدان فأين سيكون كنعان والحال هكذا. النشاط ضمن هذا التصور لا يتسع لمن يندس بين الجدران فهو منذ ثمانية سنين لا يعتبر كمناضل ميدان.

- ان اتخذت الحرب مساراً جديداً من نوع دخول إسرائيل فيها أو حملات تهجير جماعي لشعبنا فلن اظل في وكري بل سأنزل للشارع مع الرفاق والارجح ان تكون وجهتي إلى رفاق الريف.

قرر وابلغ. ووفق على ترتيبه. وكره أيضاً عرف الاستعدادات للحرب. هشام يقوم بحملة تموين لوكره تكفي عائلة ممتدة لشهور! عشرات العلب من الاطعمة المعلبة، لحوم واسماك، فول، حمص، أرز، سكر، ملح، زيت.... ولما جاءت سيارة البلدية توزع الكمادات الواقية على سكان المنطقة التي يقطن بها، لم يخاطر بالنزول لاستلام كمادته، فوجد هشام طريقة لاستحصال واحدة له، اما تجهيز غرفة ضد الغاز الكيماوي فظل حتى قبل ايام من انتهاء موعد الانذار لا يابه بالموضوع رغم قناعته انه يمكن ان تتخذ الحرب مساراً خطيراً. بعد ان جهز غرفته دخل مرة وجرب إغلاق بابها بالشريط اللاصق فضولاً لمعرفة كيف وهو مندس فيها مع زجاجة ماء وعلبة طعام محفوظ وارغفة خبز. أحس بسخافة موقفه ولم يعد لغرفته بعد ذلك.

منذ الحادية عشرة ليلاً من السادس عشر من كانون الثاني سنة ١٩٩١ اندس كنعان في فراشه وتوتر الاعصاب بلغ منه أشده فقد مضى يوم بعد انتهاء موعد الانذار الامريكي والترقب قائم. لم يكن الوحيد المتوتر فالشعب كله يعيش التوتر والترقب لكن حظه العاثر اضاف له توتراً اخر واعدته بايام عصيبة ما عاش مثلها منذ ثماني سنوات. ازداد الالتهاب القديم في قدمه، حدة ويات لا يستطيع السير عليها الا بصعوبة. ما زاد الطين بله ان الالتهاب يكون مصحوباً بارتفاع درجة حرارة الجسم. راسه متقل بالحرارة المرتفعة والهوسات والافكار والتحليلات. ما ان غفا حتى صحا دونما مناسبة عند الساعة الواحدة وخمس واربعون دقيقة صباحاً. دون تفكير شغل المذيع بقربه، كان المؤشر على اذاعة الاحتلال والمذبة بصوتها

الأقائيم الثلاثة - وسام الرفيدي ١٦٧

المألوف تقرأ نشرة الأخبار في وقت لا بث فيه. جلس وأصغى بصعوبة والنحاس يغالبه. كان الهجوم الدموي الهائل على العراق قد بدا فجر السابع عشر من الشهر لهجة المذبة التي تزعم الاستناد لمعطيات المعركة واثقة بطريقة ملفتة للنظر، تم تدمير المطارات و الطائرات، تجمعات الدبابات، منصات إطلاق الصواريخ، نقاط تجمع القوات العسكرية، القواعد المضادة للطائرات ... باختصار لم يبق شيء لم يتم تدميره!! احس بالغضب يغلي بداخله [معقول؟ هل يضعون طيرانهم، دباباتهم، ومنصات صواريخهم على رؤوس الأشجار لئتم اقتناصها وتدميرها من اول ساعة؟ هل تصدق بنت الكلب فتنهزم في ساعات؟ يكون العراق مصر ٢٦٧؟ صدام كعبد الناصر]

كان يتحدث بصوت مسموع وهو يسير متحاملاً على قدميه تجاه المطبخ [لماذا لم يضرب إسرائيل؟] Absolutely Yes [هكذا قال طارق عزيز، متى يفعلونها؟ مصيبة ان كانت كلمته مجرد حرب نفسية!] اكل موزتين، صب حليباً في كاسه وعاد لفرائسه ليستمع لنشرات الأخبار. يدخل بنهم. كل الاذاعات تعزف نفس اللحن الإسرائيلي باستثناء الاذاعة الاردنية التي بثت بعضاً من امل. عند الساعة الرابعة صباحاً كانت الدوريات العسكرية تجوب الشوارع وصوتها يعلن ذلك الامر الاحتلالي المألوف [إلى جميع سكان رام الله يفرض حظر التجوال حتى اشعار اخر!] كان الوطن قد فرض عليه خطراً شاملاً تحسباً لاية أنشطة جماهيرية أو عسكرية ضد الاحتلال وتضامناً مع العراق. الاحتلال هو الاخر تعامل مع الوطن كساحة حرب محتملة.

غيرت الحرب حياة كنعان داخل وكره! ليس هناك مهام يقوم بها ولا لقاءات يعقدها، المهام ميدانية والرفاق كل في موقعه ينفذ مهام مساعدة السكان والتعبئة رداً على الدعاية الإسرائيلية وتأكيداً للشعب ان العراق سيكون عند وعده، وقد ضرب فعلاً فجر الثامن عشر من كانون الثاني ثلاثة صواريخ من نوع الحسين المطورة عن سكود على القدس الغربية. اصبح ينام نهاراً ويقضي ليله امام التلفاز يتابع نشرات الاخبار منتظراً سماع صفارة الانذار، فرشاة على الارض وبجانبه المذياع والتلفاز وسجانه وادويته، ما ان يسمع الصفارة حتى ينهض بصعوبة فيركض احياناً على قدم واحدة واحياناً اخرى يتحامل على قدمه المريضة، يسارع ليصعد الدرجات الستة عشر من باب وكره حتى السطح مستنداً بيديه على الحائط. يتطلع جهة الشرق وهو يفرك يديه انتظاراً وفرحاً وبرداً، بعد حوالي ٤-٥ دقائق كانت تظهر من جهة الشرق تلك الكتلة الحمراء المشتعلة اللامعة داخل فلسطين قادمة من العراق عبر الاردن متوجهة للعمق الإسرائيلي. يتابعها بعينيه فرحاً كمن ينظر لمحبيته تعبر الشارع بعد طول انتظار. ما ان يتجاوز الصاروخ مدى الرؤية

العمودية متجهاً للغرب حتى يظهر ذاك الفاشل المسمّى (باتريوت) ليعترض الصاروخ - المحبوبة فيفشل باعتراضه فيأخذ الصاروخ بالنزول المنحني وما هي الا ثوان حتى يسمع صوت الانفجار الرهيب في تل ابيب، حيفا، رمات غان... ينزل سريعاً قفزاً على قدمه كما صعد ليفتح التلفاز والمذياع معاً ليسمع اين وقع بالضبط وما الخسائر التي حقها والاهم هل حمل غازاً كيماوياً ام لا.

لقد اعتاد الشعب مع الصاروخ العزيز على قلب كل فلسطيني ان يمارس طقسه الخاص به من البهجة والنشوة. شعب باكملة يصعد لاسطح المنازل ياخذ بتحية الصاروخ بالصفير والصياح والتهافت كأنه متسابق في ملعب والشعب جمهوره الذي يحفزه للتقدم وما ان يصيب هدفه ويسمع دوي الانفجار ويرى الضوء اللامع حتى يبلغ الطقس مداه:- زعيق وصياح يهتك صمت الليل ويطغى على صوت المطر المنهمر احياناً مصحوباً بالرعود والبرد. حق للشعب ان يفرح فالمغزى السياسي لضرب العمق الإسرائيلي كان ذا اهمية تاريخية وسياسية كبيرة فمنذ ٤٥ عاماً من الصراع العربي - الإسرائيلي وإسرائيل بمنأى عن اليد العربية فيما عواصم العرب، القاهرة، دمشق، بيروت، بغداد وحتى تونس اصابتها اليد الإسرائيلية المعريدة. حق للشعب ان ينتشي فرحاً وهو يرى الهلع رسمياً وشعبياً في إسرائيل مزاجاً موحداً ابتداءً من ديفيد ليفي وزير خارجيتها الذي اصابه الارتباك وهو يتحدث في بث حي في التلفاز، عندما سمع صوت الصفارة [مازي مازي از عقوت]*؟ وانقطع البث، مروراً بمذيعه التلفاز التي لطمت على خدها عندما سمعت صوت صفارة الانذار وهي تقرا نشرة الاخبار فغنى لها الشبان لاحقاً:

كون نسيتي كمامتك	مذيعه ع سلامتك
لو عالذاعة يفوت	يا حسرة يا ندامتك
ما نفع الباتريوت	توت توت توت توت

وانتهاءً بالمواطنين العاديين يندسون في ملاجئهم وغرفهم المجهزة يرتدون كماماتهم، لذلك لم يعبا الشعب بصاروخ محمل برووس كيماوية! لا أحد يدخل غرفته ويتناول كمامته الكل على الاسطح يصفر، يزقق، يهتف ويوجه الصاروخ كأنه سائقه! يئنه يئنه شد حيلك، اسرع دير بالك، طلع الباتريوت، رح إلى اليمين، إلى تل ابيب، اسرع اسرع. اما تلك العجوز البيرواية فقد قالت لشبكة تلفزيونية عالمية ما كان يقوله شعب باكملة، سألت الصحفي ومشاهدوها يسمعون: ان حكيت يسمعي صدام؟ - يسمعك! تحدثي يا حجة! - هيه يا صدام اضرب ولا يهملك ان صابتنا معهم، اضربهم واضربنا.

لكن مقاومة الشعب سُلت ولم يقو على ممارسة فرحه نضالاً فظهر عجز فصائل المقاومة ومحدودية امكاناتها قياساً بمتطلبات الظروف. [منع التجوال قيد اية امكانية لنشوء نضال حقيقي مسلح وغير مسلح] هكذا قيل!! فلم ترتق جميع الفصائل لمستوى شعاراتها ودعواتها قبل اندلاع الحرب. الثوري لا يبحث عن ظرف مناسب لنضاله فالظروف دائما مجافية على حد التعبير الصائب للثوري الاممي ارنستوتشي جيفارا] هكذا علق المناضلون. في لبنان قام مقاتلو الحزب والفصائل الاخرى وخلال اليومين الاولين لنشوب الحرب بفتح جبهة جديدة في الشمال باطلاق رشقات مكثفة من صواريخ الكاتيوشا، لكن تلك الهجمة لم تستمر اكثر من ٤٨ ساعة وتم اسكاتها من الجميع بما فيهم الحركة الوطنية اللبنانية!

وما ضربت المصالح الأمريكية اينما وجدت!!! فظهر انه شعار خطابي لا يمت للامكانية بصله، اما زجاجة حارقة على مبنى السفارة الأمريكية في روما اعلن الحزب مسؤوليته عنها فلا يمكن اعتبارها كضرب للمصالح الأمريكية الا من باب التندر!

وحده المهندس في وكره كان لعجزه فترة الحرب نكهته. فالعجز سيد الموقف عجز عن المشاركة باي مجهود حزبي وعجز عن السير القويم. كانت قدمه قد ضاقت بصديدها فانفجر الجرح القديم ونزت ما بها. عاجها كل يوم كما تعود منذ سنين؟ يعتصرها، ينظفها ويلفها بالشاش الطبي وعندما ترتفع درجة حرارة جسمه لفق ٣٩ درجة مئوية ينزع ملابسه سريعا ويأخذ حماماً بارداً لتتدنى حرارته ساعات لتعود فترتفع من جديد فيعالجها من جديد بالماء البارد ... وهكذا دواليك. كان يجب ان يزوره طبيب اختصاصي.

- يجب ان تجري عملية جراحية في اسرع وقت ممكن، الركبة بحاجة لتنظيف. قرر الطبيب دون ان يستهلك كبير وقت في الفحص، سمع تاريخ المرض ففهم سريعا.

- لا يمكنني الذهاب للمستشفى فانا مطارداً انتفاضة جد حلالها دون عملية جراحية.

قطع كنعان بلهجته الحازمة اي ترددات من الطبيب. كان يعلم بصعوبة ذهابه للمستشفى بالسرعة التي يريدها الطبيب، على الأقل يلزم ترتيبات أمنية لضمانة سرية الجراحة، وهذا يصعب تنظيمه بسرعة فما بالك بظروف كظروف الحرب ومنع التجوال والافاق المفتوحة لتطور الحرب في المنطقة. لم يحتاج الطبيب، تفهم كما بدا لكنعان فأضاف:

- لا خطورة على قدمك الان ولا لاحقاً، انما يجب تنظيفها جيداً. اخرج منها ما تستطيع من الصديد ونظف الجرح جيداً. سأصف لك دواءً لمدة ٦ شهور وفق نظام محدد فهو دواء قوي عليه يحاصر الالتهاب، خلال ذلك يجب ان تكون جهزت نفسك لعملية جراحية، حسناً؟

أقعه مرضه ليس عن السير فحسب بل وعن القيام ببسط واجبات الحياة، تجهيز طعامه وغسل الاطباق، كان اذ اراد تجهيز طعامه يختاره بحيث لا يحتاج الا لدقائق عمل فيعود للتمدد فالسير الكثير أو الوقوف لفترة طويلة قد يحرك الصديد وهذا سيخلق ازعاجات اضافية. هشام المراقق والسند كان هناك، كلما رفع حطر التجول بعد يومين أو ثلاثة ايام لساعتين أو ثلاثة، يسارع للقدوم اليه يساعده بان ينظف ما يجب تنظيفه، يجلب له طعاماً جاهزاً أو طعاماً أعدته زوجته لطلبة بانسين يشتاقون لطعام بيتي!! كان رفيق لحظة تتطلب الرفيق فتجده هو في الأوقات تلك يقوم مقام عائلة بأكملها! شعر كنعان بالاعتزاز به، بالنقمة على ظرفه، الحقد على عجزه. عاش في أيامه تلك صعوبة المرض اذ يدهم المتخفي الذي يعيش وحيداً، يصبح ليس فقط الماء في عضو ما بل خنجراً في ظهره، يحمله عدوه.

لا يكفي ما أصابه من وحدة الوكر ووحدة غياب اقنومه الثالث، حتى يعانده جسده ايضاً. كان يتدمر وقد تعكر مزاجه فيهدئ نفسه بمتابعة فيلم سينمائي. ما ان يحتاج للتحرك لسبب ما حتى يعود مزاجه السابق تدمره وتكدره. ما فكر يوماً باقنومه الثالث كصانع لكاس من الشاي أو طاه لوجبة طعام يتناولها ساخنة، ما فكر به يجهز له خرق الماء البارد يضعها على جبينه أو يذكره بساعة تناول الدواء عند الفجر أو تنظيف أرضية مطبخ يتسخ دون ان يجد من ينظفه.

كان حتى ولوجه سنته التاسعة يرى اقنومه كما اراده كثوري، انساناً ممسوساً مثله بجنون الثورة والحياة والحب، انساناً يكتشف فيه نفسه، تتلذذ ذاته بمعاشرته، لصورة طيف شعري هو أقرب، كما لو ان الموسيقى صنعت له خصيصاً... انما الحرب وهو يسير مستنداً لحائط أو كرسي تلعب حرارة رأسه بانزاه فيهدئ، كان ينزل باقنومه من ذرى الثورة والحب والشعر والموسيقى إلى دنيا الحياة اليومية المملة، يتمناه يساعده في وظائف البيت التي ملها، يسأله شيئاً يحتاجه، يراه مثل أي امرأة يجدها الرجل المريض امامه. ما فرح لتحويل صورة اقنومه في خياله من لوحة رسمها بريشته متاملاً، راغياً ومحتاجاً إلى امرأة منزل، كان خلال عجزه لا يغيب عن ذهنه كلمات رفيقه ومعلمه محمد قطامش الذي قضى نحبه بعد شللٍ أقعه سنين نتيجة التعذيب وظروف الأسر. عجز المرض قاتل، حتى لينين نفسه لو نام مثلما انا هكذا لمرت عليه لحظات كفر فيها بكل شيء. لم يفهم

الأقائيم الثلاثة - وسام الرفيدي ١٧١

تماماً مغزى هذا الكلام حين سمعه من الشهيد شهور قبل انتقاله لحياة التحقي. ان تسمع عن شيء غير ان تعيشه، تلك بدهية حياتية، الآن، في لحظات عجزه وهو يعيش العجز والألم حتى بأقل كثيراً من الشهيد يفهم تماماً ما عناه بكلامه. تدهمنا لحظات الضعف الإنساني فان صرعتنا كان الانهيار وان صرعتها ننقولد أكثر فاكثراً.

تتبرز ذاته بين لحظة وأخرى كعادتها منذ سنين وكعادته تمرّس على اسكاتها. وايضاً منذ سنين يشتم ويلعن ولكنه سرعان ما ينسى عندما يحين موعد نشرة اخبار أو تقرير اخباري لبيترارنت مراسل CNN أو يأتي هشام مظسهرأ تضامنه ورفاقيته أو ينهمك معه في نقاش سريع حول الوضع العسكري في الخليج، حينها يعود لحقيقته، مناضل العمل السري المتخفي.

شهر مضى على الحرب والوضع محيّر اذ لا معارك بالمعنى العسكري للكلمة، فقط غارات جوية وقصف مدفعي وصاروخي بعيد المدى، للتحصينات والمنشآت العسكرية العراقية في الكويت والعراق. سعد الدين الشاذلي يحلل وخبرة القائد العسكري المحنك تسنده فيبعث على التفاؤل اذ يقول [المعركة لم تبدأ بعد. هذا كله تمهيد امريكي للغزو] ولكن رويداً رويداً يتضح ان امريكا تحارب بتقنية أواخر القرن ٢٠ المطورة، يدوس طياروها على الأزرار من ارتفاعات لا تصلها الصواريخ العراقية المضادة للطائرات ومن البحر الاحمر يدكون بصواريخ كروز الموجهة بالكمبيوتر والرموت اهدافهم بدقة وعندما تستدعي الحاجة فلا بأس عند حماة حقوق الانسان الأمريكيين من قصف ملجأ العامرية بدقة متناهية محاولين زعزعة تماسك الجبهة الداخلية، اما الجنود فهم لا يقاثلون الا كتقنيين من خلف اجهزتهم المطورة فيما العراقيون المتحصنون في استحكاماتهم في الكويت وفي العراق فكانوا يتلقون الضربات منذ شهر ونصف دون ان يقفوا على فرض منطقة المعركة بالمفهوم الذي تدربوا عليه، جيوش واسلحة ودبابات تتواجه في ساحة المعركة بالمفهوم الذي تدرب عليه الجيش، معركة مكشوفة على طريقة معارك الحرب العالمية الثانية ووفق نظرية السوفييت العسكرية في معارك الدبابات، اما على الصعيد السياسي فلا الشعوب تحركت لتزعزع استقرار النظم الرجعية ولا السوفييت تحت قيادة غورباتشوف تحركوا.

اما شعب الانتفاضة فقد سلم اوراقه للقدرة العسكرية العراقية مرانها على انتصارها، ليدخل الفكر السياسي الفلسطيني مأزقه الثاني والقاضي باعتبار العراق بديلاً عن الانتفاضة. مر شهر على كنعان وقد بدا ان حياته في الحرب اخذت نسقها الاعتيادي الطبيعي الخاص بها، كل سلوك غريب ما ان تلوكة الايام يوماً بعد يوم،

اسبوعاً بعد اسبوع حتى يكون الزمن القصير احياناً قد حوله لنمط حياة روتينية، يصحو من النوم عند السادسة أو السابعة مساءً فيفطر، عند الواحدة أو الثانية صباحاً يتغذى، وعند الثامنة صباحاً يتعشى وينام. مواعيد الصواريخ الموجهة لإسرائيل فرضت نظامه الجديد فهي تطلق ليلاً وعليه طبعاً ان يظل ينتظر حتى تزعم صفارة الانذار فيأخذ بالتفافز على قدم ونصف صعداً نحو السطح. هو من الشعب ولن يتنازل عن أي يفعل ما يفعله ولو صعد للسطح لا تقافزاً بل حبواً على اربع.

في احدى المساءات كانت السماء خيرة، امطارها غزيرة وايضاً ضبابها كثيف في اجتماع نادر بين المطر والضباب، صعد للسطح باقصى ما تمكن من سرعة بحيث لم يلحق ان يلبس كنزته الصوفية ووقف يتطلع للشرق ويندري نفسه عند باب السطح من المطر ودون جوارب تقي قدميه من السطح البارد. لم يظهر الصاروخ-المحبوبة في موعده: اين ذهب؟ كان يجب ان يظهر؟ هل يكون الانذار كاذب؟ وهل تاه عن طريقه؟ [بعد فوات موعده بدقيقتين سمع دوي الانفجار فخرج تحت المطر يتلفت إلى مختلف الاتجاهات فلمح ومضة سريعة من جهة الجنوب. كان الحسين قد توجه هذه المرة للقدس وما لمحها! شتم كل ما تذكره حينها وعاد منكسراً واندس في فراشه بعدما بدل ملابسه المبتلة ورعشة البرد تلسعه.

كان يأكل وهو على فراشه على الارض وتقليلاً لتحركه عاش اسبوعاً يتغدى على السمك المملح الذي يمكن ازدراره بارداً فالتذ وارتاح! استمتع بفلمين للمخرج الايطالي العالمي فيليني واستعراضات بني هيل اليريطاني الكوميديّة وان لم يسعفه حظه مع التلغاز فيبعث بالمذبايح محاولاً التقاط عبد الحليم، عبد الوهاب، فيروز ...

- يريدون بدخولهم من هذه الجبهة ان يقطعوا عليه خط الانسحاب الذي كان نفذه تحت ستار دخان النفط المشتعل قبل ان يعلن عن عزمه الشروع به. الهدف سحق القوات العراقية، في الكويت يلاحقون القوات المنسحبة من خلفها ويهاجمون مسيرتها من جهة السعودية، أنها الكماشة. قال رفيقه الذي جاء لزيارته معلقاً على حركة القوات الامريكية القريبة من الحدود مع العراق.

- هل سيخاطر الامريكيون باجتياح العراق؟
- المسألة هنا تختلف فهذا احتلال حتى شيعة الجنوب بتقدير يتصدون للاجتياح، والمنطقة مناسبة لحرب عصابات سيغرق في وحلها الامريكيين. لسارض العراقية في الجنوب طبيعة مناسبة. الامير حسن لمّح إلى ان تطورات الحرب
الأقائيم الثلاثة - وسام الرفيدي ١٧٣

ستأخذ ابعاداً اخرى ان جرى اجتياح، ومضر بدران استخدم صراحة مصطلح حرب عصابات، لكن المهم هل تم تدريب الجيش الجمهوري المتمركز هناك على أشكال حرب العصابات والياتها، هل يجري تسليح وتعبئة الشعب بهذا الخيار؟ حرب الشعب سياسة شاملة على كل المستويات وعلى كل جبهات المجتمع.

- بتصوري ان الامور لن تأخذ هذا المنحنى والا لماذا لم يترك العراق بضعة الاف من مقاتلي القوات الخاصة مثلاً في الكويت العاصمة لممارسة حرب المدن ولو على سبيل ارباك الامريكيين وايقاع الخسائر بهم فهذا يضعف معنوياتهم ويحرك جبهتهم الداخلية. الكويت العاصمة، واسعة جداً، اوسع من بيروت فلماذا لم يترك فيها جيوب مقاومة؟ هل صعوبة القتال وسط شعب معادي مثلاً؟

كانت الافكار، الاسئلة، المجاهيل كثيرة لكن ما هو واضح، ان العراق تعرض لضربة عسكرية انهكت قواه واعادته سنيماً للوراء وستترك تأثيرها السياسي على مجمل المنطقة العربية لصالح زيادة العربة الأمريكية - الإسرائيلية. هزم المشروع العراقي ولو إلى حين ويبدو للوهلة الأولى انه طويل.

انتهت الحرب فانسحبت من بيته تفاصيلها المرة كما ظهرت اخيراً وبقيت هزيمتها، انتهت وانسحب الفرع ليحل محله الاحباط ويكاد لحظة الانسحاب. الصاروخ القادم من الشرق، تقارير بيتر ارنست، تبادل الليل والنهار لمواقعهما ووظائفهما، المفردات العسكرية المرادفة للحرب، الحسين، باتريوت، صفارة الانذار، منصات الصواريخ ... ما بقي منها سوى التحدي العراقي لأعتى قوة عسكرية في العالم تجمعت ضده، وانكسار وتحطيم بنية لا باس بها جرى بناؤها خلال عشرين عاماً. بقيت ذكرى عزيزة، ذكرى ضرب العمق الإسرائيلي بالصواريخ بقي حفنة من الرهانات والتكتيكات السياسية الخاطئة، عجز الفصائل والشعب عن اسناد العراق في حربه. انسحبت مع الحرب التهابات قدمه وصددها أو ضعفت كثيراً فعادت له حيويته، اما الشعب الذي وضع رهاناته كلها في العراق ونتيجة لتعلقه بروح التحدي وبالصواريخ تذك ذلك تل ابيب، حيفا، والقدس فقد انكسرت هو الاخر انتفاضته وبدأت تتراجع بحدة في مظاهرها باستثناء المجموعات المسلحة.

يلتقط الامريكيون هزيمة تلك المحاولة العربية لتحسين شروط الموقع في السوق والخرطة الدولية فيسارعون ليس فقط لتأكيد سيادية سياسية بعدما اكدها بقوة الحرب والسلاح بل وليجنوا ثمار تلك السيادة مشروعاً لحل القضية الوطنية

مفصلاً على مفاص مصالحهم ووفق رغبات إسرائيل القديمة وبرنامجها، برنامج الحكم الذاتي. جاء جيمس بيكر وزير الخارجية الأمريكي في آذار سنة ١٩٩١ يحمل مشروعه الذي يخترق به البرنامج الوطني والانتفاضة. تلقت قيادة م.ت.ف المشروع وواعزت لرموزها في الوطن للقائه، فيما رفض الحزب ان يشارك فزادت هذه الخلافات من حدة الانقسامات داخل م.ت.ف والانتفاضة وبدا ان مرحلة تاريخية جديدة تلوح في الافق.

في الحزب كانت في صفوف الكادر والقيادة تزداد النقاشات اصطخاباً. التطورات ما بعد حرب الخليج، الازمة المستعصية في الاتحاد السوفيتي والتي باتت تهدد مستقبله وبعدها وقبلها انهيار الاشتراكية في أوروبا الشرقية، انهيار النظام الرسمي العربي وهزيمة العراق، اعلان قيادة م.ت.ف توافقها مع السياسة الأمريكية، ضعف وتراجع الانتفاضة المتزايد وتحديداً لجهة المشاركة الشعبية نتيجة ديناميكتها الخاصة والاختراق السياسي، واخيراً عدم رغبة بعض الفصائل وعدم قدرة الاخرى، اليسارية تحديداً، على إعطائها الدفعة اللازمة بتصعيد فعاليتها ضد الاحتلال. كانت ككلها عناوين تنذر بان مرحلة جديدة آتية وصعبة، واليسار على اعتاب مهام وطنية وتاريخية ستختبر دوره وامكاناته وقدرته على لعب دور البديل لليمين السياسي.

كان الحزب يصطخب بالنقاش فيما اكتشف ان مشروع القوة الأولى الذي لعب دوراً هاماً في تحفيز النشاط وزيادة العضوية [بلغت سنة ٩٠ ٨٠%] وبناء منظمات حزبية وجماهيرية جديدة واقتحام آفاق اخرى في العمل [اللجان السياسية، بناء منظمات للمهنيين، تطور اعلام الحزب، انتظام الجريدة السرية كنصف شهرية]، اكتشف ان هذا المشروع بعيداً عن ان يكون مشروعاً للتنفيذ العملي بعد اختباره لمدة ٣ سنوات من جهة ونتيجة مستوى التراكم من جهة اخرى، ناهيك عن جملة اسباب موضوعية اخرى، ولكن كل تطورات قوة الحزب رسمت التصنيف الجديد للوطن باعتباره جناحاً حزبياً فيما الخارج جناحاً اخر وهذا كان بطبيعة الحال/ أو لنقل من المفترض ان يلقي بثقله على الترتيبات لعقد المؤتمر الوطني الخامس والذي تقرر في نهاية سنة ١٩٩٢ سواء من ناحية مشاركة الوطن بمندوبيه أو بمشاريع القرارات أو بالتركيب القيادي الجديد للحزب الذي سيكون على جدول اعمال المؤتمر. ناقشت منظمات الحزب في الوطن مشروع البرنامج الذي يصاغ لأول مرة كما جرى طباعة مشروع التقرير العسكري وكان هذا يعكس الازمة التي يعيشها الحزب بشكل واضح، ازمة تعمقت اكثر نتيجة عدم القدرة على اطلاق حركة عصابية سرية مسلحة في الوطن نتيجة مستوى التركيب التنظيمي

والجماهير غير الكافي من جهة ولطغيان الهم السياسي على نشاط الحزب من جهة ثانية، ولا اعتبارات اخرى تتعلق بالحزب خارج الوطن ... كل ذلك افقد مشروع القوة الأولى إمكاناته بل قل اظهر بعضاً من عدم دقته كشعار، كما كان واضحاً انه دون الحركة العصابية ليس هناك ما يمكن من تحويل المشروع إلى حقيقة سياسية.

كنعان كان جزءاً من الصخب الدائر. شرع يفكر بالترتيب الخاص لايفاده للمؤتمر كاحد مندوبيه، كان ينتظر بلهفة نجاح ترتيباته ونجاحه بالوصول، يشارك في المؤتمر، يحمل هم الوطن ونضاله وتجربته، يلتقي قيادة الحزب فيكتسب ابعاداً جديدة واخيراً ينال قسطاً من الراحة يمتد لشهور يعود بعدها لمواصلة الاندساس بين الجدران كمناضل محترف في مرحلة باتت صعوباتها تظهر منذ مطلع التسعينات.

احدى صعوباتها تلك كانت تكمن في انهيار وازمة نموذج الاشتراكية المحققة. منذ عرف طريقة لفكر اليسار الماركسي كان يلتهم كل ما يقع تحت يديه من كتب ودراسات ومجلات حول الاتحاد السوفييتي والاشتراكية. تأسس هذا الهم للمعرفة الاشتراكية في سنوات الشباب المبكر في اواسط السبعينات في السجن، وتنامى اكثر فاكثر في حياته السرية، اذ لا ينقص الوقت ولا التعلق بالقراءة كعادة - مرض منذ كان في المرحلة الاعدادية.

أما بعد تسلم غورباتشوف للامانة العامة للحزب وجملة مواقفه وتصريحاته وخطبه فقد اشتدت الرغبة بمتابعة ما يجري. لم يكن الحزب ليغلق باب النقاش أو حرية التفكير. برنامج الحزب ونهجه الايديولوجي واضح ولا ينبغي خرقه، ومن يختلف معه فليبحث عن خيار اخر، ومع ذلك فان كادر الحزب وان تربى على منشورات المدرسة السوفيتية بشكل كبير الا ان الحزب شجع في محاورات ثنائية وفي برنامج، التنقيف المتنوع، قرا للكثيرين من المنظرين الذين اختلفوا مع المدرسة السوفيتية في الماركسية [جورج لوكاش، انطونيو غرامشي، ليون تروتسكي، ماوتس تونغ، جيفارا، مهدي عامل ...] وتابع بانتظام، تخدشه احياناً الحياة السرية وممكناتها، دوريات عديدة [كالنهج، اليسار العربي، الطريق، الثقافة الجديدة، قضايا السلم والاشتراكية ...]. لم تكن القناعة بالاشتراكية لتترزع من قلبه وعقله كخيار تاريخي للكادحين، ولكنه كان يرى نقد واقع الاشتراكية المحققة شيء والسير بخطى حثيثة من قبل قيادة غورباتشوف لاستبدالها بالرأسمالية شيء آخر.

تفهم تشخيص غورباتشوف لواقع الحزب وعلاقته بالدولة، للديمقراطية، لتسيّد العامل في المصنع ولكنه لمحّ مغازلة غير مبدئية للرأسمالية في شطب مقولات (الثورة) "الصراع الطبقي" ! كان يقرأ ويقرأ كل ما يقع تحت يديه حول ما يجري في الاتحاد السوفييتي والمنظومة الاشتراكية. في سنة ١٩٨٩ قرأ كتاب تروتسكي الأبرز "الثورة المغدورة" فوقف على العبقرية الفذة لهذا القائد والمنظر الشيوعي الذي كتب في الثلاثينيات توقعاته لمستقبل الاشتراكية بعد تحليل نشاتها ليحدث في الثمانينيات والتسعينيات ما توقعه تماماً؟ اختلال العلاقة بين الثلاثي "الحزب، الدولة، الطبقة"، التركيم الاشتراكي، الحصار الرأسمالي وما سيقوده ذلك من مركزة شديدة، استنشاء البيروقراطية، انتفاء ديمقراطية الشغيلة الأمر الذي سيشعر العامل بأنه غريب عن إنتاجه لصالح سطوة بيروقراطي من راس الهرم "الدولة" حتى أسفله "مدير المصنع"، انه من امهر الكتاب الذين تمكنوا من أن يقرأوا المستقبل الاشتراكي عبر تحليل تناقضاته. ذات العام قرأ ثلاثية اسحق دويتشر حول بروتسكي (النبي الأعزل، النبي المسلح، النبي المنبؤ). كان يدرك ان اشتراكية مطوقة ومحاصرة في العشرينيات والثلاثينيات وتسعى لإحداث نقلة نوعية سريعة في الصناعة والزراعة تجعلها قادرة على مواجهة مخالب الوحوش الرأسمالية، اشتراكية كهذه لا يمكنها الا ان تمرکز في يدها جهاز دولتها وكل شيء لتحقيق بناء سريع للقاعدة الاقتصادية للاشتراكية وهذا سيقود حتماً لنظام سياسي تنتعش فيه البيروقراطية بسرعة نتيجة المركزة وتهتمش كذلك الديمقراطية فالدولة التي في حالة حرب وحصار لا أحد يطالبها بديمقراطية نموذجية. لذلك كان يحمل من جهة الإعجاب بشخصية ستالين رجل العمل السري والقائد واللاحق للتجربة الاشتراكية التي تمكنت ليس فقط من بناء نموذجها بل وهزمت الوحش النازي لكنه من جهة اخرى ما تقبل تسلطه وطغيانه الذي وصل حد إعدام قادة تاريخيين للثورة والحزب كتروتسكي وبوخارين ووصفهم كعملاء وتعليقهم على المشائق مع ثلثي أعضاء اللجنة المركزية ... كان يقرأ ويقرأ ويكون وجهة نظره الخاصة فيما جرى وقناعته تتعزز يوماً بعد يوم ان لا بديل عن الاشتراكية التي ستحدد التجربة التاريخية للبشرية نموذجها الأفضل.

كان الحزب في الوطن موحداً بالأجمال حول موقف موحد عكس نفسه على تعميم للمكتب السياسي صدر في كانون الأول سنة ١٩٨٩ خاص بمعالجة سريعة للازمة في الاتحاد السوفييتي فسجل التعميم نقده الصريح للسياسة الخارجية وتساؤلاته حول مدى خدمة إجراءات قيادة غورباتشوف للاشتراكية. ■

الفصل العاشر



الفصل العاشر

- انك تملك مزاجاً مرحاً، تغني مع شيخك طرباً، تدندن وتنقر على الطاولة فرحاً مع أغنية أجنبية، تمزح وتروي النكات، ذلك جيد، جيد جداً بعد دخول سنتك التاسعة متخفياً بين الجدران، بعد الصعوبات التي تكالبت علينا منذ فترة، يبدو عليك الارتياح.
- قال رفيقه الذي زاره في أيار سنة ١٩٩١ يفتتح حديثاً فجائياً فيما كنعان يقطع حبة بندورة.
- ربما تلك طبيعتي فمزاجي بالاجمال يميل للمرح وربما بذلك اكتشف طريقي لهزيمة قسوة الحياة والتجربة وصعابها. اتدري أحياناً استغرب من نفسي فكيف املك تلك الطاقة على ان أكون مرحاً رغم قسوة التجربة؟ أنا ملتزم بالقاعدة الذهبية للانتفاضة [الهجوم خير وسيلة للدفاع] اهجم بالمرح والمزاح على صعوباتي دفاعاً عن نفسي من ان تصرعني. أن نبتسم في وجه الصعوبات يعني ان نهزأ بها وذلك مقدمة لهزيمتها!
- معقول، معقول تلك وسيلة جيدة، قل لي هل تشتهي شيئاً ما؟ ما أكثر ما تريد بعد سنواتك تلك؟
- ان اجلس على عتبة بيتنا وبصحبتى كأساً من الشاي، وسيجارة وفي حضني الصغيرة الحلوة [طبعاً لم تعد صغيرة للأسف، استدرك يحدث نفسه بصوت مسموع]. اجلس واراقب المارة، أي ان اجلس جلسة عجائزية نموذجية! هذه العادة الشعبية السيئة أتمناها فعلاً.
- مطالبك متواضعة جداً يا رفيق ولكنها مستحيلة، مستحيلة جداً. هكذا هو الاختفاء، يسجل المطالب الإنسانية البسيطة في خانة المستحيل. على العموم حسبك ستتحدث عن شيء آخر، عن المطلب الأكثر انسانية. قالها وغمز بعينه مبتسماً ابتساماً ذي معنى ادركها كنعان.
- مطالبي الأكثر انسانية تلح عليها ذاتي وبصعوبة أحرصها فلا تنكرها بها، لا تدعها تنقوى عليّ، دعنا منها.
- رد عليه وهو يتطلع لرفيقه بنظرة كانت تقول "دعك يا رفيق".
- اقنومك الثالث بصر أن لا يظهر.
- ديني انتصب على قائمين وانتهى. اقنومين وانتهى. انه عكس "دست" اللحم الذي يحتاج لثلاثة. دعنا من ذلك.
- هل تخطر مني على بالك أم انزاحت نهائياً.
- الماضي والتاريخ لا ينزاحان! بقيت لها صورة مشوشة، نتف من ذكريات، ضحكات ومشاحنات وهمسات ... نبيذ في ساعات الخلوة وافتار الأثارة في

- ساعات الصباح. لكنني لا احلم بها مثلما لا أتنازل عن مكونات تاريخي وشخصيتي وهي من هذه المكونات.
- هل خطر في ذهنك ... اعني هل تفكر بمستقبل التجربة.
- تطلع كنعان لرقيقه باندهاش فيه حيره.
- هل قرر الحزب استجوابي؟ ما قصتك معي اليوم.
- ضحك رقيقه ملء شذقيه وفتح الثلجة وتناول حبة بندورة كبيرة
- كل ما هناك انني اريد ان اسمع ما يدور بخاطرك، هل فكرت بمستقبلك كمتخف؟
- وهل ينقصني الوقت كي افعل؟
- كان أنهى تقطيع حبة البندورة، وضع السكين على الطاولة، وازاح الصحن جانباً وتطلع إلى رقيقه الذي يقف عند الثلجة يقضم حبة البندورة الكبيرة بنهم، وتابع
- اسمع لا ارى سوى اربعة احتمالات، اما الاعتقال واما ان ننجح باقامة دولتنا وأنا حي فاتحرر من بين جدران علماء ان الدولة ابتعدت كثيراً. واما ان اقول "تعبت تدبروا امركم معي" أو تقولوا "احزم امتعتك سنرحلك لا نستطيع حماية تجربتك بعد" واخيراً يبقى احتمال ان اموت بين الجدران لسبب ما.
- الاحتمالات الثلاثة الأولى معقولة، دعك من الاحتمال الرابع.
- لماذا؟
- لا استطيع نقاشه بل لا استطيع حتى سماعه ولا تتحدث معي عنه. دعه جانباً.
- لكن كنعان كان ركب رأسه:
- انه احتمال ويجب ان تاخذه بعين الاعتبار.
- كان رقيقه انتهى من قضم حبة البندورة فقال جازماً.
- لن اخذه وكفى!
- أنت حر ولكنني آخذه وافكر به. بالمناسبة كانت تملكته الرغبة بالمناكفة!- هل سأعامل معاملة الشهيد ان مت ميتة طبيعية في تجربتي هذه، ذبحة صدرية مثلاً أو بسرطان يغزو خلايا دماغي، هل تنتشرون بين الجماهير ملصقاً وتكتبون تحته "المجد والخلود للرفيق الشهيد كنعان صبحي!"
- دعك من المزاح فمزاحك هذا يوتر اعصابي. كيف ترى تحملك لسنين قادمة في التجربة.
- جلس كنعان على كرسي، اشعل سيجارة وظهرت الجدية على ملامحه.
- سأتحمل وبإمكان الحزب ان يثق بذلك فقد اعتدت الانتماء للاختفاء كحياة مع انه خيار نضال لا خيار حياة. اخشى ان لا استطيع مفارقة الجدران يوماً - وايتسم- يعني تعودت على لعنه الوالدين هذه. بت اخشى انني اعشق حياتي هذه كما لو أنها امرأة احلامي.

كان مزاجه يخفي حديثه. ملامح وجهه قالت ذلك، رفيقه يعرفه ويعرف ما يقوله من خلال كلمات السخرية. وجمل المزاج. واكمل:

- لا رومانسية في النضال ولا رومانسية في هكذا حياة بل حرمان وقسوة وتحدي، طبعاً الحياة هذه ضرورة لا متعة وتعرف موقفي هذا فقد سبق وتناقشنا به، انما لنقل حوعل نفساً طويلاً من سيجارته- التجربة عدت جزءاً مني وأنا جزء منها، هي أنا وأنا هي بالضبط كما خاطب الصوفي الكبير، الخلاج خالقه! [أنا أنت وأنت أنا كلانا روحان حلا في جسد واحد]! لا اتخيل نفسي دون حياتي هذه اللعينة بكل ما في الكلمة من معنى. ربما تتعبنى صحياً وربما تترك لدي تشققات نفسية لا اعرف ما هي ولكن ان اضطررت لتطبيقها فلن افعل الا بحلول عام الالفين وبضعة ايام وليس قبل ذلك.

كان يتحدث عن تجربته الآن ناطقاً بمراس تسع سنوات من المعاناة والنضال والقسوة والمهام سنوات شكلته ومضت!! اين حديثه الآن عن حديثه في شهوره الأولى.

- ستعتاد!

- كيف؟ انتم لا تعرفون عما تتحدثون، كسيف اعتاد على اللاحياه؟
- بل نعرف اكثر منك. تجربة الجماعة اكبر من تجربة الفرد. سيمضي ذلك ولن يبقى في الدار غير حجارة، ستذكر ما تقوله الآن وتضحك. كن رجلاً وتحمل.
اعتاد وهو ينطق الان باسم ما حفرته في نفسيته وعلى جلده لا باسم تردده وضعفه وذاته المهتاجة. كان الحزب يعرف الكثير والكثير، كل ما عاناه، كل ما ارتسم امامه في سنيه كان الحزب توقعه. الجماعة دائماً تملك تجربة اكبر من الفرد. تحمل كنعان وتحمل اعواماً ثمانية مرات وها هو يقتحم التاسعة متحدياً قسوتها ومنتمياً لساعاتها وايامها التي سيعيشها نضالاً وتحد كما الاعوام التي قبلها.

وعامه التاسعة منذ مطلع حافل، الازمة مستحكمة في بلد الاشترابية الاول، حرب طاحنة وهزيمة عسكرية للعراق، عريضة امريكية على المنطقة، مشروع بيكر، م.ت.ف على اعتاب انشقاق... ضحك وضحك مراراً على نزقه وخفة سلوكه وتعبيراته المتوترة التي كان يقذفها بوجه من يحدثه، يخطها على صفحات رسائله المرفوعة للحزب، تحمل حتى بات يجزم انه لن يطلق حياته ان قدر له ان يطلقها الا بحلول عام الالفين وبضعة ايام وليس قبل ذلك.

- ولماذا الالفين؟ ولماذا بضعة الايام بعده؟

سال رفيقه بدهشة وعلانم تساؤلاته بادية على وجهه.

- الالفين مناكفة بالشيوعي المزيف غورباتشوف القائل "خطة التنمية الاجتماعية الاقتصادية الاستراتيجية حتى عام الالفين"، لانجاز ما اسماه اعادة بناء

الاشتراكية. النتيجة ما ان مضت خمس سنوات حتى دمر الاشتراكية ومهد الطريق لعودة الراسمالية. أنا بالمقابل وتأسياً به ولكن على النقيض منه وضعت خطتي الخاصة بي خطة التخفي والحياة السرية حتى عام الالفين وبضعة ايام، لتأكيد تجربة حزبية ثورية لبناء نموذج سري.

- ولماذا بضعة الايام بعد الالفين؟
سال رفيقه بتعجب وابتسامة على وجهه نشي بفرح داخلي لا مخض سرور عابر.

- حتى اقول لمن يسال "متى اختفيت؟"، اختفيت في القرن الماضي العشرين وانهيت الاختفاء في القرن الواحد والعشرين. اليس ذلك مغريباً ويستحق التضحية؟

كان عاد سريعاً لمزاحه الذي يخفي وراءه حديثه. بدا منتشياً وهو يتحدث عن (قرنيه) كأنه ينطحها برأسه، بارادته. القى بالسيجارة بعد ان وصلت جمرتها كالعادة لعقبها فأسعته!

- ذلك مغر ومغر جداً، يعني ستكون امضيت ثمانية عشر عاماً فاية تجربة؟ ستكون عندها جاوزت الاربعين اليس كذلك؟ [هز رأسه كنعان موافقاً] ولكن اين اقنومك الثالث من خطتك؟

- لعنة الله على اقنومي الثالث وعلي عندما اعلنت ديني الثالوثي - ثالوثي المقدس. دعنا منه، الا تشتم رائحة الملوخية بالثوم المقلي تعبق؟ تذكر اقنومي الثالث يفقدني شهيتي وتلك كارثة، فالملوخية مع فلفل حريف يا رفيق زينة الحياة الدنيا خاصة عندما تكون من القطفات الأولى.

- ستحل قضيتي، اعني اقنومك يوماً ما. بعد الاكل نتحدث اذ لدي ما اقله، علق رفيقه بتعاطف ظاهر واكمل وهو يبتسم.

- وان لم تحل القضية تترهبين- اليس لديكم نظاماً للرهبنة؟

- الرهبنة تصلح لمسيحي تمتلك عليه الحياة الاخرة حياته فينتمي للمسيح، اما أنا فماركسي هل نسيت - وابتسم- تمتلك علي الحياة الدنيا حياتي، فانتمي للثورة. اما بخصوص المستقبل- هز رأسه مع ابتسامة ساخرة لا مبالية- فالجملة قالها الحزب قبل تسع سنوات عندما اختارت منى صاحب المركز بديلاً لرجل النضال "لا تبتئس فالمستقبل امامك واسع!". لقد وجدته يا رفيق اضيق من ثقب الابرة. باختصار أن حلت قضية اقنومي الثالث فساكون اكملت ديني ومضى للطنجرة- واخذ يحرك الملوخية بمغرفة خشبية. وان لم تحل فساغني مع ام كلثوم ما نظمه أبو فراس الحمداني "اذا مت ظمناً فلا نزل القطر"، وساعتبر كل الاقانيم الثلاثة في العالم وكذا نون النسوة وتاء التانيث معادية ومتامرة ضدي وسالعتها ليوم القيامة وبالنهاية يمكن العيش مع دين غير مكتمل.

قال جملة الاخيرة باستسلام باد لظرفه الذي حرمة من اقنومه الثالث وحمل
الطنجرة قائلا:-

- والان دعنا نتعشى اما بعد العشاء فساتحفك بعقباي المفضلة "تماري" مع
"بلوطة" مقلية بزيت الزيتون البلدي. امي خير من يصنعها، علمتي اياها السنة
الماضية.

- عظيم - قال رفيقه وهو يمس شفتيه- ملوخية وبعدها تماري يعني "سنرتكب
مجزرة" على حد تعبيرك! انسب شيء لك ان تحافظ على مزاجك المرح فأنت
تحتاج اليه، كل ما يحيط بك، كل ما تعانیه يتطلبه فعلا. دعنا نتعشى، لاساعدك!
لم ياكل بشهية ولم يرتكب مجزرة! لم يتلذذ بزينة الحياة الدنيا ولا بالتماري
على طريقة والدته! حديث الاقنون الثالث طرد شهيته، كان مزاجه قد تعكر.

موّت على نفسها جيدا خشية ان تراها ساكنة البيت الملاصقة لوكره فقد
كانت تعرفها وتعرفه ايضا. ذات التمويه التقليدي، مندبل يغطي الراس وبعضا من
جنبات الوجه، ذات النظارة الشمسية الغامقة. ما ان نزلت من سيارة هشام وشرعت
بالسير في الممر المؤدي للباب الأول حتى خفضت رأسها زيادة في اخفاء وجهها.

منذ مطلع العام وهي تلح على هشام ان يرتب لها لقاء وهذا لا يرد الا بما
اتفق عليه مع كنعان، كلمات صماء لا تراعي رغبة الام الجامحة لرؤية ابنها
[مشغول ولا يستطيع استقبالك، يعث بسلامه لك، ان اردت ارسال أي شيء ساخذ
معي ...] تبعث بصررها ولا يكفيها، تطلب عناقه وقلبها شان قلب اية ام لا يعرف
الا التوجس والخوف عليه، حتى عندما تقرح له لسبب ما فيسارع قلبها ليعود
لطبيعته المتوجسه خوفا من ان يزول فرحها بسرعة! [منذ اربع شهور لم اراه قلت
الحرب وقلت معقول صعب في الحرب، الحرب انتهت منذ شهرين، الا يتوقف
الحزب والشغل ٤-٥ ساعات؟؟؟] سؤال منطقي ودامع. لا تعلم انه لا يرغب ان
تأتيه وقدمه لا زالت تعاني من بقايا الالتهاب ومشيته عرجاء. سريعا ما تستسلم
[طيب سلم عليه ومر بعد الظهر عندي بحجة انك تريد كتاب من المكتبة وساعطيك
بعض الاغراض. ساعد له ورق عنب مع الدجاج فمنذ زمن لم ياكله، هل اجهز له
زجاجة عصير جزر من اجل عينيه؟؟. السوق مليء بعصير الجزر، ساشترى له،
قاطعها] [بلا سوق، بلا هم، عصير السوق لا ينفع] قررت والتزم.

دلفت الباب الثاني فتلقت رأسه تشبع شفتيها تقبيلاً لخديه، هشام عبر خلفها
يحمل كيسا.

- متى اعود اليك؟ عند الواحدة كالعادة؟

- لا. تعال عند الثالثة، من زمان لم آت هنا.

خرج هشام وشرعت بالعمل. فتحت الكيس وبدأت باخراج محتوياته.
- خمسة شهور بدون لقاء؟ كل هذا شغل. يلعب الشغل ويومه. كان التوتير يادياً عليها.

- كيف صحتك؟ قدمك كيف، وكيف معدتك؟ طبخت ورق عنب، منذ زمن لم تأكله ها؟ احضرت "ملايت" افطر عليها مع جبنة بيضاء وشاي، هذا نعناع بلدي من عندنا، المرة القادمة ساجلب لك اقراص زعتر بلدي. دع هشام يشتري لك زعتر بلدي وفته مع الجبنة وضع عليه زيت، قال لي هشام انك لم تشتري جبنة طازجة حتى اليوم، جلبت لك قرصين..

كعادته اما يهز رأسه مجارياً أو يبتسم متعجباً ومستمتعاً أو يعلق تعليقاً سريعاً وهو يستمع إلى استجواباتها وتوجيهاتها وزجرياتها وتذمراتها من غذائه وحول غذائه، عمن ورطه في السياسة، من حياته بين الجدران وخلفها، من عدم زواجه... تراجعت كثيراً في كل ذلك ولكنها لم تتوقف، في داخلها يستمر الغليان، تتقلب معها وهي تتقلب على فراشها كل ليلة، أو تتحرك معها في البيت فتذكره في غرفة نومه، مكتبه، عند الطعام... غدت هي الأخرى واحدة من مفردات وكره وحياته، مفردة لها كل المهام التي لا يضاهيها بديل في العالم! تسافر لامريكا شهوياً وتعود فتعود صلتها في حياته، فيحيا ما قبل سنة ٨٢ فينتعش قلبه ومزاجه عند لقائها ثم تسافر من جديد وتعود وهكذا منذ تسع سنين، كلما غابت عنه احس بوطأة الوحشية لافتقادها وما ان تدخل بيته حتى يخرج من حياته السرية لينتقل لمملكته، بيتها القديم، ما ان تعود حتى يكتشف أنها كبرت سنوات في سنه أو بضعة شهور تروح وتجيء فتعود تمارس عاداتها السرية في لقائها معه، في اخفاء خروجها من البيت، في اخفاء امره عن اشقائه. اخذت تفهم قواعد السرية في حياته - اين مناسب ان يقيم؟ كيف يتحرك من بيت لآخر، ما الوسائل التي يستخدمها في تنكره عند الانتقال أو القيام باتصالات مع اناس لا يريدون ان يعرفونه...

البساطير والأحذية الرياضية لا تزال تجوس بيته، تعبت بمحتوياته الغرفة بجانبه، غرفة الماكينات وهو يتذكر رفاقه، امه. سمع فجأة الصوت الناتج عن تمزيق قماش بسكين حادة، ينغرس السكين ثم يسحب فيمزق فينتج ذلك الصوت الذي يوتر الأعصاب. الصوت قريباً منه، ادار رأسه يمينا للقدر الذي يمكنه من ان يرى ما يجري بقربه. كان بؤبؤ عينه اليمنى يجاهد ليرى ما يجري. البسطار الذي يقف عند رأسه لاحظ حركة راس كنعان، تحرك البسطار حتى لامست مقدمته خده الايمن فضغط ليعيد الراس لوضعه السابق كانت السكين لازالت تعمل تمزيقاً. [الانتظر ساكناً حتى يرحل، يجب ان ارى ماذا يفعل الحذاء بسكينه]. رحل البسطار

فعاد كنعان وادار رأسه لليمين من جديد. البؤبؤ بات يرى ما يجري، حذاء رياضي ينحني على الاريقة الطويلة في الغرفة، ويد مدرية تعمل تمزيقاً في قماشها وتنبش محتوياتها تفتيشاً وبحثاً امتعض وأحس بالسكين تمزق أحشائه، رآهم يمزقون بسكينهم الحادة يوميات حياته التي ما توقفت الا منذ ثلاث ساعات. هنا كان يجلس ويتابع التلفاز بعد العاشرة عندما يكون نقله لهذه الغرفة لا لسبب معين سوى الرغبة في تغيير نسق الحياة الروتينية التي يعيش. على هذه الاريقة كان "يعتسل" بعد الغذاء يوماً لساعة واحدة بوضعية لم تتغير لسنين. عليها كان يجلس واوراقه معه ليقرأ ويكتب لساعتين أو ثلاثة دون ان يمل... هنا على هذه الاريقة الواسعة الطويلة والتي تمزق السكين قماشها... وتتهد! بدأت ذكرياته ترشح، فعل التمزيق كان كدلو ينتشل ذكرياته من بئر ماضيه القريب، القريب جداً ويدلقها على حاضره المطوق بالبساطير والاحذية الرياضية والملوث بدماء تسيل من حاجبه ويديه المدميتين. لم تعتق احداث ماضيه هذا حتى تغدو ذكريات بمعنى الكلمة! لم يلحق ان يمر عليها الزمن عابراً فيسدل ستارته لينتزعها كنعان بين فترة واخرى ويسميها ذكريات! كان لا يزال يحيا احداث ماضيه القريب. قبل سويغات فقط قضمت اضراسه ولاك لسانه وازرد اخر ما يذكره باسابعه الماضية بذكرياته القريبة جداً.

لماذا فعل التمزيق بالذات؟ اهذا وقت الاحساس بالتمزق؟!

انتحبت ذاته رفيقه تجريه وعدوته. تعتب وعتابها لآلم فلم يرد!

- هنا التقيتما اول مرة وهنا التقيتما للمرة الاخيرة بين اللقائين تجربة قصيرة، ومضة فوسفورية، انه رشح الذكريات يحرقك كحامض كيماوي! افهم انك لا تملك ان تقر ما يرشح من مخزون ذاكرتك، افهم ذلك، ولكن التمزيق، لماذا التمزيق، ما بك؟ لم يرد. تذكر كلمات اغنيتها، غنى مقطعها المحبب ودندنه في سره.

- كنعان يا حامل معانستي لسنين، ما بك؟ هل نكأ الحذاء الرياضي جرحك جرحي؟!

- دعك من اغنيتها الان، دعك منها.

قال واسبق كلامه بزفره هواء فتلمل الحذاء الذي يمزق الاريقة ونظر اليه.
- جرحك جرحي فأنا الآن ذاتك الثورية، أنا من يقول على طريقة الحلاج الشهيد [أنا أنت وأنت أنا كلانا زوجان ثوريان حلاً في جسد واحد يندس منذ سنين في وكره يحيا بين الجدران، يبتلع قسوة ايامه وحرماناتها ويناضل، يتامل ويتحدى!]

- اذن افهمي وتفهمي ودعك من ذكرياتي القريبة.

- يقولون الاغنية التي لا تنساها هي المرتبطة بمناسبة، بموقف، اغنيتها كانت موقفا!

ظهرت ملامح الامتعاض على وجهه مختلطة بالدم الذي ينساب من حاجبه ولا يتوقف. الملامح المدمية تنبئ بما يعتمر في داخله.

- موقف متردد شعاره (لكن)، وعد مزيف للهروب من حسم تحشاه. الحذاء الرياضي يطوقني وهو بقربي وسكنيه يمزق عالمي وذكرياتي، البسطار يخلع ابواب حياتي، يديرها، وبمقدمته يضغط على مخزن ذكرياتي القريبة المندلقة على حاضري. تريدين للحذاء ان يسجل افادتي، اعترافي عن صورتني ويطلب توقيعي؟ دعك منها.

تستمر ذاته تتاكفه هو المطوق بالثكنة. عادت لتكون حرون مهتاجة كانها تعود في سنتها التاسعة لتؤكد سلوكها في سنتها الاولى.

- هل يمكنك أنت؟ بل هل يمكنني أنا؟ تذكرتها في الوكر قبل سويكات قليلة فهل ستنساها الآن؟ الزمن لم يلحق ان يجلبها بستارته. جاعك البسطار يغزو ارضك المحررة - ارضنا المحررة وطعم قبلتها الاخيرة عند الباب على شفتيك لم يزل، فهل يمكنك نسيانها؟ كانت رغبتنا المشتركة منذ سنين فهل استطيع ان اشيح بوجهي عن ذاكرتها.]

(1)

صورته عيناها تضحكان بجرأة تشي سريعا بثقة بالذات وقوة شخصية وانطلاق. ثغرها باسم دون تكلف وبطبيعية، كان ابتسامتها ولدت معها، انطبعت عليها لحظة غدا وجهها جزءاً من راس الجنين. كانت عيناها متسعتي الحدقتين ودوما جحوظ، تكتشفانه. ابتسامه مندهشة رسمت على شفيتين صغيرتين نديتين كحبيبات اللوز الربيعي الأخضر. ابتسامتها المندهشة وعيناها الضاحكتان اكسبا وجهها ملامح الفرح الطفولي. تصور كنعان رأسها يكاد يفصل عن جسدها ليرقص بعيداً عنها فرحاً. ابتسم وهو ينظر اليها وتخيل رأسها لوحده منفصلاً عن جسدها، عيناها تتاملانها، تتفحصانها، تكتشفان تلك المنتصبة أمامه.

كان يحيا في وقفته تلك ولادة المرأة من الصورة. لذة لم تخلو من ارتباك داراه بابتسامه ليس فرحاً بولادتها امرأة من الصورة فحسب، بل ولتخيله رأسها يرقص بعيداً عن جسدها.

- اكاد ارقص فرحاً، لماذا انا وليس غيري؟
قالت لاهثة، منفعة، متعجبة تقذف كلماتها المتداخلة كقذائف سريعة.

- ولماذا لا تكوني أنت؟
- لأنك أنت القصة، السنين، التجربة، الاسم، أنت، لا ادري؟
- أنت المرأة المولودة من الصورة في الخيال، صورتني منذ سنين وقد اكتست لهما وعظماً، فغدت امرأة.
- الم يكن قبلي امرأة - صورة كما تسميها. عيناها تتضحان برغبة الكشف.
- كان لي ما تبقى من امرأة، ما تبقى من صورتها، ضحكات ومشاحنات، همسات في ساعات الخلوة وافتطار الشهية في الصباح، الإنسان طلبها والثوري رفض ضعفها، خاطبتني "بانتم" ولم تقدر ان تقول "نحن" فانتصر الثاني على الاول لتتحول المرأة لنتف من صورة الإنسان في وكره. قبل ست سنين وقعت عيناها على فتاة الشمس والربيع، ولدتها الشمس من شعاعها الصباحي الاصفر وما تركت لها مكاناً تحتها، انبتتها الارض من حشائشها الخضراء اليانعة وحنونها الاحمر ثم دفنتها تحتها. ولادتها رائعة وحياتها بانسة، يدها مغلولة لا تقوى على دق جدران الخزان، خزان يؤسها وشقائها، طلبتني على صهوة حصان ابيض ولا تدري المسكينة انني لا املك حتى حمراً اعرجاً.
- أنا لست كفتاة الشمس والربيع. قالت بثقة.
- لذلك أنت في وكري. صورتني تخيلتها، رسمتها دائماً امرأة تحت الشمس لا تولد مع شعاعها فقط، امرأة تقف فوق الارض ولا تدفن تحتها، تقدر ان تدق جدران الخزان، اما "الحريم" فجنس ثالث ماله الزوال شان الطربوش التركي وحجر الطحن اليدوي، لتبقى المرأة تنتمي للعصر لا للتاريخ. المرأة هي الكائن الوحيد الذي يجب ان يقطع صلاته بالتاريخ دون أسف فليس فيه ما يستحق نظرتها اليه.
- خفضت عينيها المبحطتين فبدت غريبة غير ما هي.
- يجب ان تشيحي بوجهك لتساعديني ان افعل. يا من تدعين ثوريتك سانديني كي امسح صورتها، انس ذكراها. أنا الثوري لا حاجة بي لها الآن.
- هل يمكنك مسح الصورة التي تجسدت للمرة الاولى والاخيرة في تجربتك ، حقيقة يتوسد رأسها كتفك وتداعب باصابع يدك التي تلتف حول عنقها خصلات شعرها؟ أنا لا يمكنني مسحها بل اطلبها. أنت لن تتمكن.
- كانت نبرة التحدي في لهجة ذاته تتم عن ثققتها بما تقول.
- يجب ان اتمكن، لا بد لي. الصورة التي طلبتها فرحاً تمزقت نتفاً فغدت الما].
- حذاء اخر يشارك الأول حمله التمزيق. ينتزعون محتويات الاريكة، يمزقونها نتفاً صغيرة وينثرونها على ارضية الغرفة. نتفاً من صورتها تنتثر هي الاخرى امام عينيها، ذكرى قريبة تحمل نتفاً من صورة فالتمزيق طالها هي الاخرى.

نظرت بتعاطف حتى انهى شرحه.
 - افهم افهم لماذا هذا الترتيب فانت لست كأي انسان، انك لا تعيش في الحياة وهذا ما استوجب ما هو غير مألوف لي. نلتق ونرى!! هذا غريب علي ولكني اتفهم، ظرفك، موافقة، موافقة ولكن ... سأفكر.
 - فكري!

الترتيب، لكن، اخشى، غريب علي] كلمات عكست ترددتها- حماس مع عزوف، اقبال مع خشية. انجذب لمن تنتمي للعصر لا للتاريخ، اذن فعليه ان يتحمل! ليست مثل "الحريم" تنتظر الفارس على الفرس البيضاء، تحتار هي فارسها وفرسه ايضاً، لها استقلاليتها التي اعتبرها دائماً محور شخصية صورته التي تنتمي للعصر. اذن فعليه ان يتحمل! هو بين الجدران وليس في الحياة. في الحياة لا صورة يحلم بها حتى يلجأ لترتيبات وطرق اتصال ليبري صورته وقد ولدت امرأة! في الحياة لا يحتاج رجل وامرأة للقرارات الحزبية وقواعد وترتيبات السرية كي يلتقيا!

تبالغ! تحب ان تمثل دور الشهيد. تأملت نفسك اكثر من مرة شهيداً، تحب دور الشهيد.

- مرت سريعاً كوميضات برق يحرق ظلمه نهار شتوي للحظة لتختفي سريعاً. كسائحة كانت تزور بحراً تنتعش بنسيمه، بامواجه يوماً ثم عند الغروب ترحل مديرة ظهرها له هو الجاثم مكانه لا يتزحزح، كمتعبة ترحل لجبل تعب من على قمته هواءً عليلاً لتنزل بعد ساعات لقطاع حياتها اليومية المرهقة. صورتها غدت نتفاً، ابتسامتها المندهشة دائماً مصطنعة، اغنيتها موقف متردد.

- تكابر! صورتها لم تتمزق نتفاً بل مكتملة هي، حاضرة بكل سطوعها، لمعانها في ملايين خلاياك الدماغية، تسكر راسك بحضورها. ابتسامتها التي تراها مصطنعة تنام وهي اخر ما يداعب خيالك الذي يرهقه تأملها. ابتسامتها تذكرك بكل ملامح وجهها، بعينيها المبحلتين فيك بقوة شخصيتها وثقتها بنفسها، بانطلاقتها، بشفتيها الصغيرتين النديتين كحبيبات اللوز الربيعي الاخضر، اغنيتها تاخذك للحظات ساعة بساعة ودقيقة بدقيقة، لحظات تلعب براسك كالنبيد البيتي المعتق].

- كيف تحيا؟ حدثني!
- وفق قانونين "لا تزر احداً، لا تستقبل احداً" اضفت له مرة "ولا تفتح شراعة الباب لعجوز بيراوية" والآخر "الاجراءات، تحوطات، تطلبات، وقواعد". وبين هذا وذاك أناضل واطهو، أنام واحلم اغني واتامل، اتقافز من وكر لآخر، اهرب من المصادفات السيئة بدعاء امي قبل تسع سنوات [رح يا بتي الله يرضى عليك] اشعر بالملل واحداث الجدران احياناً، اعمل فاتعب، اضحك واشتم. قبل ذلك وبعده مهماتي تمتك علي تفكيري ونضالي هو حياتي. ذاتي الامارة بالسوء قاتلتني فهزمتها فكتمت.
- والوحدة؟
- انتماني للجماعي يمنعها ان تقتلني. منذ تسع سنين وهي رفيقتي.
- هل ستقنعني بانك لا تتضايق من الوحدة؟
- قلت لا تقتلني ولم اقل لا تضايقني.
- اذن كيف هي؟ كيف يمكن العيش معها طوال هذه السنين؟
- حسناً، الوحدة لا اراها بالعيش وحيداً بين الجردان، هي وحدة الإنسان الذي يفتقد الآخر والذي بافتقاده يفتقد انسانيته، يحس أنها غائبة فينطوي على ذاته يجادلها، يحاورها، يساومها، يخرسها، لتتهمد فيه، فيحيا وحيداً مع ذاته المنسحقة، الحرون في داخله. ليست الوحدة ان لا نجد من نتحدث معه بل ان لا يجد الإنسان فينا نفسه مع الآخر.
- نطقت عيناها بالحيرة وان ظلت مبهلقة. كانت تفكر.
- أغياب المرأة هي اذن! والنضال والمهام الحزبية، اين الحزب والرفاق؟
- موجودون ووجودهم يمنع الوحدة ان تقتلني!
- الا يعوضك ذلك؟ الا يعفيك؟
- لا شيء يغني عن نون النسوة! هي نقيضنا الذي به نكتشف نحن الرجال انفسنا.
- فهل يمكن ان استغني عن نفسي مثلاً؟
- ورهبان الاديرة الا يحيون بدون المرأة؟ هل استغنوا عن انفسهم؟ سالت باستكثار.
- انني اتحدث عن الاحياء لا عن الاموات!
- كنت ساجن لو ان اختيارك وقع على غيري.
- اختتمت نقاشها بجملتها التي قالتها وهي تلقي برأسها على كتفه ...

الآن، منذ الآن لن اغني اغنيتها، لن اردد مقطعتها، يعوزني شيء اخر، ساغني مع شيخي العزيز على قلبي:

حنغني ودايماً حنغني ونبشر بالخير ونمئي
ونلف الدنيا الدورة على صوت النغمة الهدارة
ومعانا المشرط والبسم بالكلمة الصاحبة النواره
هو احنا كده وحنبقي كه فاهمين عارفين، مع مين على مين
دايماً صاحيين مش من دا وده

- لا تناقض بين الثوري والإنسان في الشخصية المتسقة، لا تناقض بين شيخك العجوز الثوري وبين فيروز. هل نسيت [الغزاة والبندقية، الصخر والتفاح]* الثوري يمحي الفارق بينهما
- اعلم اعلم. ولكن لكل لحظة اغنيتها، لكل مرحلة اغنيتها. اللحظة والمرحلة تتطلب الشيخ امام لا فيروز. لحظة الثكنة المحيطة بي ومرحلة مواجهة جديدة ادخلها.
- التمزيق والاربكة ذكرك والذكرى أيضاً لها اغنيتها، تطلبها.
- ساجد ذكري ولو في هذا المناخ الصيفي الحار. اصبر كنعان
- لن تستطيع. ان هربت من عينها قابلتك ابنتامتها، ان هربت من هذه وتلك فامامك اثار قدميها المبللتين الباقية على بلاط بيتك. اين المفر يا من اندسست بين الجدران حصوراً لسنين؟ عينان وابتسامة وقدمان مبللتان تطوقك كما الجند حول بيتك، كما البحر والعدو واليابسة لدى طارق بن زياد فاين المفر؟

اينما توجه كانت اثارها باقية فاين المفر؟ في المطبخ تغديا معاً ما تحب، لبنا كشكاً مع اللحم والارز. في الغرفة التي يلقي بها هشام مقيداً تناقشا طويلاً حول الحزب، الانتفاضة، الحياة، حرب الخليج، الاعلام والصحافة، الانتخابات البلدية والسياسية، تناقشا في كل شيء. على الشرفة الشرقية جلسا ليلاً يستمعان لشريط فيروز الجديد "كيفك أنت" ورأسها يتوسد كتفه. في كافة انحاء البيت اثار قدميها باقية وهي تسير حافية مبللة القدمين!! على هذه الاربعة نامت كالأطفال مرة عندما حضرت متعبة من يوم مرهق. اينما ذهب فاثارها تدق باب ذكرياته وتقتحمه.

- لن تستطيع [كررت ذاته متحدية]!
- بل أستطيع [قال باصرار]
- إذن هو الخصام من جديد! عدنا للأعيب السنة الأولى! حتى متى يظل التناقض بيني وبينك؟
- غدوت ثورية فتعلمي الدرس جيداً ولا تتحديني. لم تكن بيني وبينك الأعيب بل متاريس قتال.

- لسنا الآن خلف متاريس متقابلين كما البدايات.
- أنا ثوري
- انا الانسان فيك لذلك اطلب صورة
- ن. اريد ان افرح.
- لا يفرحني ذلك فأخرسى ولا ترهقي دماغي
- تململ كنعان تحركه صبغ وجهه بالدم المناسب للارض. تقزز من دمه وقد لامس شفته وخورنمته.
- عدت لسلطة لسانك ولفظاظتك معي. متى تكف عن ذلك؟ تدعو مصالحتي وتشتمني؟ أنت تشتم ذاتك وتشتم الإنسان فيك!. رد عليها وقد كاد يصيح.
- ذاتي ان حاولت طعني من الخلف اطلق النار عليها. أنت دائماً امارة بالسوء. انتزعه صوت من حواراه مع ذاته. عدل من وضع رأسه واختلس النظر للجهة التي صدر منها الصوت. كان الجنود انهبوا فتح ثغرة بالدار الذي يفصله عن جيرانه [قلبي معكما ايها الطفلتان الصغيرتان، لا باس، فالمنطقة المخصصة للذاكرة في راسيكما الصغير لا زالت تتسع للكثير من الذكريات. تذكرنا هذه الليلة جيداً وتعلما الحقد، تشربا به.
- اعذرك فانت متوتر وتفرغ توترك وتلقيه عليّ، في وجهي [قالت ذاته بلهجة مصالحة] سنين وأنا أنزل امامك، أنا الإنسان، أنت الثوري ومع ذلك تريد ان تعدمني، تعدم الإنسان فيك؟ أنا أنت فهل ستعدم الإنسان فيك؟ انتتحر؟ هل تحجرت، تبيست لتقتل الإنسان فيك، هل تشققت نفسيتك ام ذوت مشاعرك؟ لم تكن هكذا معها، كنت رقيقاً، قالت هي ذلك فلماذا يظهر الآن تبيسك وتحجرك؟

(٤)

- اتعرف يوماً على حياتك وعليك. منذ اسبوعين اكتشف فيك كل يوم شيئاً جديداً ودائماً سيظل السؤال يصرعني، كيف تتحمل قسوة الحياة؟ الا تشناق للسير في الشارع، للاهل للرفاق، للاصدقاء كيف تحملت كل ذلك؟
- طبعاً اشناق ولكنني اتحمل. ليست حياتي ممتعة ولكنني جبلت على تحمل القسوة. الإنسان لديه طاقة جبارة تنميها القناعة الايديولوجية وعادة لا يكتشفها الإنسان الا حينما يقرر خوض المعركة، وهو في مععانها، كل شيء يتوقف على قراره هو، ان قرر فعل المستحيل، ان تردد وتلعثمت عزيمته انهار، لا حل وسط! اما نكون بمستوى الثورة، أو لا نكون! العمل السري والاختفاء هما بمستوى الثورة. اما ان نخوض معركة الثورة اليومية كل في مجاله بحرارة أو ننهزم! ستهزمننا عزيمتنا المنهارة قبل ان يهزمننا عدونا.

- لكن الانتفاضة تراجعت كثيراً والثورة رحلت من لبنان وانتهت كظاهرة علنية مقاتلة... الدولة ابتعدت، والاشتراكية تنهار والعراق انكسر، والمنظمة ستذهب لمؤتمر اقليمي عنوانه حكم ذاتي... فإين هذا مما نقوله؟
- تلك عناوين المرحلة - مرحلة التراجع والانهيار ولكننا موجودون قبل الانتفاضة وسنظل بعدها، الشعب الذي صنعها وصنع بعدها ثورته، قادر على ان يجدها بعنفوان اكبر والمنظمة ستذهب حيث تشاء انما نحن لن نذهب الا لمكان واحد: اهدافنا الوطنية وحتى نصل اليها علينا التمسك بالمنطق الوحيد الصحيح والحقيقي، الثورة.
- اشعر احياناً ان الحزب وموقفه الثوري في واد والامور تسير تجاه واد اخر، نتحدث عن مشروع ثوري وكفاحي وقيادة م.ت.ف. تتحدث لغة اخرى، التسوية السياسية والمؤتمر الاقليمي. أنت تتحدث عن عمل سري واختفاء فيما الساحة نتجه لتعزيز العلانية. شخصيات علنية تفرخ كل يوم كالفطر. قوى واتجاهات تتحول للعلنية، بعضها يدعو للعلنية في ظل الاحتلال، الا ينعزل الحزب؟ اننا نسير عكس الاتجاه، عكس التيار.
- ولكن ليس عكس التاريخ! ما تقولينه يؤكد تميزنا كحزب ثوري، تميز هو بيتنا، اقراي مهدي عامل تفهمين ما اعنيه بالضبط. تميزنا ليس برنامجي بل وعملي أيضاً، نناهض التسوية بالكفاح، نناهض العلنية وامراضها ببناء نماذج لتجارب سرية نعمل على تعزيزها وتطويرها. نناهض تفريخ وتلميع قيادات لا رصيد لها، ببناء قادة ثوريين تصقلهم التجربة وصعوبات النضال، نرفض القوائم ونسعى لبناء البديل لاننا نحن في التاريخ نشكل بديل.
- لكننا نطرح رأسنا بالصخر، نسيح عكس التيار.
- الثورة سباحة عكس التيار هي عدم التصالح مع ما هو قائم. إن فقدت الثورة هذه الروح النقدية التمردية تحولت لثورية مجهزة، مخصصة. تماماً مثلها مثل الرجل العتيد يسعى ليجامع امرأة شبيقة فتفصح رجولته المزيفة من الثانية الاولى. هكذا ثورية متصالحة مع الواقع ينكشف زيفها عند اول معركة فتتهزم، اما مناطحتنا الصخر فتلك وظيفتنا كثوريين منذ اجدادنا الاوائل، منذ سبارتاكوس قائد العبيد مروراً بقرامطة الدولة العباسية حتى جيفارا الراحل لبوليفيا ليصنع ثورة وصولاً لامتشاق شعبنا السلاح ليتحدى سادس قوة عسكرية في العالم.
- كل الثوريين ناطحوا الصخر وفتتوه رويداً رويداً بالجلد وطول النفس والصبر، وهذه كلمة السر هنا، اما مثلنا الشعبي [الكف ما بناطح مخرز] فذلك شعار كل من يريد ان يسقط من النضال ويبحث عن مبرر. كفنا يجب ان يناطح المخرز حتى نكسر رأسه، سنندمي الكف لا بأس فهل نبحت عن استقلال وتحرير ونتوقع طريقاً مفروشاً بالوزود؟ المرحلة صعبة وصعبة جداً ولا مجال

فيها إلا للصمود . أما مرحلتنا فأتية ولا أعرف متى ، انما ستأتي وتعبنا لن يذهب سدى.

استمعت بانتباه شديد وان بدا عليها أنها لم تأخذ بكل ما قاله .

- أنت البديل لمن اراهم حولي ، السري مقابل العلني ، الثورية الصافية امام الدجل المستشري، ادخل وكرك فترك عالماً لاحيا معك عالماً آخر .

- احذري ان تري عالمي برومانسية، ثوريتي ليست رومانسية، كما تجربتي ايضاً . تجربتي عمل ثوري يومي متعب ومنهك للاعصاب يؤسس شأنه شأن تجارب الالاف من الثوريين الفلسطينيين، انما انني كتجربة اشكل بديل عمن تزينهم فانا صورة الحزب امامك . هكذا انظري للامور ومن تزينهم فصورة للانحطاط.

- افكر بذلك كثيرا، اعني مجيئي لهذا، مشروعك، لقاءنا، احتمالية ان نرتبط معاً، هناك اكون في عالم اخر، هناك عالم النجومية اللامعة .
- هل تريدان عالمي، ام العالم الاخر وما ينسجم وبعض متطلبات مهنتك وعالمك؟

تعمد ان يسالها مباشرة وبصراحة . هكذا دائماً يجب ان يطرح القضايا الحساسة، عيناه تغرسان بعينيها وتوحيان بجدية سؤاله .

- اريد عالمك . اليوم وأنا قادمة اليك خطر بذهني احتمال ان لا اتى مجدداً لسبب ما، فاقشعر بدني ولم احتمل التفكير بهكذا احتمال .

- وهل تستطيعين تحمل التبعات؟ اعني تبعات الارتباط بعالمي وبمن يحياه؟ تلك قضية ليست سهلة . عاد ليسالها بصراحة جافة .

- استطيع الارتباط بك، بتجربتك، بحياتك، كل ذلك يجذبني ولكن هل سيؤثر ذلك على حياتي، مهنتي وعملي؟

سالت نفسها ولم تجب عن سؤالها . كانت تفكر بصوت مسموع لا اكثر . الحيرة ظاهرة في عينيها . لم يسال كنعان مزيداً من الاسئلة التي تتطلب اجوبة لا تقبل القسمة على اثنين . احترم حقها ومحاولتها للخوض لاجابة . غرق في التفكير وهو يستشعر انكساراً ما، ساد الصمت على جلستهما معا ...

- [أنت لم تتنازلي بك سحقتك، اخرستك، هزمتك! سحقت واخرست وهزمت الإنسان الذي كان يشدني عندما كانت ثوريتي رومانسية حاملة هشة كالزجاج! تذكري ذلك جيداً .

- كان مستمراً يتصدى لذاته حتى ساعاتيهما الاخيرة في الورك .

- لا بل تنازلي أنا الإنسان امامك أنت الثوري هي العنوان الابرز لتجربتك . انما حسناً سمهما ما تشاء، سحقت، اخرست، انهزمت، اعدمت مرات عديدة،

ولكن الانتفض آخر طلب لي في تجربتك التي تنتهي بين لحظة وأخرى؟
استحضر الصورة، الاغنية، الابتسامة، أنا الإنسان اطالبك، لا تخذلني.
- لن افعل، لا استطيع نزع ذكرياتي مهما كانت قريبة فأنا مطوق، أنت مطوقة،
هشام ثالثنا والذكريات رابعنا، كل ما هو حولي مطوق. وقعت بين ايديهم
وكلهم معي.
- انتزعت كل شيء من الطوق، من تحت بساطيرهم، من ثكنتهم العسكرية حول
بيتك. حررت حوارات الحزب معك، الانتفاضة، حرب الخليج، المتاريس
المتقابلة لي ولك حتى (افطار الاثارة) حررته تجاعيد خدود امك، صدرها
الداقي، استجواباتها، كاس نبيذها البلدي، قلمك، اوراقك، كتبك، فتاة الشمس
والنافذة ... كل حياتك، فهل تستسلم الآن وتترك هند صورتها، اغنياتها،
ابتسامتها بين ايديهم داخل الثكنة، تحت البساطير، استحضارك لها، تحريراً
لها، استحضرها، حررها، قاتل لانتزاعها.]

(5)

عانقته وسقطت من عينها دمعة على خدها. مسح دمعته وقبل عينها.

- لماذا البكاء؟
- فرحة، فرحة بك! جلست واسندت رأسها على صدره بوداعة.
- اجمل لحظات سنوات تجربتي كأنسان اعيشها معك.
- تساقطت كلماته منه، دون ان يقررها، كطفل يحدث امه.
- تلقائيتك تورطني، تضيعني!
- لن اتزيف واتصنع!
- حذار ان تفعل! ولكن مشاعرنا تتدفق سريعة، كل هذا في شهر!
- منذ متى يجدول الإنسان تدفق مشاعره وفق تقويم محدد؟
- ولكنني اخشى على نفسي منك، اخشى عليك مني. انني مجنونة!
- أنا أحيا الجنون منذ سنين، معك يكتمل جنوني - ديني الثالوثي.
- سأتعبك! من يحبني يتعب.
- اعتدت التعب!
- أنت لا تعرفني جيداً!
- لذلك أنت هنا، أصبحت من مفردات وكري!
- ماذا عرفت عني؟
- ما يكفيني لاقول [وجدت فيك صورتي التي كونها خيالي المتعب منذ سنين؟]
- وكيف وجدت صورتك؟

- مجنونة متعبة وجميلة، لها مكان تحت الشمس وتحسن دق جدران الخزان،
عينها مبهجتان وابتسامتها مندهشة وقبل هذا وذاك شفاتها صغيرتان نديتان
كحبات اللوز الربيعي الأخضر.

ان فعلت اخشى من الذكرى والمها. لا اريد ان اترك وكري وشعور
بالتمزق يتملكني. لا اريد ان اخرج من باب وكري والبسمة تفارق شفتي! لا مجال
للالم، الآن فقط التحدي والمواجهة ما اريد، هذا فقط!

- قد شرعت بها منذ طوقوا باب بيتك واخذوا يمارسون طقسهم الوحشي،
معركة الاوراق، مواجعتك الاولى. لا مكان للتمزق والام فيهما. واجهت
وتحديث وطعم رسالتها في فمك، قوتك بادية فماذا بعد؟ تسلج بابتسامتها
ستمنحك القوة، ابتسامتها جميلة وستحتاج لما هو جميل تواجه به بشاعة
وقبح ما سيواجهك. تذكر مقطع اغنيتها وهي تغنيه فرحة فذكرى الفرح
ستعوزها في اقبية التحقيق او في حافلة تنقلك خارج الوطن وحتى بالفرح
تسخر من حبل يتدلى ليشنقوك ثم يقولون انتحر! احمل الفرح، الابتسامة،
جمال اللحظات، الاغنية فوق كل ما تحمله وستنتصر في مواجعتك المقبلة. كل
ذلك يبعث على التفاؤل. الم تقل لرجل المخابرات قبل ساعات [أنا ثوري
فلسطيني متفائل!] فتفاعل تنتصر، تشاعم وابكي ذكراك وطوقها بالحزن
تنهزم، هل تريد الهزيمة؟

- لن اهزم، تلك مسالة مفروغ منها منذ خمس سنين. سانتصر ذلك متيقن منه
مثلما أنا متيقن من انني كنعان صبحي، لكن لحظاتها الجميلة، اجمل لحظات
سنيواتي التسع حولتها للحظة الم في لحظة كان يمكن ان أحملها معي كاجمل
لحظات حياتي. اتذكرين يا ذاتي، لم يلحق الزمن ان يهيل التراب على لحظتي
تلك، كيف استحضر اللحظة الاكثر ايلاماً في تجربتي؟

كان يحدث ونبرته تشي بالم عميق، دفين في جوفه.

- عدت للمبالغة تتحسس من كل شيء، تعيش بحساسية، تفكر بحساسية،
وتشعر بحساسية. ستقتلك حساسيتك يوماً ان بقيت هكذا!

- تحسسي كان تعاطفاً معك! الست ذاتي التي طلبت وطلبت؟ حتى ساعاتي
الاخيرة لا زلت تطلبين وتطلبين؟ كنت اريدك ان تفرحين أنت التي انسحقت
بين الجدران. كرهت ان تؤذيك في لحظة ما! رغبت ان يخرج الإنسان في
داخلي من وحدته، ان تكتشفي الذات الاخرى فتكتشفين نفسك. ما نسيت يوماً
الثلث الذي دفعته ولا التضحية التي قدمت منذ سنين طويلة. سعبي لاقنومي
الثالث سعبي لفرحك أنت التي ما فرحت يوماً، سعبي للاحر الذي طالما طلبته.]

- هيا لنغني مع فيروز.
قالت فجأة كأنها اكتشفت فيروز لتوها. مدت يدها فضغطت على مفتاح تشغيل المسجلة فانطلق الصوت الملائكي الساحر. كانت احضرت له الشريط الجديد "كيفك انت" واسمعه اياه مرات ومرات، غنت اغنياته مع فيروز مرات حتى تحول الشريط هو الاخر بالقوة لمفردة جديدة من مفردات حياته!! كانت تغني مع فيروز فرحة وهي تتطلع اليه وتحرك رأسها وعيناها تفيضان بالشهوة، مظهره انفعالاتها محاولة اتقان انفعالات المغنية ومخارج الحروف من حلقها، كانت في اوج انوثتها المتفجرة!

- غني معي، غني. ناشدته!
- احب ان اتطلع اليك وأنت تغنين. عيناك هما اللتان تغنيان لا أنت، عيناك اللتان اسرت بهما منذ أكثر من شهر!
- إنسَ عينايا!. زجرته بدلال وتابعت:
- غني، غني

بكره يرجع بوقف معكن اذا مش بكره اللي بعده اكيه
انتو احكولي وأنا بسمعكن حتى لولا الصوت بعيد!
- اغنيتي غير هذه. اقنوني الثالث تناسبه اغنية اخرى.
- ما هي؟

- هي اغنية مارسيل خليفة صاحبك وكلماتها لدرويش صاحبي:

انني ارتشف القبلة
من حد السكاكين

تعالى ننتمى للمجزرة!

مدت يدها، ادارت مفتاح المسجلة فحمد صوت فيروز. قبلته بشهوة مندفعة وعيناها دامعتان، فرحاً، حزناً، تعاطفاً، شوقاً، حسرة ... لا يدري ... لا يدري ...

من اجلي اذن تالمت وما زلت؟

هتفت ذاته وقد اكتشفت متأخرة ما اكتشفت وتابعت:-

- اخيراً تصالحنا، تفهمت مطلبي وتعاطفت معي. أه كم اتعبتني ايها الثوري (كنعان) أه أه كم انزويت في جوف اعماق اعماقك، اكنم رغباتي، احتياجاتي، وصياحي. اتكور على نفسي واخبيء راسي لكيلا يطل من عالم [القواعد، التطلبات، الاجراءات والتحوطات] والان فهمتك:- قبل وبعد الثوري أنت انسان ولم تتنازل عن الإنسان فيك، ستتصر، حتماً تتنصر لانك انسان قبل وبعد الثوري! رغم لحظة لذة تحولت للحظة الم، ستتنصر!]

(٧)

- قلت لك منذ البداية اخشى على نفسي واخشى عليك مني ولم تسمعني.
قالت تعتذر، مقدمة لقرارها! كانت لهجتها غيرها. التوتر لا الصفاء كان يخيم على
الاسبوع السادس لالتقائهما. يتذكر أغنيتهما، اقبالها وابتعادها، تقدمها وتراجعها،
كبدول ساعة كانت صورته، تتقاذف يمينا ويسارا وهو في حيرة وترقب!
- اكذب ان قلت لك ان لدي مشاعر تجاهك! أنا لست اقنومك الثالث، لا تعذب
نفسك معي، اشفق عليك! تابعت قائلة:

- لست ابحت عن شفقة لانني قوي. تضامن، تعاطف نعم، لكن شفقة لا. فهذه تليق
بالضعفاء وأنا لست منهم!

- أنا اسفة لم اعن ذلك. أنها مشاعري. وسكتت.

- مشاعرك أنت تقررين حقيقتها. بالعموم حتى تلتقي المشاعر ينبغي ان تلتقي
العوالم. نحن ننتمي لعالمين مختلفين [قال صادقاً وتابع بصوت خفيض
مستسلم!] لا يهم هنا ما رأيته واحسست به وعشته معك على مدى شهر
ونصف!

نطق كلماته نهياً لا نقاشاً فحسب بل ومضات برق سريع فوسفوري لمع سريعاً
وانطفاً سريعاً في وكره بعد سنيته التسعة فيما احتفظ من لمعانه سوى بجرح
التجربة، الومضة.

نهضت عن الاركة الطويلة في الغرفة الواسعة، حملت حقيبتها الجلدية
وعلفتها على كتفها، متوجهة للباب وعنده توقفت. دمعت عيناها، تعانقا بحرارة
وقالت:

- رغم اننا لن نلتقي بعد اليوم لكن تاكد ان لك صديقة مقربة جداً ومتضامنة جداً
هي هند وأنا اعتبر ان لي صديقاً رائعاً اسمعه كنعان يحيا بين الجدران في
مكان ما ويهب حياته للثورة! أنا سعيدة انني تعرفت اليك. لنكتف بصداقة طالما
اننا لا نرتبط بحب يجمعنا.

نطقت بكلماتها واعقبها بقبلة طبعها على شفثيه بسرعة. ابتسم ابتسامة لا
تخلو من مرارة، أسي رغم مجاهدته الا تلحظه. قبلها وهي دامعة، خرجت مسرعة،
اغلق الباب خلفها مستشعراً طعم مرارة قبلتها الاخيرة على شفثيه متسائلاً بينه وبين
نفسه متشككاً، تاركاً للزمن ان يجيب [هل هي من الطراز الذي يخلص للصدائة
التي تنشأ بين الجدران؟ هل تستطيع فعلاً ان تقدر عظمة صداقة تنشأ بين
الجدران؟ تساعل ولا يستطيع ان يغالب شعوره بان ابتسامتها، رقتها، دمع عينيها،

كلماتها كانت كشان. طريقتهما الارستقراطية في تناول الطعام، تصنف كلها في خانة اللباقة (والاتيكييت) وحسن التصرف!

جلس على طاولة عمله في المطبخ وامامه الاوراق والاقلام يخاطبها: انت وبقية مفردات بيتي وحياتي من يمكن التعويل على صداقتها. كل ما عداكن مزيف ومتصنع!! اشعل سيجارة وسحب منها نفساً طويلاً فاحس بالدخان يحرق رنتيه، يلسعها. ما شعر مرة هكذا طوال سبعة عشر عاماً من التدخين. ظل على جلسته تلك ساعة أو يزيد وما انطفأت السيجارة من يده خلالها، مرة يتطلع لاوراقه ومرة يمعن النظر بالحائط امامه وثالثة بقارورة الزيت على الطاولة. مشاعر كثيرة كانت تنتابه، كل مفردات مشاعر الاحتقان في تلك اللحظة يمكن ايجادها تنزوي داخله. مفردة واحدة تطغي على غيرها: التمزق! كان يشعر ان شيئاً ما تمزق داخله مرة وللابد!! يريد ان يصيح فلا يعرف بوجه من، ان يشتم فلا يعرف من، فقط يعرف ان شيئاً ما تمزق في داخله مرة وللابد!

[بانس انت يا كنعان، انتظرت اقنومك الثالث لتلتذ معه وبه فتمخض المأ!! حدثته ذاته وهو يجاهد ليبعد نقطة دم مست انفه. للمرة الثانية تودع المرأة عند باب البيت السري، تقبلها، تفتح الباب، تخرج هي وتبقى انت مع صورة في الخيال والذاكرة. للمرة الثانية تحشر احتياجاتك بين الجدران، تدفن رغبتك في جوف بيتك - وكرك! في المرة الاولى كانت منى حياة ما اكتملت، تحولت لشظايا صورة وذكريات. في الثانية كانت هند لحظة عابرة، ومضة فوسفورية اورثتك ذكرى جرح. ما بين الاثنتين حياتك السرية تسع سنين. قبلت الاولى مودعاً بداية حياتك، اياماً على بدنها وها انت تقبل الثانية مودعاً قبل نهاية حياتك السرية، اياماً على انتهائها. ما بين الاولى والثانية سنوات الرغبة والاحتياج غير المحققين، سنوات الحرمان والقسوة والنضال ايضاً. هل هو قانون حياتك كمناضل سري، تبدأ بوداع امرأة بالجرمان منها لتنتهيها بتاكيد هذا الحرمان وذاك الوداع؟ هل هي المتطلبات الحتمية للحياة السرية أن تضع الإنسان فيك على الرف، لتقتحم حياتك كثوري لا يجد انسانيته في الاخر؟ هل هو الظرف ام هي الصدفة ام تراه بؤس الاختيار في الحاليتين؟ ام تراه اضاعة المشاعر لاتجاهها، السبب في ان عليك ان تبقى الاقنون الثالث في حياتك ذكرى صورة لا حياة تعيشها، لا حقيقة تتلمسها، خيال لا رغبة متحققه؟ أه يا (كنعان) يا من روضتني كثيراً فتصالحنا في الساعات الاخيرة.

هل تأمر عليك "الجنس اللطيف" ام تامرت عليك قسوة التجربة فمنعتك من ان تجمع بني اقانيمك الثلاثة (الحياة، الثورة، المرأة)! هل ادمنت الوداع والتقبيل عند الباب؟ كانك تصر على ان تضيف لباب بيتك السري وظيفه اخرى ودوراً اخر؟ ان يسمح للمرأة بان تنسل منه، من حياتك! فاي باب هذا الذي اخذ على عاتقه كل هذه الوظائف والادوار لسنين وسنين؟؟ [كان مشغولاً يحاول جاهداً طرد نقطة الدم التي تلامس خورنمته! [وماذا بعد يا ذاتي الثورية المطوقة معي بالبساطير والاحذية الرياضية والمطاطية. اما زلت ترين في ابتسامتها قوة لي ومقطع اغنيتها فرح، في لحظاتها جمال ساعوزه اواجه به بشاعة الذين يطوقونني؟؟ تفهمي وافهمي قوتي استقيها من حزبي ونضالي، تضامن رفاقي ومحبة شعبي وليس من لمعان ومضة فوسفورية، جرح مؤلم، لحظة لذة تحولت للحظة الم... ان لم تدركي ذلك فأنت لم تنصقل بعد جيداً! حسناً امامي وامامك تجربة جديدة ستبدأ بعد ساعات وعبرها ستنصقلين اكثر. ولكن احذري ان تطلبي برأسك منذ الآن فصاعداً وتطالبيني بصورتها باستحضارها لك. يكفيني انني احمل عبء انهيار تجربتي ووقوعي بين برائتهم وفوق ذلك احمل لحظة الألم والاغنية المترددة والابتسامة المصطنعة! فاحذري ان تطلبي شيئاً بعد الآن!] - اتفقنا. سادعك وشانك!

كان استعداد لدخول المواجهة الجديدة، المرحلة الجديدة بتعزيز حلفه مع ذاته
الثورية ■

الفصل الحادي عشر



الفصل الحادي عشر

ساعات وكنعان ملق على أرضية الغرفة الواسعة ممداً على بطنه مقيد
اليدين والقدمين معصوب العينين وذكرياته تتدفق من شرابين دماغه
فتختلط بالدم يسيل من حاجبه الأيسر فتتبع الأرض بالذكريات الراشحة
والدماء تلتحم بذكريات الوكر الصغير في لحظات الانتظار والترقب والأمل الواهي
بان يفلت.

تعبت شرابينه من كثرة ما رشحت من ذكريات في ساعاته القليلة
الماضية!! الا ما أطول ذلك الشريط السينمائي الذي يحمل ذكريات سنيته الماضية!
يبدو كشريط السكة الحديدية، طويل وطويل. تسع سنين عاشها بالطول والعرض،
كانت عمر شبابه وثباته ونضوجه، كانت سنوات تشكله كرجل. كان متيقناً الآن
وهو على عتبة حياته الجديدة بعد ان ودع حياته الماضية انه ما عاش حياته عبثاً.
فقط كان على مقاعد الدراسة الاعدادية يتمسك بهدف كان يبدو ضبابياً غير واضح
المعالم، فبدأ يتضح رويداً رويداً حتى تعززت قناعته به يوماً اثر يوم. عاش جزءاً
من حركة ثورية نبيلة التحق بصفوفها مبكراً ورأى تلك الصفوف تتسع سنة تلو
اخرى، كان يرى ثمرة عمله يانعة تزين مع ثمرات رفاقه كلهم شجرة تعلقو وتعلو،
تطول وتطول ورأسها يتجه لمعانقة السماء!

الاعتزاز والفخر يمتلكان عليه كيانه اذ اختار لنفسه موقعاً في معسكر
العمال والكادحين يتمسك بقيمتهم ويرفع رايتهم، لذلك كان شعور بالرضى يلغفه في
اللحظة تلك من رأسه مدمى الحاجب حتى أخمص قدميه المقيدتين، رغم الغصة من
انتهاء تجربته، رغم المرارة العالقة في جوفه من رشح الومضة الفوسفورية
لصورة هند، مرارة لم تثنه عن خطته [الاختفاء حتى عام الفين وبضعة ايام]!
شعور بالرضى يزيح غصة الحلق ومرارة الجوف جانباً. لم يتبق الا الحقيقة
الساطعة سطوع الدم الاحمر القاني الذي يسيل من حاجبه منذ ساعات، حقيقة
تختصر به كنعان وبهم البساطير والأحذية الرياضية المطاطية. هوهم ذات
المعادلة لذات طرفي الصراع. ما عدا تلك الحقيقة يبدو كل شيء تافهاً، ثانوياً وليس
ذو معنى خاص في لحظة تازم الصراع بين طرفي معادلة هوهم عندما يأخذ
الصراع شكل دم. احمر قان يسيل ومواجهة حتمية!!

كان يدرك تناقضاته! كثيراً ما سير غورها، كشفها، تأملها، فاضعها ليتحرر من التوتر الناشئ عن صراعها في رأسه وبأقصى سرعة ممكنة فيشيع الاستقرار في حياته، ليحافظ على مزاجه فرحاً. حينها كانت قدمه تعرف قبل الخطو موضعها! عاد و أخذ بنصيحة نجيب محفوظ، كان ذلك استقراره الذي عاشه عبر سنيته الطويلة مندساً بين الجدران، استقراراً ما انتبهك لحظة الا ليظهر من جديد. كان يدرك تناقضاته! منذ أقام متراسه يستحکم خلفه دفاعاً عن تجربته- خياره امام ذاته المهتاجة، الامارة بالسوء تتسلح خلف متراسها باحتياجاتها ورغباتها وتطلق رصاصها، شكوى، أنين وصياح وحتى تناقضات تجربته المتوترة القصيرة المنغلة مع صورته. عاش تناقضاته تلك بالطول والعرض وما صرعه ليخون قيمه التي ناضل سنين على شرف التمسك بها، وما ان أخضعها حتى كان يستطيع القول وهو ملقى على الأرض [أنا راض عن حياتي وخياراتي] ليس للإنسان - وللمناضل الثوري أكثر - ان ينتزع نفسه من تناقضاته الداخلية، أنها جوهره، تتساعل تبعاً مع سنيته وأيامه وحياته ... ما ان ينتهي من واحدة حتى تنبز أخرى برأسها! يتزوج الإنسان تناقضاته زواجاً كاثوليكيًا لا فكاك منه! يحملها المناضل الثوري كما يحمل صليبه، سينطرح أمامه ذات السؤال عن تناقضاته:- كيف كانت نتيجة تصارعها داخله - في حياته، بالاندحار أمامها مهزوماً، متفوقاً كالفأر يدخل جحره ام بالتقدم للأمام شامخاً، منتصباً؟

لا صوت من الغرفة الملقى فيها هشام. كان مثله، منذ ساعات يحيا ذكرياته، تأملاته، هواجسه، انتظاراته وتناقضاته! مثله كان مطوقاً بالبساطير والأحذية الرياضية والمطاطية مقيداً ومعصوباً صوت يأتي من الغرفة المجاورة للغرفة الواسعة. ازدحام وضجيج وأحذية من كل الأنواع تدخل وتخرج، أصوات تنادي، أخرى تحذر تالثة غاضبة ورابعة محذرة! [مرة أخرى يا فياض تلتقي تجربتنا. اختلفت في البدايات واتفقت في تناقض القوة والضعف يتصارع طرفاه فينا، جمعنا فتاة النافذة فسنت ذناب وحدتنا ورغبتنا أنيابها تنهشنا فيما في النهاية نفترق ونلتق، لم اعد أدراجي لوطن لم اهجره أصلاً، وما شعرت ببرد الغربية يلسع عظامي بل دفاع رام الله احتضني منذ يومي الأول حتى ليلتي الأخيرة. الآن عدنا فالتقينا يا فياض يا رفيق التجربة، اعتقل مع مطبعة الحزب في وكر جحري. هل سيقود اعتقال ليضجة في الإعلام والصحافة مثلك، فتروى القصص والحكايات وتسري الشائعات لتمضي العجائز ساعات يومهن الرتيب بلوكها؟؟]

آخر ما كتبه ودفعه للطباعة رسالة داخلية سريعة للأعضاء يحذر فيها من تصاعد هجمة المخابرات على منظمات الحزب ارتباطاً بسعي الاحتلال المتوقع
الأقنيم الثلاثة - وسام الرفيدي ٢٠٠

لتجهيز الشارع لنجاح "المؤتمر الإقليمي" الذي حدد مواعده في نهاية تشرين الأول، بعد شهر ونصف من مداهمة وكره ... فأصابته الهجمة هو الذي حذر منها! كتب آخر الرسالة [لا تسمحوا لهم ان يحشروكم في الأكياس! تمردوا على قرار الاعتقال ولا تسلموا أنفسكم!] سيجدون النسخة الأصلية لا زالت مملوكة على دولااب المطبعة.

قبل تسع سنين اندس بين الجدران رافضاً تسليم نفسه وما هو الآن قبل نهاية حياته السرية بين الجدران بيومين، يومين فقط، يكتب اخر ما يكتب فيها داعياً رفاقه للاندساس مثله بين الجدران، إلى عدم تسليمهم أنفسهم! [لا احملك ما لا احتمل. لا أطلبكم بما لست اهلاً للقيام به. أدعوكم لتمرد أعيشه واحكم على حياة اخترتها فأنا من السابقين وانتم من اللاحقين، فهيا الحقوا!!!]

كان في خياله المتأمل يخاطب رفاقه جميعاً وهو يكتب اخر ما كتب في حياته السرية ولا يدري انه لن يحمل القلم بين الجدران بعد ذلك اليوم. قرأ روايتين مؤخرا. أخيراً حصل على الجزء الرابع من رواية "الدون الهادي" ترك ما بين يديه من عمل حزبي وعاد لعالم القوزاق. غريغوري بعد ان تقلب بين الثورة واعدائها. استقر مع اعدائها كفلاح نموذجي، ولما انتصرت الثورة ركب رأسه، ولم يسلم نفسه للثورة ويطوي صفحة الماضي فالدون بينه وبين البلاشفة غدا بحراً، فركب حصانه وتحول لقاطع طريق لتقتله الميليشيا. أما اكسينيا فقد ماتت بالحمى بعدما حزمت أمرها وهجرت زوجها ولحقت بعشيقها غريغوري. اما الرواية الثانية فكانت "غير المرغوب فيه" لريجيس دوبريه الذي ارتبط في شبابه بجيفارا والثورة في أمريكا اللاتينية ليعود شان العديد من متقفي البرجوازية ليلتحق بطبقته فيعين مستشاراً لميتران!

ما ان وصل صفحة ٨١ من الرواية حتى استوقفه مقطع فيها [لا يمكن التحقق مما اذا كان أحدهم من طينه المناضلين الا بعد سن الثلاثين: حين ينبغي له ان يتخلى عن ان يكون له عائلة واسم ومهنة وطموح إلى الأبد. الحيرة الدائمة - الفصلية مدى الحياة، الجو الكئيب للأيام الروتينية، رؤية الأصدقاء الذين يتزوجون ويؤسسون عائلة، رفاق الدراسة الذين يصبحون شخصيات مهمة ينجحون في المهنة كما يقال والذين يعرف المرء انهم أشخاص تافهون وان بإمكانه ان يتفوق عليهم عشر مرات لو كان مكانهم. يشبه الأمر ان يخلق أحدهم على نفسه برضاه الكامل في قبو ويرى الحياة تمر أمامه عبر المنفذ ولا يمكنه الا ان يتأمل سعادة الآخرين وهو يعرف ان هذا ليس له، في حين معه مفتاح وكره في جيبه ويمكنه ان

يصعد مجدداً فيختلط بالجمهور ساعة يشاء. يجهل صباحاً أين سينام مساءً ولا يعرف اذ ينام في المساء، اذا كان سيبقى حيث هو حتى الصباح. هذا ممكن ستة اشهر لكن ليس عشر سنوات دفعة واحدة.

وضع الكتاب اذ قرأ الفقرة وقام يتمشى، كان هو الآخر تجاوز الثلاثين واقترب من ولوج سنته العاشرة في وكره. "المناضل المحترف، رجل الغمل السري هو هو أينما ناضل، في بوليفيا، فلسطين، السودان، فنزويلا ... يحمل صليبه، وزر نضاله ويسير " فكر. اشد ما أسرته شخصية ماناويل ذلك الفوضوي الذي وهب نفسه للعمال في العالم، حيثما وجد نضالهم وجد مع حروف مطبعته يطبع منشيرهم!!

صوت المؤذن يعلن ان بدا ظهور الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. مع انبلاج الفجر بدأ يسمع أصوات زقزقة العصافير تأتيه من جهة شرفة المطبخ التي اعتادت العصافير ان تبني أعشاشها بين الماسورة النازلة من السطح وجدار المنزل بالقرب من سطح الشرفة.

عندما كان أحياناً يطلع عليه الصبح وهو يقرأ أو يكتب أو بسبب ارق ما فقد كان يجلس على الشرفة تلك يشرب الشاي ويدخن حتى السادسة أو السابعة صباحاً يرقب العصافير اذ تبدأ رحلتها من أعشاشها بحثاً عن الطعام فتظل تروح وتجيء بهمة ونشاط وحركة دائبة. كانت غدت بينائها لأعشاشها بقرب شرفته، صديقته التي تعشش عنده فتتعم بالأمان وترعى فراخها حتى يتحول زغبها الطري إلى ريش فتطير لتشرع من جديد بتفريخ جديد.

الأصوات لازالت تطرق مسامعه آتية من الغرفة المجاورة. من قربه تمر العديد من الأحذية والبساطير تتجه نحو الباب الحديدي ويسمعا تنزل الدرجات لتعود فتخرج من جديد. كانوا يخرجون غنائمهم من وكره: كتبه، ماكيناته، أشرطته الموسيقية والغنائية وكل ما يعتقدونه يستحق الفحص والدراسة والمصادرة لسبب ما. بدأ الآن يلوح من خلال عصابة عينيه ليس فقط حركة البساطير والأحذية قربه تروح وتجيء بل يرى شعاع الشمس الباهت الضعيف يتسلل لبيته - لوكره. [الآن سيبدأ عمال معمل الطوب المجاور بالتوافد على عملهم، برهة قصيرة ويبدأ ضجيج الماكينات الهاتك لسكون الحي بأكمله بالإعلان عن نفسه!!.

كثيراً ما نقم على المعمل وماكيناته وصاحبه وعماله وعلى اليوم الذي اخترع فيه الإنسان حجر الطوب! كان عمله يفرض عليه أحياناً ان يسهر لما بعد منتصف الليل، للثانية أو للثالثة صباحاً، وما ان ينام ساعتين أو ثلاثة مجهداً حتى يصحو من اثر الضجيج العالي للماكينات وكأنها مطارق تهوي على رأسه! بل أحياناً كان عمال المعمل الذين يعملون بنظام "المقاوله" يبدأون عملهم الساعة الواحدة أو الثانية صباحاً لينهوه الساعة العاشرة صباحاً قبل ان تفتحهم الشمس اللاهبة صيفاً، هم المنهكون من عملهم كان ذاك ترتيبهم الذكي! ولكن اتى له ان يفهم ترتيبات العمال واحتياجاتهم! كان يريد ان ينام اذ لديه هو الآخر عمله وترتيباته واحتياجاته. ما كان يملك حينها الا ان يشتم ويلعن بعصبيية أو يخاطب العمال ساخراً والتوتر يسيطر عليه [أناضل من أجلكم! أفلا تقدرون وتدعونني أنام قليلاً!] ويرحل من غرفته إلى الغرفة المقابلة لينام، لكنه يكون كمن يستجير بالرمضاء من النار! ما هي الا لحظات حتى يبدأ عمال البلاط عملهم، ولهم هم الآخرين نظام ازعاج فريد من نوعه تفرضه طبيعة عملهم، يبدأون بمجرفة حديدية بغرف مختلف أنواع الحصى المتنوعة الأحجام وتجميعها في عربة نقل حديدية تسير على أرصفة مليئة بالحصى متجهة لداخل المعمل، يعني حفلة من الأصوات الاستفزازية!

حذاءان رياضيان يتوقفان عند رأسه. مقدمتا الحذاءين تتجهان لوجهه.

- زي هو، زي كنعان صبحي*. تحدث أحدهم.
- ها إذن أنت كنعان صبحي نحن مشتاقون لمعرفتك منذ سنين!. قال الثاني
- ليس عندي رغبة كرجبتك. رد كنعان.
- يبدو عليك عنيد!
- ستتعرف علي جيداً، لا تتعجل.

كان ذلك آخر ما تحدثوا به في وكره. سمع صوت الشاحنات العسكرية تعلن تهيوها للرحيل. أحدهم ينهضه، يفك وثاق قدميه، يسوقه نحو الباب الحديد [لماذا لا تشتغل مكائن معمل الطوب؟ ألا تودعني، تحملني ذكراها؟ أريد أن احمل صوتها معي، أريده!! وصل الباب.

بدأت رحلته الجديدة - حياته الجديدة، ها هو الآن يفتح باب مضى سنينه خلفه ليخرج منه فيقل من جديد. تستقبله تجربة جديدة.. بين باب وباب قضى عمر شابه في اتون التجربة. هو هو كنعان صبحي دخل الباب، مكث خلفه وخرج ولكنه ما عاد نفسه! يخرج وهو يجر في اذياله تاريخ، يحمله على أكتافه، يطوي على تجربته شغاف قلبه.

أعود للحياة وقد خلقت من جديد! ماذا ستكون عليه حياتي الجديدة؟ سنين
اسر، رحيل عن وطن، ام قتل بدم بارد؟ لا يهمني، يكفيني انني عشت قناعاتي
وقيمي واهدافي. لا يهمني لا يهمني] استقبل الدرجة الأولى وهو يهتف في
سريرته [لا يهمني، لا يهمني]!

أحد الذين يسوقونه سواء لقصر قامته أو لرغبة باهانة المخرب بين يديه أو
لاخفاء وجه كنعان عمن قد يلحقه كان يضغط على رأسه ليحنيه للأسفل وقد هبط
درجات السلم [لن تنال ذلك يابن العاهرة، لن اخرج من حياتي السرية محني
الرأس، ولجتها متمرداً وساغادرها هكذا، سأرفع هامتي ولو هشمت عظامي على
درجات وكري. ليراني عمال معمل حجر الطوب كيف نزلت، كيف كنت بين أيديهم،
ليعرفوا أي نوع من المناضلين نحن، أبناء الحزب]!

صمم بينه وبين نفسه ورفع رأسه رغماً عن يد البسطار الضاغظ للأسفل.
عاد البسطار ليضغط فعاد هو ليرفقه، ينزلون درجات الوكر، الخفض والرفع
مستمرين حتى وصلوا الدرجة الأخيرة فتوقف الجندي وما عاد يضغط. كان وصل
الباب الحديدي وفي المسافة الفاصلة بينه وبين الدرجة الأخيرة انطلق صوت مكائن
الطوب! تهلل قلبه فرحاً وصاح في سريرته [إنها تودعني هذه الحبيبية، إنها
تودعني!] رد العمال يقولون له [اعذرنا يا مَنْ اندسست بين الجدران على إزعاجنا
لك! مهمتنا صناعة حجر الطوب للبناء مثلما هي مهمتك ان تبني مع رفاقك وطناً
حرّاً. كلنا نبني فنحن أبناء معسكر واحد. ها نحن نلبي رغبتك ونودعك على
طريقتنا، نحملك صوتنا، ذكرانا، أيها الجار يا رفيق المعسكر!] لكم تمنى ان يرد
للعمال تحيتهم، ان يقول لهم [صباح الخير يا شباب، يعطيكم العافية!] ولكن
الشاحنات تنتظر لتحمل صيدها الثمين لمستقبله المجهول. سيره المستقيم مرفوع
الرأس اعتبره تحية للعمال الذين كان يعرفهم واحداً واحداً وهم لم يروا وجهه يوماً.
ما ان دلف الباب حتى تنهى له صوت الشيخ إمام من بعيد، بعيد، دافئاً شاعرياً:

طلع الصباح كل الجمال في طلعه
والنور سرح كحل عينينا بفتنته
والطير صدح للمولى جلّت قدرته
الحن جميلة تنعش القلب الحزين
يسعد صباحكم كلكم يا شغاليين!

كان يحمل معه صوت زقزقة العصافير. صوت شيخه الضريير الثوري،
صوت مكائن العمل وهو يدلف الباب الخارجي مطوقاً بالثكنة ليمر على الممر ...

٦
نزل الدرجات الأربع فوطات قدمه الشارع، رفع رأسه أكثر. الآن يشاهده العمال جيداً! [وداعاً يا سنوات العمل الأكثر قسوة ونضالاً!]

ما ان أطلق صيحته تلك حتى شعر وكان سنينه الماضية تفلت من ذاكرته فجأة، كأنه بصقها! تركها خلفه وسار تسحبه البساطير لشاحنات. ترك سنة القوة والضعف، سني الحسم وصورة منى، سكينه وفتاة الشمس والربيع، هجمة سنة ١٩٨٥، مواجهات المنظمات والأعضاء، الرغبة والاحتياج، توتره، فرحه، غضبه، نواذره، انتظاراته، صورة هند وشفتيها النديتين، سني الانتفاضة وحرب الخليج، حزنه، انتعاشته، لحظة لذته، ألمه ... ما عادت كلها تستوطن شريط ذكرياته ولم يكن سوى كلمات تطن في رأسه، وتندلق على لسانه:
- مرحلة جديدة تتطلب مواجهة جديدة وتحدياً جديداً.

القيّ به في الشاحنة وسمع من خلفه صوت انصفاق الباب ■

معتقل النقب - انصار ٣

شباط / ١٩٩٥ .

